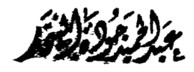


لجنة النشر للجامعيين

أبناء أبي بكر الصدّيق



لجنة النشر للجامعيين

أبناء أبي بكر الصدّيق

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

يطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها

٦٣ شارع الفجالة — تليفون ٥٨٩٢٠

مطبعة مكتبة مصر

الفصل الأول

خفقـــة قلب

لم يستيقظ النهار بعد ، وكان مسبلا جفنه على عينه المبصرة ، فكان ضياؤها محجوبا عن الكون ، وعلى الرغم من ذلك فقـــد هب أهل مكة من نومهم ، وخرجوا زرافات يضربون فى عماية الصبح صوب الكعبة ، ليطوفوا بها وليودعوا الأحبة الخارجين فى تجارتهم إلى الشام ، وانطلق القوم إلى الأصنام المنصوبة فى جوف الكعبة وأخذوا يتمسحون بها ، يلتمسون عونها ، ويطمعون فيما عندها ، ويرجون خيرها .

ودلف شاب وسيم ، فى العقد الثانى من عمره ، من باب من أبواب الحرم ، وانطلق إلى هبل ، وأخذ يبتهل إليه فى حرارة ، ويسأله التوفيق فى خشوع ، حتى إذا مااطمأن إلى دعائه ، وإلى أن هبل العظيم سيرعاه فى سفره ، خرج لينضم إلى رفقائه الذين سيصاحبونه فى رحلته التى يرجو أن يحالفه التوفيق فيها . سار الفتى مرفوع الرأس ، مطمئن النفس ، فى وجهه الرضى ، وفى عينيه الأمل الحلو ، وعلى شفتيه ابتسامة عذبة ، إنه ليرى الدنيا مقبلة ، وإنه لبها جد شغوف ، فما رأى إلا جمالها ، وما أحس إلا حنـانها ، وما ذاق إلا عذب نميرها ، إنه ابن سـيد من سادات قريش ، رزق بسطة فى العيش ، فتجارتهم واسعة ، ومالهم ممدود ، وإنه ليتأهب للخروج إلى الشام فى تجارة أبيه ، وإنه ليحس شوقا لرؤيتها ، فلطالمـا سمع من أبيه وصحبـه عن جنانها الزاهرة ، وأنهارها المتفجرة ، وأسواقها العامرة ، وقصورها الشامخة .

وبلغ قافلته فأقبل الجميع يسلمون عليه ، وأخذ يمزح مع القوم، فجلجلت

ضحكته حرة طليقة ، واستمر فى دعابته ، فقد كان فتى فيه رقة ودعابة ، حتى أذن بالرحيل ، فانطلق الفتى عبد الرحمن بن أبى بكر إلى الشام وهو يرجو خيرا كثيراً .

استمرت القافلة فى سفرها ثم نزلت منزلا ، فنصب القوم حجرا وأخذوا يطوفون به ، وراح عبد الرحمن يطوف به فى خشوع ، ثم ذبح عنده ووزع ماذبح على رفاقه تقربا وزلفى ، واستأنفت القافلة سفرها ، واستأنف عبد الرحمن مرحه وراح ينتقل بين القوم كفراشة طليقة تنتقل من زهرة إلى زهرة ، وأخيراً حطت القافلة رحالها فى أسواق الشام ، وأخذ الناس فى البيع والشراء ، حتى نفد ما كان فى قافلة عبد الرحمن وربح ربحا وفيرا .

نفقت تجارة عبد الرحمن فرأى أن يجوس خلال الديار ، يشاهد جمالها ، ويزور آثارها ، فراح يضرب فى طرقاتها حتى بلغ قصرا فخما ، راعته عظمته ، وأعجبته بنايته ، فراح يتطلع إليه ، ويدور حوله ، وقد كان القصر للجودى ملك الشام . وبينا كان عبد الرحمن يلف حول القصر ، إذ وقع بصره على فتاة ملاحة حلوة ، ذات حسن باهر ، وجمال قاهر ، وكانت على طنفسة لها وحولها ولائدها ، فكأنما كانت قمرا يحف به النجوم ، وزهرة تفتحت وحولها الأكمام ، فخفق قلبه ، وسلب لبه ، ووقف مأخوذاً يتجلى ذلك الحسن ، ويتمتع بالتطلع إلى الجمال الفتان . وانقضى الوقت وما أحس عبد الرحمن مروره ، بل بقى واقفا كالمسحور حتى قامت عن طنفستها ودخلت ، فعاد إلى نفسه ، وانصرف وهو مطرق يفكر فى ذات الحسن والجمال .

انقضى الليل ولم يذق عبد الرحمن كثير غمض ، فقد كانت الفتاة تماثل له وتحتل فكره ، وقد سره أن يقضى الليل يفكر فيها ، وما إن طلع النهار حتى خرج عبد الرحمن قاصدا قصر الجودى ، وأخذ يلف حوله لعله يلمح ليلى فتكتحل برؤيتها عيناه ، وكان كلما لمح شبحا فى القصر اضطرب نفسه ، وخفق قلبه ، وانقضى الوقت ثقيلا ، فما رأى ليلى ، وما اطمأن فؤاده ، وأخيرا لمحها تخرج إلى حديقة القصر وخلفها ولائدها ، فأحس قلبه فى صدره كجناح خافق ، وراح يديم النظر إليها هيمان نشوان .

شعر عبد الرحمن بالسعادة تملأ نفسه ، ودامت سعادته مادامت ليلى أمام عينيه ، ولكنه أحس انقباضا عقب انصرافها ، إنه ليتوق إليها ، وإنه ليتمنى وصالها ، ولكن هل من سبيل إلى الوصال ؟ إنها ابنة ملك الشام ، وإنه مهما بلغ ابن سيد من سادات قريش ، وما قريش فى نظر الملك العظيم إلا حفنة من التجار ، فما بال قلبه يتعلق بالمحال ويتوق إلى السماء .

واستمر عبد الرحمن يتجه إلى قصر الجودى كل يوم ، يشاهد ليلى على البعد ، حتى إذا ما حان أوان العودة إلى مكة ، انطلق مشغول الفؤاد ، وراح يفكر طوال الطريق فيمن سلبته قلبه وأخذ الناس يتساءلون عما دهى الفتى المرح ، وما أصابه فلم يدر أحد مابه ، حتى ألحت عليه الذكرى فقال :

تذكرت ليلى والسماوة دونها ... فمال ابنة الجودى ليلى وماليا

فيالعبد الرحمن ، لقد خرج من مكة خلى البال ، وعاد إليها أسير الهوى والغرام ، وياليته أحب من يستطيع أن يطمع فى نوالها ، ولكنه أحب المحال ، أحب من كل قلبه من السماء دونها ، فمال ليلى وماله ، ترى أرآها لتزلزل كيانه ، وتنغص عيشه ، وتبدل هناءه ، أم رآها لحكمة لايراها ، فمن يدرى فقد يجود الزمن بالوصال.

الفصل الثانى

مصاهرة

انطلق بعد أن أعرض الناس عنه فى كل مكان إلى منزل قبيلة من القبائل المنتشرة فى أطراف مكة ، فبلغه بعد أن نال منه الجهد ، وبان عليه الإعياء ، ووقف يلتقط أنفاسه حتى إذا ماهدأ قليلا هتف : « يابنى فلان » فخرج الناس ليروا ماهناك ، فرأوا محمد بن عبد الله ، فتطلعوا إليه فقال لهم : « إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين مابعثنى به » وما إن فرغ من قوله وما دعا إليه ، حتى ظهر خلفه عمه أبو لهب ، أحول له غديرتان : عليه حلة عدنية ، وقال : « إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ماجاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له » ، فلما سمع القوم قالته نظروا إلى النبي شذرا ، ثم جعلوا يعودون من حيث أتوا ، وتركوا رسول الله وحده باسر الوجه ، مطأطىء البصر ، وانقضت برهة ثم رفع عينيه فألفى عمه مشرق الوجه ، ضاحك السن ، فانصرف حزينا وأبو لهب فى أثره ليفض الناس من حوله ، وليحرضهم على ابن أخيه الذى جاءهم ببدعه لا لهم ولا لآبائهم بها من علم .

وانقضى اليوم فى كفاح مرير ، وبلغ الجهد برسول الله غايتـه ، فانطلق إلى داره مطأطىء الرأس ، كسير القلب ، واستمر فى سيره حتى بلغ الدار ، فلم يحس تلك الراحة التى كان يحسها فى الأيام الخوالى كلما بلغها ، فلقد صارت الدار موحشة بعـد أن أقفرت من خديجة الوفيـة الحنون التى كان يسكن إليها فتمسح حزنه ، وتخفف من ألمه ، وتسرى عنه ، وتشد من أزره .

وقام فى هجعة الليل يصلى لربه ، يسأله عونه ، ويناشده وعده ، حتى إذا ماهدأت

نفسه اتجه إلى فراشه فنام ، فرأى فيما يرى النائم رجلا يحمل امرأة فى سرقة حرير ثم يضعها ويلتفت إليه ويقول : « هذه امرأتك » فيقوم إليها ويكشفها ، فاذا هى عائشة بنت أحب الناس إليه .

وتنفس الصبح ، فانطلق إلى بيت الصديق كما اعتاد أن ينطلق كل يوم ، ثم خرج وصاحبه يضربان فى مكة حتى تصرم النهار كما تصرم سابقه فى كفاح ، وعاد مع الليل إلى داره ، وقام يصلى لربه ، يسأله عونه.ثم اندس فى فراشه ونام ، فرأى رجلا يحمل امرأة فى سرقة حرير ، ثم يضعها ويقول : « هذه امرأتك » فيكشفها فإذا هى عائشة ، فيقول : « إن يكن هذا من عند الله يمضه » .

وفى يوم من الأيام أقبلت خولة بنت حكيم إلى رسول الله وقالت :

— أى رسول الله ألا تزوج ؟

— ومن ؟

— إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيبا .

— فمن البكر ؟

— ابنة أحب الناس إليك: عائشة بنت أبى بكر .

— ومن الثيب ؟ .

— سودة بنت زمعة ؟ ؟

— فاذهبى فاذكريهما .

وخرجت بنت حكيم من عند رسول الله ، وانطلقت إلى دار الصديق فرحة ، وراحت تغذ فى السير حتى دخلت على أم رومان أم عائشة ، فلما جلست قالت وقد بان البشر فى محياها :

— أى أم رومان ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ !

— وما ذاك ؟

— أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة .

— وددت . انتظرى أبا بكر فإنه آت .

وانتظرت بنت حكيم ، وكانت تتطلع إلى الباب بين وقت وآخر ترقب دخول

الصديق ، حتى إذا ما أقبل أسرعت إليه وقالت :

— يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ، أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة .

فنظر أبو بكر إليها في عجب وقال :

— وهل تصلح له ؟! إنما هي ابنة أخيه .

فلم تدر بنت حكيم ماتقول ، وقامت وقد ساءها أن تخفق في سفارتها لتزويج خير البشر . ورجعت إلى النبي وأنبأته بالخبر فقال لها :

— ارجعي إليه فقولي له : أنت أخي في الإسلام وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لي .

فلما بلغ صوت النبي سمعها برقت أساريرها ، وعاد إليها بشرها ، ونهضت خفيفة قاصدة دار الصديق .

جلست بنت حكيم ، وأبو بكر مطرق يفكر ، وأم رومان تنظر إليه ، ثم قطعت بنت حكيم حبل السكون فقالت :

— إيه ياأبا بكر ، ما تقول ؟

فنهض وقد بان في وجهه العزم وقال وهو يتجه صوب الباب :

— انتظريني حتى أرجع .

وخرج أبو بكر تاركا أم رومان وبنت حكيم ينتظرانه ، وقالت بنت حكيم :

— أين ذهب ؟

— إن المطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه ، ولا والله ماوعد شيئا قط فأخلف.

لم يشأ أبو بكر أن يقبل زواج ابنته من أحب الناس إليه دون أن يرجع إلى من ذكروا ابنته على ابنهم ، فما كان ممن ينكثون بعهودهم ، فانطلق إلى دار المطعم واستأذن في الدخول فأذن له فوجد المطعم وعنده امرأته فقال :

— جئت أسألكم عن زواج ابنكم من عائشة .

فأطرق المطعم قليلا . وقالت زوجه العجوز معتذرة :

ـــ يابن أبي قحافة ، لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك أن تصبئه وتدخله فى دينك .

وشاء أن يسمع رأى المطعم فأقبل عليه وقال :

ـــ ما تقول هذه ؟

فقال المطعم دون أن يرفع بصره :

ـــ إنها تقول ذاك .

فخرج أبو بكر والغبطة تملأ نفسه ، فقد أذهب الله العدة التى كانت فى نفسه من عدته التى وعدها إياه ، وعاد إلى داره فرحا ، إنه ليستطيع أن يزوج عائشة من رسول الله الآن ، ودخل الدار فلما وقع بصره على بنت حكيم قال لها :

ـــ أى خولة ، ادعى لى رسول الله .

فانطلقت خولة لتدعو رسول الله ليعقد على عائشة بنت أحب الناس إليه .

الفصل الثالث

ذات النطاقين

جلست أسماء فى دار أبيها ، لا تفعل شيئاً فقد كان الوقت ظهراً ، وأسبلت عينيها ، فرأت بعين خيالها يوم أقبل الزبير بن العوام إلى أبى بكر لخطبتها ، ثم رأت يوم بنى بها وأخذها إلى داره ، ثم رأته وهو يعود إليها وقد ضاق ذرعا باضطهاد القوم الفاسقين له ولإخوانه المسلمين ، وتذكرت ساعة الوداع قبل رحيله إلى الحبشة فغامت عيناها للذكرى الأليمة ، ولكن ما لبثت أن أشرقت أساريرها لما فكرت فى عودته إليها سالماً ، وبقائه بجوارها هامدة حتى إذا ما بدأت الهجرة إلى يثرب هاجر إليها مع من هاجر تاركا البلد الظالم أهله ، واستمرت أسماء فى رفقة فكرها حتى أقبلت عائشة . فأخذت الأختان بأطراف الحديث ، وجاء أبو بكر وجلس على سريره ، وكان الوقت ظهرا و الحر شديدا ، وما انقضت برهة حتى دخل غلام وقال لأبى بكر :

— هذا رسول الله متقنعا .

فقام أبو بكر عن سريره وقال :

— والله ماجاء به هذه الساعة إلا أمر .

وجاء رسول الله فاستأذن فأذن له فدخل ، ولما وقع بصره على أبى بكر قال له :

— أخرج من عندك .

— إنما هم أهلك بأبى أنت يارسول الله .

— إن الله عز وجل قد أذن لى بالخروج والهجرة .

— الصحبة يارسول الله .

— الصحبة .

فبان البشر فى وجه أبى بكر ، ولم يتمالك نفسه فطفرت دموع الفرح من عينيه . فلطالما التمس من النبي الإذن بالخروج ، ولطالما حبسه النبي قائلا :

« انظرنى إنى لأأدرى لعلى يؤذن لى بالخروج » فيالفرحه ، إنه سيخرج فى رفقة النبي الحبيب ، وأسرع إلى كوة فى البيت كان يضع ماله فيها ، فاحتمله كله ، ورجع إلى حيث كان النبى فألفى عبد الله ابنه قد عاد إلى الدار فالتفت إليه وقال:

— أى عبد الله ، سنرحل الساعة ، فاستمع لنا ما يقول الناس فينا نهارا ثم آتنا إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من خبر .

وخرج النبى وأبو بكر من خوخة فى ظهر الدار ، وانطلقا فى رعاية الله ، وراحت أسماء وعائشة وعبد الله يرقبونهما حتى غابا عن عيونهم .

* * *

علم الملأ من قريش أن النبي وأبا بكر قد خرجا من مكة ، فحنق القوم وغضبوا ، وساءهم انفلات النبي منهم فى اليوم الذى عزموا فيه على قتـــله والتخلص منه ، وراحوا ينقبون عنه فى كل مكان ، ويتعقبونه لعلهم يعثرون له على أثر ، وأتى نفر من قريش فيهم أبوجهل بن هشام عدو النبىالأول ، ووقفوا على باب أبى بكر ، فخرجت إليهم أسماء وقالت :

— ما تريدون ؟

— أين أبوك يا ابنة أبى بكر ؟

— لا أدرى والله أين أبى .

فظهرالحنق فى وجه أبى جهل ، ورفع يده ولطمخدها لطمةطرح منها قرطها، فنظرت إليه نظرة أودعتها كل احتقارها ، وغالبت دموعها التى كادت أن تجرى على خديها حتى لا يتشفى فيها عدو الله وعدوهم ،وانصرف القوم ، ودخلت أسماء، وجلست بجوار عائشة ، ثم أقبل جدهما أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فأجلسته على سرير أبيها وما كاد يستقر حتى قال :

— والله إنى لأراه قد فجعكم بماله فى نفسه .

فقالت أسماء :

— كلا يا أبة ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً .

وانسلت أسماء من مكانها ، وأخذت أحجارا فوضعتها فى الكوة التى كان أبوها

يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم عادت إلى حيث كان جدها ، وأخذته بيده وانطلقت به حتى بلغا الكوة فقالت :

— يا أبة ، ضع يدك على هذا المال .

فوضع يده على الحجارة ، ثم قال :

— لابأس إذ كان قد ترك لكم هذافقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم .

وانصرف أبو قحافة وهو يحسب أن ابنه قد ترك لأبنائه خيراً كثيراً .

اندس عبد الله بين القوم وقد أرهف السمع ، يسمع كل ما يقولون ، ويعي كل ما يدبرون حتى إذا ما أمسى المساء انطلق إلى غار ثور ، وهو يتلفت حوله خشية أن يتبعه عين من عيون القوم ، فيعثر على مكان اختباء النبي وأبي بكر ، وبلغ عبد الله الغار فدخل فألفاهما جالسين فجلس وراح يقص عليهما نبأ القوم ويخبرهما أنهم قد جعلوا مائة ناقة لمن يرد عليهم النبي ، واستمر عبد الله في حديثه حتى سمع صوت حفيف ثوب عند باب الغار فتطلعوا جميعاً ، فألفوا أسماء قد أقبلت بما يصلحهم من الطعام ، ثم وضعته وانصرفت حذره ، وقدم عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وترك الغنم بالقرب من الغار ، فكان النبي وأبو بكر يحتلبان ، ونام عبدالله ليلته معهما في الغار حتى إذا ماتنفس الصبح انطلق ليصبح مع قريش بمكة كبائت ، واتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه .

وانقضت ثلاثة أيام على هذا الحال ، فسكن عن النبي وأبي بكر الناس ، وخرجت أسماء بسفرتهما حتى بلغت الغار فوجدت صاحبهما الذى استأجرا ببعيريهما ينتظر ، فأسرعت لتعلق السفرة بالبعير ، ولكنها لم تجد لها عصام ، فالتفتت إلى أبيها وقالت :

— لا أجد شيئاً أربطه إلا نطاقي .

— فشقيه .

فشقت نطاقها وربطت السفرة ، وقرب أبو بكر إلى رسول الله أفضل الراحلتين ثم قال له :

— اركب ، فداك أبي وأمي .

— إنى لا أركب بعيراً ليس لى .

— فهو لك يا رسول الله .

— لا ، ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ .

— كذا وكذا .

— قد أخذتها بذلك .

— هى لك يا رسول الله .

وركب النبي راحلته ، وركب أبو بكر وأردف عامر بن فهيرة خلفه ، وانطلق الركب الكريم إلى يثرب ، وأسماء واقفة عند الغار تتطلع إليهم حتى إذا ماابتلعهم الأفق البعيد ، عادت ذات النطاقين إلى مكة .

الفصل الرابع

المولود الأول

استقبلت يثرب رسول الله وصديقه الوفى استقبالا رائعاً . وقد هز الفرح قلوب المسلمين جميعاً ، فقد قدم الرسول الأمين ليمكث بينهم ، فيلم شملهم ، ويدبر أمرهم ، ويعلى من شأنهم ، وبين هذه القلوب السعيدة اندس قلب حاقد أكلته الغيرة ، وتركته يدمى مقتاً وحقداً ، وكان صاحب هذا القلب عبد الله بن أبى بن سلول ، فقد كان فرح القوم بمقدم الرسول يحزنه ، وكان انبساط أساريرهم يقبضه ؛ إنه ليمقت محمداً ، وإنه ليمقت ذلك اليوم الذى وفد فيه إلى يثرب ، فإن وفوده حرمه الملك ، وسلبه السلطان ، لقد عزم قومه الأوس والخزرج على أن يضعوا تاج يثرب على رأسه ، وأن يجلسوه على عرشهم ، ولكن ما إن ظهر النبى حتى ذاب التاج ، وتقوض العرش قبل أن يتربع فيه ، وتحولت الأنظار عنه بعد أن كان قبلة الأنظار . لقد سلبه النبى كل شىء سلبه الملك ، وسلبه الحب ، حب الناس له ، وحب السيطرة على الناس ، فلم يبق فى مستودع نفسه إلا البغض ، فكره النبى أشد الكره ، وود أن يجهر بمقته لينفس عن صدره ما يجيش به من حقد ، ولكنه وجد القلوب ملتفة بالنبى ، نابضة بحبه ، فكبح شهوة نفسه وهو كاره ، وراح يتربص بغريمه الذى حرمه الملك الدوائر ، وتقنع بقناع الصداقة لعله ينال عن طريقه ما لا ينال العدو السافر .

واستقر المهاجرون بيثرب ، وطابت لهم الحياة ، فقد انقضت أيام الاضطهاد ، وأقبلت أيام القوة والعز والسلطان ، فبعث النبى لحمل بناته وزوجته سودة بنت زمعة من مكة إلى يثرب ، والتمس أبو بكر من عبد الله بن أريقط ، الذى كان دليلهم فى هجرتهم ، أن يخبر عبد الله ابنه بمكانه إذا ما عاد إلى مكة ، فلما عاد قابل عبد الله

ابن أبي بكر فى أسواقها وانبأه أن أباه قد نزل بالسنح بالقرب من يثرب ، فانطلق عبد الله إلى الدار وطلب من أسماء وعائشة وأم رومان أن يتجهزن للخروج ، وقابل طلحة بن عبيد الله فأنبأه بعزمهم ، فعرض طلحة عليه صحبتهم ، وفى سكون الليل خرجت رواحل من مكة تحمل عيال أبى بكر قاصدة يثرب : مدينة الرسول .

نزلت عائشة خطيبة النبي فى دار أبيها بالسنح ، لقد كانت طفلة يوم عقد عليها النبي ، ولكنها اليوم حلوة رقيقة نامية ، ذات ولع باللعب والمرح ، فخرجت إلى فناء الدار تلعب ، وأقبل الرسول إلى دار أبى بكر فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء ، وذهبت أم رومان تبحث عن عائشة فجاءتها وهى فى أرجوحة بين عرقين يرجح بها ، فأنزلتها ثم مسحت وجهها بشيء من ماء ، ثم أقبلت تقودها حتى إذا كانتا عند الباب وقفت بها ليهدأ روعها ، ثم دخلتا فرأت عائشة رسول الله جالساً على سرير ، وعنده رجال ونساء من الأنصار ، فأخذتها أم رومان وأجلستها فى حجر النبي وهى تقول :

— هؤلاء أهلك ، فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك . فهب القوم وخرجوا ، وهكذا بنى رسول الله بعائشة ، فما نحرت جذور ، ولا ذبحت شاة .

وحمل المهاجرون نساءهم من مكة إلى المدينة ، وصاهروا الأنصار ، وانقضت شهور لم يولد لهم فيها ، فزعم اليهود أنهم سحروهم فلا يولد لهم . فلم يلتفت المسلمون لهذا القول بل سخروا منه ، ولكن انقضت شهور أخرى ولم تسمع يثرب صراخ مولود جديد ، فتهامست نساء المسلمين ، ثم تهامس الرجال والنساء ، ثم تحدث الرجال مع الرجال فأصبح حديث سحرهم حديث يثرب ، وانقضت شهور أخرى لم يولد للمسلمين فيها ، فحسبوا أن اليهود سحروهم حقا ، وأصبح الزعم يقينا .

وفى يوم من الأيام بينا كان رسول الله وأصحابه جالسين ، أقبل البشير من قباء إلى يثرب يحمل البشرى للمسلمين ، فلما دنا من النبي هتف :

— رزق الله الزبير بن العوام وأسماء بنت أبى بكر مولودا .

— وما إن بلغ النبأ مسامع القوم حتى أنعش القلوب ، وأطلق الحناجر بالتكبير ، وكان تكبيرهم ذلك فرحا وسرورا ، فقد كذب الله اليهود فيما قالوا .

وأقبلت أسماء تحمل فلذة كبدها ، وتضمه إليها منشرحة الصدر ، راضية النفس حتى إذا ماأتت رسول الله وضعته فى حجره ، فبش النبي له ، ثم دعا بتمرة فمضغها ، ثم حنكه بها ، ثم دعا له بالبركة وسماه عبدالله ، ثم ناوله لأسماء فاحتضنته وانطلقت به ، وهى ترجو له خيرا كثيرا .

الفصل الخامس

غيرة

نزل أبو بكر بالسنح من ضواحي المدينة على خارجة بن زيد من بنى الحارث من الخزرج ، فلما آخى النبي بين المهاجرين والأنصار آخى بين أبي بكر وخارجة ، فأخذ أبو بكر يعمل فى الزراعة معه مزارعة فى أرضه ، فتوطدت عرى الصداقة بينهما وقويت روابط الألفة والمحبة ، وفاتح أبو بكر خارجة فى تزويجه ابنته فوافق ، وتزوج أبو بكر من حبيبة بنت خارجة وبقيت معه حتى قضى ، وولدت له أم كلثوم غب موته ، ثم تزوج من أسماء بنت عميس لتلد له محمداً .

ونزل الزبير بن العوام بيثرب ، وكان فقيراً ، ما له فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير جمله الذى يستقى عليه ، وغير فرسه ، فكانت زوجه أسماء تقوم بعلف فرسه ، فإذا ما فرغت منها خرجت تملأ الماء ثم تعود لتصلح دلوها الجلد أو لتعجن ، وما كانت أسماء لتحسن تخبز ، فكانت تستعين بجارات لها من الأنصار ليخبزن لها وقد كن جارات صدق ، فإذا ما انتهت أعمال البيت انطلقت إلى أرض الزبير التى أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى على ثلثى فرسخ من الدار ، لتعمل بها حتى إذا ما مالت الشمس للمغيب عادت إلى دارها لتحتضن ابنها عبد الله .

وفى يوم من الأيام حملت أسماء النوى من أرض زوجها على رأسها وانطلقت إلى الدار ، وفى الطريق قابلت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه نفر من الأنصار ، ورأى النبي حملها فشاء أن يحملها على راحلته خلفة فهتف :

— أسماء .

ثم قال لبعيره : « إخ . إخ » ليفيخ بعيره ، ولكن أسماء لم تتقدم ، فقد تذكرت شدة غيرة الزبير ، فعرف رسول الله أنها قد استحيت أن تسير مع الرجال ، فمضى

ولم يلتفت خلفه ، ومضت أسماء حتى بلغت الدار ، ولما أقبل الزبير قالت له :

— لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسي النوى ، ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب فاستحييت منه ، وعرفت غيرتك .

فأطرق الزبير قليلا ثم قال :

— والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه .

وبلغ أبا بكر ما تقاسيه ابنته من مشاق ، وما تقوم به من أعمال ، فبعث إليها بخادم تكفيها سياسة الفرس ، ففرحت أسماء فرحا شديداً ، فكأنما قد أعتقها أبوها.

* * *

وتزوج النبي من عائشة ، فاحتلت مكان خديجة فى دار الرسول ، وأحبها النبي فنزلت من قلبه منزلة خديجة ، ورأت فاطمة بنت رسول الله احتلال عائشة مكان أمها ، وإعزاز النبي لها ، فأحست نحوها بأشياء ، إن فاطمة لتعلم مقدار حب أبيها لها ، وإن هذا الحب لمما يشرح صدرها ، ويدخل على نفسها الغبطة والسرور ، ولقد كان سرورها صافياً أيام كانت أمها تملأ دار أبيها ، فما كان يشوبه شائبة من أحاسيس تعكره ، أما وقد أصبحت عائشة تشاطرها هذا الحب ، وتقاسمها قلب النبي العظيم ، فقد امتزج سرورها بغيرة ، غيرة الابنة من أخذت مكان أمها ، وغيرة الابنة ممن قاسمتها فى قلب أبيها وعطفة الكبير .

وبلغ فاطمة أن عائشة أعدت يوما طعاما ، وجلست وزوج النبي سودة بنت زمعة ورسول الله بينهما ، فقدمت لسودة شيئاً من طعام أعدته ، ولكن سودة اعتذرت بأنها لاتحبه ، فقالت لها عائشة وهي تضحك إنها ستلطخ وجهها به إذ لم تأكل منه ، فاعتذرت سودة ثانية ، فقامت عائشة ولطخت وجه سودة به وهي مغرقة فى الضحك ، فضحك النبي ولم يقل شيئاً ، فساء فاطمة ذلك ، فما كانت تحسب أن يبلغ دلال عائشة على النبي هذا ولما كانت النساء محدثات الليل ، فإن فاطمة حدثت علياً زوجها بكل هذا ، فانتقل مافى نفسها إلى صدر ابن أبي طالب فأصبح ينظر إلى بنت الصديق بعين فاطمة ، ويحس بإحساس زوجه ،

ورأت عائشة حب النبي لابنته ، وقيامه لها إذا حضرت ، وإقباله عليها ، وشدة حبه لابنائها وحدبه عليهم ، فكانت تحس غيرة ، وكان النبي يبش إذا ما رأى الحسن أو الحسين ، وكان كثيراً ما يسأل عنهما ويلاعبهما ويضاحكهما حتى إذا ما حاول أحد أن يبعد أحدهما عنه كان يقول : دعوا لى ابنى ، فكانت عائشة تحس مرارة ولا ريب عند ما تسمع هذا القول ؛ فإن النبي يشتهى أن يكون له ولد ، ولكنها ما كانت بقادرة على أن تنجب له ما يتمنى ، فنبتت بذور الغيرة فى صدرها ، ولما لم تكن بقادرة على أن تتحدث عن فاطمة أمام النبي ، فإنها حادثت أبا بكر عنها ولا شك ، وشاءت عائشة أن تتمثل بالنبي بأن تحتضن غلاما وتدعوه ابنها كما يفعل بالحسن والحسين فاحتضنت ابن اختها عبد الله وصارت تدعوه : ابنى ، حتى كنيت بأم عبد الله .

* * *

ومر رسول الله مع الزبير بن العوام فى بنى غنم ، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له ، وضحك على يحييه ، ورأى الزبير تهلل أسارير على ، فأحس شيئاً فى صدره ترجم عنه بقوله :

— لا يدع ابن أبى طالب زهوه !

فقال رسول الله :

— إنه ليس به زهو ولتقاتلنه وأنت له ظالم .

وهكذا نبتت بذور الغيرة التى تنبت فى كل بيت ، فى صـــدور أهل البيت ، وستتعهدها الأيام لتنمو وتشتد حتى تتحكم فى حقبة خطيرة من التاريخ الإسلامى .

الفصل السادس

فى معسكرين

أسلم أبو بكر ودخل فى الدين الجديد راضياً ، وأسلمت زوجه أم رومان ، وشبت عائشة فوجدت ابويها مسلمين ، أما عبد الرحمن أخوها فقد كان فتى يافعا يوم أخذ النبي يدعو إلى الدين الجديد ، فلم يؤمن به ، ولم يدخل فيه . بل ساءه أن يؤازر أبوه هذه البدعة الجديدة التى جاء بها محمد ، إنه ليحب أباه حباً جماً ، ولكنه يحب آلهته ولا يطيق بها كفرا ، لقد فاضل بين إرضاء أبيه وإغضاب آلهة آبائهم ، فاختار هجر أبيه وغضبه على غضب الآلهة ، فهجره وانضم إلى أعدائه وناصب الدعوة الجديدة العداء منذ اللحظة الأولى .

كان عبد الرحمن مشغولا بليلى ، يفكر فيها ويرجو وصالها ، وكان طيف ليلى يؤرقه ، حتى إذا ما أسلم أبو بكر أخذ يفكر فى هذا العار الجديد الذى لحقه ولحق أسرة أبى قحافة ، وأخذ يفكر فى قتل أبى بكر ليغسل ذلك العار الذى لطخ بيتهم ، إن أبا بكر قد انضم إلى الصابئين الذين نالوا من هبل العظيم ، وسفهوا أحلامهم وأحلام آبائهم فحق عليه الموت ، فليعملن عبد الرحمن على القصاص منه ، وليعيدن إلى الأسرة شرفها ومكانتها !

وساء عبد الرحمن خروج أبى بكر مع النبى إلى يثرب ، وساءه خروج أمه وأخته عائشة ليعيشوا بين ناس غير ناسهم فازدادت موجدته على أبيه ، فلولاه ما خرجت أمه ولا خرجت عائشة ، وزاد فى غضبه تزويج عائشة من محمد فأقسم لينتقمن من هذه العصبة التى فرقت بين المرء وأهله .

وخرج عبد الرحمن يضرب فى طرقات مكة . فصك أذنيه صوت صائح يصيح :
— يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث .

فالتفت عبدالرحمن ناحية الصوت فرأى ضمضم بن عمرو الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى واقفاً على بعيره قد جدع بعيره ، وحول رحله ، وشق قميصه ، فثارت ثائرة عبدالرحمن ، أفما كفى محمداً ماجاء به من الفرقة حتى يعترض العير، ويقطع طريق الشام ؟ وانطلق إلى الرجال ليروا رأيهم ، فاتفقوا جميعاً على الخروج . وأخذوا يقولون :

ـــ أيظن محمد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمى ! كلا والله ! ليعلمن غير ذلك .

وتجهز الناس سراعاً ، وخرجت مكة كلها لتقول كلمتها .

* * *

تأهب الفريقان للقتال ، فوقف الجيشان وجهاً لوجه ، فى جيش قريش عبد الرحمن يتحرق إلى قتل أبى بكر ، وفى جيش المسلمين أبو بكر الصديق مع رسول الله فى العريش يرد على منكبى الرسول رداءه الذى سقط وهو يبتهل إلى الله ينشده ماوعده ، ويسأله أن يتم له النصر ، وخرج النبى وأبو بكر من العريش ، وبرز عبد الرحمن من صفوف الأعداء وصاح .

ـــ يامحمد أخرج إلىّ أبا بكر .

فتقدم أبو بكر ليبارز عبدالرحمن ، ولكن رسول الله منعه وقال :

ـــ أمتعنا بنفسك .

وابتدأ النبى يحرض القوم ثم قال . « سيهزم الجمع ، ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر » . ثم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريش ، ثم قال : « شاهت الوجوه » ثم نفحهم وقال لأصحابه :

ـــ شدوا . . .

فتزاحف الجيشان ، ودارت معركة رهيبة انجلت عن انهزام قريش هزيمة

نكراء ، وسقط صناديد قريش صرعى ، ومن لم يقتل من أشرافهم وقع فى الأسر ، ووقع عبد الرحمن أسيراً ، فأصبح ذليلا ، ينتظر قضاء محمد رسول الله فيه .

وراح النبي يشاور أبا بكر وعمر وعلياً فى أمر الاسارى فقال أبو بكر :

ـــ يانبي الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، فإنى أرى أن نأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدا .

فالتفت النبي إلى عمر وقال .

ـــ ماتقول يابن الخطاب ؟

ـــ لاوالله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننى من فلان فأضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخ له فيضرب عنقه . وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للكفار ، هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ثم دخل ، فقال ناس يأخذ بقول أبى بكر ، وقال ناس يأخذ بقول عمر ، وباتت حياة عبد الرحمن والأسرى فى كفة الميزان .

وانقضى الوقت على الأسرى كأسوا ماينقضى وقت ، وخرج عليهم النبي وقال:

ـــ إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : «من تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفوررحيم» ومثلك ياأبا بكر مثل عيسى قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ومثلك ياعمر مثل نوح ، قال : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً » ومثلك كمثل موسى ، قال: « ربنا أطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » :

ثم قال النبي :

ـــ أنتم اليوم عالة ، فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق.

وأجاز النبي الفداء ، فأرسل أهل مكة فداء أسرائهم، وأطلق سراح عبدالرحمن ابن أبى بكر ، فخرج من يثرب وهو يفكر فى محمد ودينه الجديد .

الفصل السابع

حديث الإفك

خاض المسلمون غمار المعارك . فذاقوا لذة النصر فى بدر ، ولمسوا مغبة التهاون فى تنفيذ أوامر النبى فى أحد ، وتيقنوا أن ماوعدهم الله حق فى الخندق ، فقد وعدهم النصر بعد الحصر ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وما إن انفضت قريش عن الخندق ، وما إن أصبح الصباح حتى انصرف المسلمون عن الخندق راجعين إلى المدينة . ووضعوا سلاحهم ، فجاء جبريل إلى النبى وقال :

— أقد وضعت السلاح يارسول الله؟

— نعم .

إن الملائكة لم يضعوا السلاح بعد ، وإن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بنى قريظة ، وأنا عامد إلى بنى قريظة .

فانطلق المسلمون لقتال اليهود الذين عاهدوهم ثم نقضوا عهدهم وانضموا إلى الأعداء ، فحاصروهم فى حصونهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ . فأرسل النبى إليه وقال :

— احكم فيهم :

— فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ،وأن تسبى ذراريهم ، وأن تقسم أموالهم.

— لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله .

ومرت شهور ، وبلغ رسول الله أن بالمصطلق يجتمعون له فلما سمع رسول الله بهم أخذ يتأهب للخروج لهم ، فأقرع بين أزواجه ، فأيهن خرج سهمها خرج بها ، فخرج سهم عائشة ، فلما تم تجهيز الحملة خرجت عائشة ، وجلست فى هودجها ، وجاء القوم وأخذوا بأسفل الهودج ورفعوه ووضعوه على ظهر البعير ، ثم شدوه

بحباله ، وأذن بالرحيل فانطلق جيش المسلمين إلى بنى المصطلق ، وأخذ القوم برأس بعير الهودج ، واستمر الجيش فى سيره حتى بلغ ماء من مياه بنى المصطلق يقال له المريسيع فالتقى بالعدو ، وتزاحف الناس واقتتلوا قتالا رهيباً ، وهزم الله بنى المصطلق وراح النبى يقسم سباياهم فوقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس ، فكاتبت ثابت على نفسها ، وانطلقت إلى رسول الله تستعينه على كتابتها ، وطلبت الأذن بالدخول فخرجت لها عائشة فرأت أمامها إمرأة رائعة الجمال ، حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فوالله ماهو إلا أن رأتها كرهتها ، وعرفت أن النبى سيرى منها مثل مارأت ، ودخلت جويرية على رسول الله ، وعائشة منقبضة ، تحس بالغيرة تزحف فى صدرها وتنتشر حتى تملأه جميعه وتسيطر عليها ، ولما مثلت جويرية أمام الرسول قالت :

ــ يارسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على كتابتى .

رأى النبى جويرية فوقع ماكانت تخشاه عائشة فقال لها :

ــ فهل لك فى خير من ذلك ؟

ــ وماهو يارسول الله ؟

ــ أقضى كتابتك وأتزوجك .

ــ نعم يارسول الله .

ــ قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج من جويرية فأرسل الناس مابأيديهم وقالوا : « أصهار رسول الله » ، وأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فيالها من امرأة عظيمة البركة على قومها !

وانطلق الناس الى المياه ، وانطلق أجير لعمر بن الخطاب إليه ، وازدحم ورجل من الأنصار على الماء فاقتتلا فصرخ الانصارى : يامعشر الأنصار . وصرخ أجير

ابن الخطاب : يامعشر المهاجرين . فرأى عبد الله بن سلول الفرصة سانحة لينال من محمد الذى استلبه ملكا ، فشاء أن يهتبلها فقال :

ــ أقد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما عدونا وجلابيب قريش ماقال القائل : « سمن كلبك يأكلك » أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

والتفت إلى من حوله من الأنصار وقال :

ــ هذا مافعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم .

وسمع غلام حديث السن ذلك فمشى به إلى رسول الله وعنده عمر بن الخطاب فبان الغضب فى وجه ابن الخطاب وقال له :

ــ يا رسول الله ، مر به عباد بن بشر فليقتله .

ــ فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن بالرحيل .

وارتحل القوم فى ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها ، وانطلقت عائشة مع القوم فى هودجها واستمر الركب فى السير يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس وقد نال منهم التعب ، فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياما ، فلم يترك لهم النبي فرصة التحدث فى حديث ابن أبى ، بل شغلهم بالتعب عن الخوض فى الحديث .

واستراح الناس ثم أذن بالرحيل ، فانطلقوا حتى دنو من المدينة قافلين ، ثم نزلوا منزلا فباتوا فيه بعض الليل ثم أذن فى الناس بالرحيل ، وخرجت عائشة لبعض حاجتها وفى عنقها عقد لها ، فلما فرغت انسل من عنقها دون أن تحس ، وعادت إلى الرحل وذهبت تلتمسه فى عنقها فلم تجده ، فأسرعت بالعودة للبحث عنه ، واستمرت فى بحثها وقد أخذ الناس فى الرحيل ، وأقبل القوم واحتملوا هودجها ووضعوه على البعير ، ثم شدوه إليه بحباله ، وانطلقوا وما دروا أن صاحبة

الهودج ليست فيه . ووجدت عائشة عقدها فأخذته ورجعت إلى العسكر ومافيه داع ولا مجيب ، فراحت تفكر فيما تفعل : فهداها فكرها إلى أن تنتظر لاترم ؛ فإذا ما افتقدوها عادوا إليها لحملها . وبقيت عائشة وحدها فى الصحراء المترامية ، فى سكون الليل المخيف ولكنها لم ترتجف فقد كانت على يقين من أنها فى كنف رب العالمين ، وتلففت بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها الذى ذهبت إليه ، وغلبتها عينها فنامت .

وكان صفوان بن المعطل السلمى قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس فى العسكر فأخذ يغذ فى السير ليلحق بالركب ، واستمر فى سيره حتى بلغ منزل عائشة مع الصبح ، فرأى سواداً فترجل عن بعيره ، وأقبل حتى رأى عائشة أم المؤمنين ، زوجة رسول الله نائمة ، فاسترجع وقال :

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون ، أظعينة رسول الله ؟ !

واستيقظت عائشة ورأت صفوان فغطت وجهها بجلبابها ، فقال صفوان وهو مطرق إلى الأرض :

ــ ما خلفك رحمك الله ؟

فلم تبس عائشة بكلمة ، فقرب البعير وأناخه وقال :

ــ اركبي رحمك الله .

فقامت عائشة وامتطت الراحلة ، ثم أخذ صفوان برأس البعير وانطلق قدماً يطلب الناس ، لاينظر خلفه ، ولا تنفرج شفتاه لتخرج كلمة ، حتى أتيا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول .

دخلت عائشة العسكر وصفوان آخذ برأس البعير ، وكانت عائشة مرفوعة الرأس ، وكان صفوان صافى النفس ، ولم يوح طلوع عائشة وصفوان على الناس إلى المؤمنين شيئاً ، فقد كانت نفوسهم طاهرة ، ولكن كان هناك كبير المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول الذى أكلت الغيرة قلبه ، وملأ الحقد نفسه ، فلما رأى زوجة غريمة مقبلة بعد الناس مع صفوان ، رأى أن يشكك الناس فى زوج نبيهم

الأثيرة عنده ، فعاهد شيطان نفسه على أن يخوض الإفك ، وعلى أن يلوث عائشة الطاهرة الذيل ، لعل نفسه تهدأ ولعل داء قلبه يبرأ ، فراح يوسوس للناس ، ويوسع الأرض إشاعة ورأى بعض الآذان الواعية ، فتمادى فى غيه حتى ارتج العسكر .

وعاد الناس إلى المدينة ومادرت عائشة شيئاً ، واستمر الناس فى غيهم ، فأخذ حسان بن ثابت شاعر الرسول يتقول ، وراح مسطح بن أثاثة الذى كان يعيش على مايتصدق به أبو بكر عليه يخوض مع الخائضين فى حديث الإفك ، ورأت حمنة بنت جحش أن تزيد النار لهيباً لعل النبي يطلق عائشة فيخلو وجهه لأختها زينب ، التى كانت عنده ، واشتكت عائشة وسقطت فريسة المرض ، وانتهى الحديث إلى النبي وأبى بكر وأم رومان ، فأما أبو بكر وأم رومان فقد نزل بهما هم ثقيل ، فكان قلباهما يحترقان غيظاً ولا يحركان لسانهما بكلمة ، ينتظران رحمة الله ولا يذكران لعائشة شيئاً ، إنما لتشكى شكوى شديدة ، وإن ألم نفسيهما الذى يعانيانه لأشد من ألمها ، وأما رسول الله فقد آذاه مابلغه ، وشاء ألا يصدق حديث السوء ، فإنه لايعلم عن عائشة إلا خيراً ، ولكن مابال الناس يتقولون عليها ؟ وراح يفكر فى أمر عائشة فأقلقه فكره ، ودخل يعودها فلم يستطع أن يدارى مابه ، فلم يلاطفها كما اعتاد أن يلاطفها كلما وعكت ، فأنكرت عائشة منه ذلك ، وراحت تفكر لعل جويرية زوجه قد شغلته عنها ، وخرج النبي ولم يمكث طويلا فقد حز الحزن فى نفسه ، واستمر يقلقه فكره . فانطلق إلى زينب بنت جحش وهى التى كانت تساميها من أزواج النبي يسألها عن أمر عائشة ، فلما دخل عليها قال:

— ماذا علمت أو رأيت ؟

— يارسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً .

ودخل النبي على عائشة وأمها تمرضها فقال : كيف تيكم ؟

ولم يزد على ذلك ، فأحست عائشة فى صوته جفاء ، فوجدت فى نفسها ، وعزمت على أن تترك له الدار فقالت :

— يارسول الله . لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فمرضتنى ؟

ـــ لا عليك .

وانتقلت عائشة إلى دار أمها لاتعلم بشيء وهي تحس في نفسها موجدة على الرسول ، فقد ولى لطفه بها ، وما كانت تحسب أن يتخلى عنها هكذا سريعا في مرضها . واستمر الناس يخوضون في حديث الإفك فلم يطق النبي صبراً ، فقام في الناس يخطبهم :

ـــ أيها الناس ، مابال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهن غير الحق ، والله ماعلمت منهن إلا خيراً ، ويقولون لذلك لرجل والله ماعلمت منه إلا خيراً ، وما دخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي .

فقال أحد الأوس :

ـــ إن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا من اخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم .

فقام سعد بن عبادة وقال :

ـــ كذبت ، لعمر الله لاتضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو أنهم من قومك ما قلت هذا .

ـــ كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتثاور الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ، فانشرح صدر عبدالله بن أبي بن سلول ، فقد أيقظ الفتنة التي نامت بالاسلام ، وابتدأ معول الهدم يدك ملك محمد ، ولكن محمداً قتل الفتنة قبل أن تتحرك ، فكاد ابن أبي أن يموت كمداً .

ونقهت عائشة ، وخرجت في الليل مع أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزهم وأقبلتا قبل البيت حين فرغتا من شأنهما ، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت :

ـــ تعس مسطح .

فقالت لها عائشة :

ـــ بئس ماقلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا ؟

— أو ما بلغك الخبر يابنت أبي بكر !

— وما الخبر ؟

فأخذت أم مسطح تقص حديث الناس ، وما لاكته الألسن من حديث الأفك فاضطربت عائشة . وأحست الأرض تميد بها ، وعلمت سبب جفوة النبي فانهمر دمعها وقالت وهي لاتتمالك نفسها :

— وقد كان هذا ؟

— نعم ، والله لقد كان .

واستندت على ذراع أم مسطح ودخلت الدار وقد ازدادت مرضاً على مرضها ، وما زالت تبكي حتى لكاد البكاء يصدع كبدها ، وأقبلت أمها ،فقالت لها عائشة عاتبة :

— يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ،وبلغك مابلغكولا تذكرين لي من ذلك شيئاً .

فشاءت الأم أن تخفف عن ابنتها وقع مصابها ، وأن تهون عليها مابلغها ،فقالت بصوت كله حنان :

— أي بنية ، خفضي الشأن ، فوالله ما كانت امرأة وضيئـــة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها .

واستمرت عائشة في بكائها . فبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ، ولا تكتحل بنوم ، ولا يهدأ لها فكر ، ومرت أيام وحديث الإفك شغل الناس الشاغل ، وانتظر النبي براءة عائشة فإنه لايستطيع أن يصدق ماقيل . كما انه لايملكالبرهان الحاسم الذي يبرئها مما لصق بها . لقد أختبر في أعز ما يملك فصبر ، ولكن حديث الناس يؤذيه ، فشاء أن يضع لذلك الأمر حداً ، فدعا علي بن أبي طالب وإسامة بن زيد يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله ، فقال أسامة :

— يارسول الله أهلك ولا نعلم عليهن إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل

وقال علي :

ـ يارسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدقك .

ودعا رسول الله بريرة يسألها :

ـ أى بريرة ، هل رأيت من شيء يريبك ؟

ـ لا

فقام إليها على فضربها ضربا شديداً ، وهو يقول :

ـ أصدقى رسول الله .

فالتفتت إلى رسول الله وقالت :

ـ والذى بعثك بالحق مارأيت عليها أمراً قط أغمطه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله .

وكأنما ألقى على بفعلته هذه بذرة أخرى من بذور الكره فى صدر عائشة ، وستنمو هذه البذرة على مر الأيام حتى لتؤتى ثمارها غب مقتل عثمان .

واستمرت عائشة فى بكائها لايرقأ لها دمع ، ولا تكتحل بنوم وأصبح أبوها عندها . وقد بكت ليلتين ويوما حتى لظن أن البكاء فالق كبدها ، فبينما أبو بكر وأم رومان جالسان والألم الشديد يرتسم على وجهيهما وعائشة تبكى . استأذنت امرأة من الأنصار فى الدخول فأذن لها فجلست مع عائشة تبكى ، وبينا هم على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، فسلم ثم جلس . ولم يجلس عند عائشة قبلها منذ قيل ماقيل ، وقال حين جلس .

ـ أشهد أن لا إله إلا الله ؛ أما بعد ياعائشة ، إنه قد كان مابلغك من قول الناس ، فإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله (ص) مقالته ، قلص دمع عائشة حتى ماتحس منه قطرة ، والتفتت إلى أبيها وقالت :

ـ أجب رسول الله (ص) عنى فيما قال .

فقال أبو بكر :

— والله لا أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالتفتت إلى أمها وقالت :

— أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال :

— ما أدرى ما أقول لرسول الله (ص) .

فقالت عائشة :

— إنى والله لقد علمت ، لقد سمعتم هذ الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة لاتصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئه لتصدقنى ، والله لاأجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال : « فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون » .

ثم تحولت واضطجعت على فراشها ، والله يعلم حينئذ أنها بريئة ، وقد كانت فى هذه الساعة على يقين أكثر من أية ساعة مضت أن الله مبرئها ببراءتها ، ولكنها ما كانت تظن أن الله منزل فى شأنها وحياً يتلى ، فقد كانت أحقر فى نفسها وأصغر شأناً من أن ينزل الله عز وجل فيها قرآنا يقرأ به فى المساجد ويصلى به ، ولكنها كانت ترجو أن يرى رسول الله فى نومه رؤيا يبرئها الله بها ، ولكن مارام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ، وما خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه لينحدر منه من العرق مثل الجمان وكان اليوم شاتياً ، فسجى بثوبه ، ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه ، وبان الفزع على وجه أبى بكر وأم رومان ، فعما قليل يقول الله قوله الفصل ، وأخذ قلباهما يخفقان ، أما عائشة فوالله مافزعت كثيراً ، ولا بالت فهى على يقين من براءتها ، ومن أن الله غير ظالمها ، وسرى عن رسول فبان الرعب فى وجهى أبى بكر وأم رومان حتى لتكاد روحاهما أن تفرا فرقا أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس وجلس النبى فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول :

— أبشرى ياعائشة فقد أنزل الله براءتك .

فظهر السرور فى وجه أبى بكر فقد برأ الله ابنته ، وأسرعت أم رومان إلى عائشة والفرح يهزها وتقول لها :

ــ قومى إليه .

فقالت عائشة فى ثبات :

ــ لا والله لا أقوم إليه ، فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل .

وخرج النبى إلى الناس وخطبهم وتلى عليهم ما أنزل الله عزوجل : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »

واستمر يتلو ما أنزل الله من أحكام وعقوبة رمى المحصنات ، ولما انتهى من تلاوته أمر بمسطح وحسان بن ثابت وحمة بنت جحش فضربوا حدهم ثمانين جلدة ، وساء أبو بكر أن يكون مسطح الذى ينفق عليه لقرابته وفقره ممن أفصح بالفاحشة ، فقال والغيظ يهز قلبه :

ــ والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة ماقال .

ولكن أنزل الله تعالى : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم . والله غفور رحيم »

فقال أبو بكر :

ــ بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى .

فرجع إلى مسطح النفقة التى ينفق عليه وقال : « والله لا أنزعها منه أبدا » .

الفصل الثامن

ابن الزبير

مست يد الزمن الساحر وليد الأمس ، فنما عبد الله بن الزبير فى منزل النبوة ، فتفتحت عيناه أول ما تفتحت على نور الإسلام الباهر فألفت النور ، وطرق أذنيه أول ما طرق أذان المسلمين ، فقد أذن له فيهما جده الصديق يوم ولادته بين التكبير والتهليل ، ثم وعى أول ما وعى خير القول ؛ وعى قرآن الله وحديث الرسول ، وانطلق أول ما انطلق إلى المسجد يرقب القوم وهم بين يدى الله خاشعون ، ثم سار بعد ذلك إلى المسجد يشارك القوم عباداتهم ، وصار المسجد له مقاما ومستقرا ، فلا غرو أن أطلق القوم عليه « حمام المسجد » .

نبتت هذه النبتة الصغيرة فى تربة صالحة طيبة ، فكانت تستوى على عودها قوية فتية متينة ، وابتدأت هذه النفس الصغيرة تتلفت لتجمع مقومات شخصيتها فرأت عظمة حيثما أدارت عينيها ، ومثلا عليا ، وشخصيات فذة ، فأخذت تنهل من هنا نهلة ومن هناك نهلة ، وتحتذى بهذه القدوة مرة ، وبتلك مرة حتى تكونت أخيرا شخصيتها وتبلورت فأضحت شخصية مميزة معروفة .

وقتل جعفر بن أبى طالب فى مؤته ، فترك زوجه عاتكة بنت زيد ، وكانت عاتكة شابة ، رائعة الحسن ، رضية الخلق ، فخطبها عبد الله بن أبى بكر وبنى بها ، وهام بها حبا . وتأهب المسلمون لقتال هوازن ، فراح عبد الله يودع زوجه قبل أن يخرج فى جيش المسلمين ، وخرج ابن الزبير ليشاهد الجيش العظيم الذى سينفصل بعد حين من المدينة ميمما صوب هؤلاء الذين ناصبوا المسلمين العداء . وبلغ ابن الزبير العسكر فدخل فرأى ما سلب لبه : رأى جموعا زاخرة ، ودروعا لامعة ، وأسيافا وامضة ، وفرسان صناديد ، فراح يدور بعينيه فى المعسكر مشدوها ، ووقع بصره على خاله عبد الله بن أبى بكر فى عدة القتال ، مفتول الساعد ، قوى البنيان ، ثابت الخطو ، شامخ الأنف ، فقد بلغ مبلغ الرجال الشجعان يخوض غمار

الحروب ، فيصول صول الأسود ، فتمنى الغلام أن يمر الزمن سريعاً ليبلغ أشده فيخرج للقتال ، ولكن مهلا فعلام الإسراع ، فغدا تستل سيفك وتخوض غمار حروب يشيب من هولها الولدان ، فمهلا مهلا ، فما جئت إلى الدنيا إلا للكفاح والجلاد ، والطعن والكر والفر والنزال .

وأقبل كبار الصحابة ، فلما رأى الزبير ابنه عبد الله تهللت أساريره ، وبان فى وجهه الرقة والحنان ، وأخذ يختلس النظر إليه راضى النفس ، منشرح الصدر ، ولو طاوع نفسه لأسرع إليه وضمه إلى صدره ، وراح يمطره قبلات ، ولكنه كبح رغبته ، وانطلق ، ومر على بن أبى طالب بالغلام ولم يفطن إليه ، وأقبل عثمان بن عفان فتطلع إليه الصبى فى إجلال ، وانصرف كبار الصحابة ، وما دار بخلد أحدهم أن لمسة أخرى من يد الزمن الساحر لهذا الغلام تجعله شاباً قوياً يرجى خيره ، ويلتمس عونه ، ولكن رويداً فغدا يقص الزمن نبأه ، ويروى فعاله ، فهو قطب الحوادث ، ومحور الرجاء ، ومحط الأنظار .

وخرج القوم لقتال هوازن ، وعاد الصبى وأحلام القتال تتخايل له ، وتمر بذهنه فى أشكال وألوان ، ونظر أمامه فى شرود ، وكانت الأمانى الكبار تحتل رأسه الصغير ، إن مجداً يبنى أمام عينيه فراح يتطلع إلى المجد والعز والسلطان .

وانتهى القتال وعاد الجيش إلى يثرب ظافراً ، وعاد عبد الله بن أبى بكر إلى الدار وقد خلصت إليه الجراح ، فأسرعت عاتكة إليه وراحت تمرضه وتبذل ماوسعها البذل لراحته ، إن جراح عبد الله لجد خطيره وإن عناية عاتكة به لجد فائقة ، فكم من ليالى سهرتها بجواره تواسيه ، فاندملت جراح عبد الله سريعاً ، فلكأنما كان البلسم الشافى فى أنامل عاتكه ، بل لقد كان الدواء الفعال فى بسمتها الحلوة ، التى كانت تمنحها له دواما ، فتشد من عزمه ، وتزيدفى قوة مقاومته لجرحه .

وراح ابن الزبير يعود خاله ، فلمارىء عبدالله أخذ ابن الزبير يسأله عن القتال ، فراح عبد الله يقص عليه حديث هوازن وفررا المسلمين ، وثبات النبى وحده

وهتافه فى الناس الفارين : « أين أيها الناس أين ! » واستمر ابن أبى بكر فى حديثه والغلام مرهف السمع ، يرتسم فى وجهه القلق حينا ، والرضى أحيانا ، وانتهى عبد الله من حديثه ، فانصرف ابن الزبير وهو يفكر فى الحروب ، ويحلم بفعال البطولة والأبطال .

* * *

ودخل ابن الزبير على رسول الله وهو يحتجم ، فجعل يرقبه ، فلما فرغ النبى قال :

— يا عبد الله ، اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد .

فتناول عبد الله الطست وخرج ، ثم دخل سلمان الفارسى على النبى، وأخذا بأطراف الحديث ، وانقضى قليل وقت ، ثم دخل عبد الله ، فالتفت إليه النبى وقال :

— فرغت؟

— نعم .

فقال سلمان :

— ما ذاك يارسول الله ؟

فقال النبى :

— أعطيته محاجمى يهريق ما فيها .

فتذكر سلمان أنه رأى ابن الزبير عند دخوله معه طست يشرب ما فيها فقال :

— ذاك شربه والذى بعثك بالحق .

فالتفت رسول الله إلى عبد الله وقال :

— شربته ؟

— نعم .

— لم ؟

— أحببت أن يكون دم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جوفى .

فوضع النبى يده على رأس ابن الزبير وقال :

— ويل لك من الناس ، وويل للناس منك .

الفصل التاسع

كيد

ابتدأ طواف النبي على نسائه ، وأخذت عائشة ترقب دخوله وخروجه من كل دار ، ودخل النبي بيت أم سلمة ، فأحست عائشة غيرة ، فإنها لاحظت أنه يحتبس عندها ، فاشتد ذلك عليها ، واستمرت فى مكانها تتطلع قلقة ، وانقضى وقت خالته دهراً ، ولمحت النبي يخرج من عند أم سلمة ، ويمم شطر دارها ، فأخذت تصلح من هيئتها ، ودخل النبي عليها ، ودنا منها ثم قبلها ، فنظرت إليه وقالت :

ـــ أين كنت منذ اليوم ؟

ـــ يا حميراء كنت عند أم سلمة .

ـــ ماتشبع من أم سلمة !

فتبسم النبي وقالت عائشة :

ـــ يارسول الله ألا تخبرنى عنك ، لو أنك نزلت بعدوتين ، إحداهما لم ترع ، والاخرى قد رعيت ، أيها كنت ترعى ؟

ـــ التى لم ترع ؟

ـــ فأنا ليس كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيرى .

فتبسم رسول الله وقام ، فلم يكن اليوم يوم عائشة ليمكث عندها .

وخرج النبي ، وبقيت عائشة تفكر فى أمر أم سلمة ، فما بال النبي يمكث عندها من دون نسائه إذا مادخـــل عليها فى طوافه اليومى ، واستمرت فى تفكيرها ، وأخيراً عقدت العزم على أن تخبر حفصة الخبر ، وفى اليوم الثانى كانت عائشة بنت الصديق وحفصة بنت ابن الخطاب يرقبان منازل أزواج النبي ، وابتدأ النبي فى طوافه نسائه حتى يأتى على آخرهن ، ودلف من باب أم سلمة ، فنظرت عائشة إلى

حفصة ، واحتبس رسول الله عندها ، فقالت حفصة :

— ما أرى رسول الله يمكث عندها إلا أنه يخلو معها .

فلما سمعت عائشة ذلك القول ، تحركت عقارب الغيرة فى صدرها ، وكأنما لم يدر هذا الخاطر فى رأسها من قبل ، فاشتد ذلك عليها حتى فكرت فى أن تبعث من يطلع لها ما يحبسه عندها .

انتظرت عائشة وحفصة عودة الجارية التى أوفدتها لتكشف لها عن سر مكوث النبي فى بيت أم سلمة ، وأقبلت الجارية فقالتا لها :

— ما وراءك ؟

— إذا صار إليها أخرجت له عكة من عسل ثم فتحت فمها فيلعق منه لعقاً .

وانصرفت الجارية ، وجلست عائشة وحفصة تفكران فيما يفعلان ليمنعاه من المكوث عندها ، ففكرتا فى أن يكرهاه فى العسل ، قالت حفصة :

— ما من شيء نكرهه إليه حتى لا يلبث فى بيت أم سلمة ؟

— ليس شيء أكره إليه من أن يقال له : نجد منك ريح شيء ، فإذا جاءك غدنا منك فقولى : إنى أجد منك ريح شيء .

ودخل النبي على عائشة كما اعتاد أن يدخل كل يوم ، ودنا منها ليقبلها فقالت :

— إنى لأجد منك شيئاً ، ما أصبت ؟

— عسل من بيت أم سلمة .

فقالت عائشة فى هدوء :

— يارسول الله ، أرى نحله جرس عرفطا .

واستمر النبي فى طوافه على نسائه فكان كلما دنا من واحدة قالت له : « إنى أجد منك ريح شيء » فكان يقول : « من عسل أصبته عند أم سلمة » . وعزم النبي على أن لا يذوق العسل ، وهكذا نجحت مؤامرة بنت أبى قحافة .

***

وأسنت سودة بنت زمعة أولى أزواج النبي بعد خديجة ، فكان رسول الله لا يستكثر منها ، وكانت سودة تعلم مكان عائشة منه ، فوهبتها يومها وليلتها ، تبغى بذلك رضا رسول الله ، فأصبح لعائشة يومان وليلتان ، فساء ذلك نساء النبي ،

وتشاورن فى الأمر ، فرأين أن يرسلن إلى فاطمة بنت رسول الله ، فلما أقبلت فاطمة كلمنها أن تأتى رسول الله وتقول له : « إن أزواجك يسألنك العدل فى بنت أبى قحافة » . فخرجت فاطمة ومكثت أياما لا تفعل ذلك فإنها لتعلم مكان عائشة منه ، وجاءتها زينب بنت جحش ، ولم يكن أحد يناصى عائشة إلا زينب ، فكلمت فاطمة أن تأتى الرسول تسأله العدل فى بنت الصديق ، فقالت فاطمة :

— أنا أفعل .

وانطلقت فاطمة إلى أبيها ، ودخلت عليه وكان عند عائشة ، فقالت له :

— إن نساءك أرسلننى يسألنك العدل فى بنت أبى قحافة .

— زينب أرسلتك ؟

— زينب وغيرها .

— أقسمت هى التى وليت ذلك .

— نعم .

فتبسم رسول الله وقال :

— أى بنية ، ألست تحبين من أحب ؟

— بلى .

فنظر النبى إلى عائشة وقال :

— فأحبى هذه .

وخرجت فاطمة ، وجاءت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فحدثتهن بما كان بينها وبين أبيها ، فقلن :

— ما أغنيت عنا شيئاً ، فارجعى إلى رسول الله .

— والله ما أكلمه فيها أبداً .

وظهر الغيظ فى وجه زينب بنت جحش ، فعزمت على أن تكلمه بنفسها فانطلقت إلى بيت عائشة ، واستأذنت على النبى ، فأذن لها فدخلت ، فوجدت عائشة بجواره ، فلم تلتفت إليها وقالت :

— يارسول الله ، أرسلنى أزواجك يسألنك العدل فى بنت أبى قحافة ، فلم ينبس الرسول بكلمة ، فتضايقت زينب وأخذت تسب عائشة ، وطفقت عائشة

تنظر إلى رسول الله متى يأذن لها فيها ، ولم تزل تنظر إليه حتى عرفت أن رسول الله لا يكره أن تنتصر منها ، فوقعت عائشة فى زينب حتى أفحمتها ، فتبسم رسول الله وقال :

ــ إنها بنت أبى بكر !

* * *

وتزوج النبي من مارية القبطية ، وكانت امرأة بيضاء جميلة جعدة ، فأنزلها فى العالية ، وأصبح رسول الله يختلف إليها هناك ، وضرب عليها الحجاب ، وقد غارت منها عائشة غيرة شديدة ، فقد كان النبي يقضى عامة النهار والليل عندها ، وقد ازدادت غيرة عائشة منها عقب مولد إبراهيم ، فقد انجبت للرسول ما يشتهى بينما هى قد حرمت منه . وراح ابن أبى طالب يظهر حبه لإبراهيم وعطفه على أمه ، فأوغر ذلك صدر عائشة عليه ، وراح يفسح الهوة التى بينهما ، أفما كفى ابن أبى طالب موقفه من الإفك حتى يظهر الحنان إلى ابن ضرتها ؟ .

وخرجت حفصة من بيتها إلى بيت أبيها ، فبعث رسول الله إلى جاريته مارية ، فجاءته فى بيت حفصة ، وعادت حفصة إلى دارها ودخلت فرأت النبي ومارية معه فى بيتها ، فثارت ثائرتها واندلعت نار الغيرة فى صدرها ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً ، وانتظرت بالباب حتى خرجت مارية ، فدخلت والغضب يهزها وقالت :

ــ يارسول الله فى بيتى . وفى يومى ، وعلى فراشى ؟

ــ اسكتى فلك لا أقربها أبداً ، ولا تذكريه .

وخرج النبي وبقيت حفصة وحدها . وأحست رغبة فى أن تفشى سر رسول الله ، وراحت تقاوم رغبتها ، ولكن كيف تبيت امرأة على سر ، إنه ليؤرقها ويقض من مضجعها ، وإن صدرها ليضيق به ، ولن تستريح حتى تطلقه عن صدرها ، فانطلقت حفصة إلى عائشة وأفضت إليها بسر رسول الله ، وقالت لها فرحة :

ــ أبشرى ، فإن الله حرم رسوله وليدته .

ودخل النبي على عائشة فأومأت إليه بحديث حفصة ، فساء النبي ذلك ، فما كان يحب أن تفشي حفصة سره ، فما وقع بينه وبين مارية إلا ما يقع بين الرجل وزوجته . وأهدى إليه هدية وهو فى بيت عائشة ، ولم تهدأ نفسه بعد ، فأرسل إلى كل امرأة من نسائه بنصيبها ، وأرسل إلى زينب بنت جحش فلم ترض ، فأمر أن يزيدوها مرة أخرى ، فلم ترض ، فقالت عائشة :

— لقد أقمأت وجهك أن ترد عليك الهدية .

فقال النبي :

— لأنتن أهون على الله من أن تقمئنني .

وساء النبي أن يتظاهر نساؤه عليه ، وهو الذى يعطف عليهن ، فخرج وقد عزم على أن يلقى عليهن درساً .

واعتزل النبي نساءه شهراً ، وقال الناس : « طلق النبي نساءه » . ففزعت أمهات المسلمين ، وثقل ذلك على عائشة . وراحت تعد الليالى ، فلما مضت تسع وعشرون ليله دخل على عائشة وبدأ بها ، فقالت عائشة :

— يارسول الله ، أما كنت أقسمت ألا تدخل علينا شهراً ، وإنما أصبحت من تسع وعشرين أعدها لك عداً .

— الشهر تسع وعشرون ليلة .

ثم صمت النبي قليلا وقال :

— إنى ذاكر لك أمراً ، فلا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك ، قال الله : (. . يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياه الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميعاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ،

— فنى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

الفصل العاشر

عابد قريش

انطلق عبد الرحمن بن أبى بكر عقب إطلاق إسارة إلى مكة وهو يفكر فى محمد ودينه الجديد ، ودخل الكعبة وجعل يطوف بها ويتمسح بأصنامها قبل العودة إلى داره ، ودارت عجلة الزمن دورة ، فاكتمل الحول ، فخرج أهل مكة للقصاص لما نزل بهم ببدر ، وخرج عبد الرحمن فى عدة القتال مع الموتورين الحاقدين الذين عزموا على استئصال محمد وشرذمته . والتقى المشركون بالمؤمنين عند أقدام جبل أحد ، ودارت رحى معركة رهيبة انجلت عن بقاء المسلمين فى الميدان منتصبين ، وعودة قريش ولم يستأصلوا محمداً وصحبه كما قدروا ، بل أبقى الله لهم مايخزيهم ، وعاد عبد الرحمن وهو يفكر فى أمر محمد والدين الجديد .

وأخذت عجلة الزمن فى دورانها ، وكانت فى كل دوره تمس صدر عبد الرحمن فتمسح عنه بعض مابه من حقد وسخيمة على المسلمين ، حتى برأ صدره ، وأزيلت غشاوة التعصب عن عينيه ، فتاق إلى الإسلام ، وحن إلى الخروج ليلحق بأهله الأكرمين ، إنه ليتوق إلى التملى من وجه أبيه ، وإلى ضم أمه أم رومان إلى صدره ، وإلى رؤية عائشة ، فلكم يحن إليهم ، فما حرمه منهم إلا تعصبه الأعمى وتعلقه بآلهه مالها من سلطان ، وشاء أن يخرج ليلحق بهم ، ولكنه شارك قومه فى عدوانهم فلم يشأ أن يغضب رفاقه ، فانتظر على كره لعل الله يجعل له مخرجا . وأقبل عام الصلح ، وصالحت قريش محمداً فى الحديبية على أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فلحق عبد الرحمن بالمسلمين ، وهاجر إلى يثرب وقد اطمأنت نفسه بالإسلام ، وأطفأ نار شوقه إلى الأهل والخلان ، ولم يبق له بعيداً من الأحبة إلا ليلى ابنة الجودى ، فليصبر فقد يجود الزمن بالوصال .

واستدارت أشهر السنة ، وأذن فى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج فى هذا العام فأقبل الناس إلى المدينة من كل فج عميق ، ونزل بها كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ويفعل فعله ، وما وافى اليوم الخامس والعشرون من ذى الحجة حتى خرج رسول الله ومعه نساؤه جميعاً كل فى محفتها ، وخرج أبو بكر ونساؤه جميعاً ، وكانت أسماء بنت عميس زوجه متما ، وخرجت أسماء ابنته وزوجها وابنهما عبد الله ، وخرج عبدالرحمن بن أبى بكر ونساؤه كما خرج عبد الله أخوه ، فكان أبناء أبى بكر جميعاً فى صحبة النبى يأتمون به فى حجته الأخيرة .

سار المسلمون والغبطة تملأ قلوبهم : فقد ألف الله بينهم ، فأصبحوا بنعمته إخوانا بعد أن كانوا متنافرين متنابذين ، ساروا يحدوهم الإيمان العميق ، والفرح الشديد لانطلاقهم للطواف ببيتهم المقدس الذى شرفه الإسلام فزاده شرفا على شرفه ، وعظمه فزاده عظمة على عظمة ، وبلغ الحجيج ذا الحليفة ، فنزل الناس ليبيتوا ليلتهم بها ، وأحست أسماء بنت عميس آلام الوضع ، فأرسلت إلى زوجها أبى بكر ، فأسرع إليها ونقلها تحت شجرة لتضع له ابنا جديداً . وانتظر أبو بكر وقد ساوره القلق الذى يساور كل أب قبل أن يهبه الله فلذة كبده وقطعة نفسه ، وأقبل البشير وأنبأه أن الله قد رزقه ابناً . فهدأت نفسه ، وانطلق ليرى وليده ، فقد كان أول وليد له بعد الإسلام ، ولم يفكر طويلا فى اختيار اسم له ، بل سماه باسم نبيه الكريم ، وخليله الأمين سماه محمداً ، وأقبل على زوجه والبشر يشيع فى محياه ، وتناول الغلام وضمه إلى صدره فى حنان ، ثم وضعه بجوار أمه فى رفق ، وتطلعت أسماء إلى أبى بكر وقالت :

ـ ما أفعل ؟

فأطرق أبو بكر قليلا ثم خرج ليسأل رسول الله كيف تصنع زوجه بعد أن نفست بمحمد ، ثم عاد إليها وقال :

ـ اغتسلى واستثفرى بثوب واحرمى .

وأصبح الصباح ، وأحرم النبى وأحرم المسلمون معه ، وتأهب آل أبى بكر

للانطلاق مع النبي بعد أن أتم الله عقدهم ، فهاهو وليد الأمس ، عابد قريش ، ينطلق مع الحجيج ، ونادى رسول الله بالتلبية : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك . والملك لك لاشريك لك » فكانت تلبية التوحيد أول مابلغ سمع محمد بن أبي بكر .

وأدرك الناس بالعرج ونزل رسول الله فنزل الناس ، وأقبلت عائشة وأسماء بنت أبي بكر فألفيا النبي وأبا بكر جالسين ، فجلست عائشة إلى جنب النبي ، وجلست أسماء إلى جنب أبيها ، وأخذوا بأطراف الحديث ، وكان أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه غلامه ، فطلع عليه وليس معه بعيره ، فقال له أبو بكر :

— أين بعيرك ؟

— أضللته البارحة .

— بعير واحد تضله !

وقام أبو بكر وطفق يضرب غلامه ، فابتسم رسول الله والتفت إلى عائشة وأسماء وقال :

— انظروا إلى هذا المحرم مايصنع .

واستأنف الناس سفرهم حتى قدموا مكة فقال النبي :

— من أهل بعمرة ولم يهد فليحلل ، ومن أحرم بعمرة وأهدى فليهل بالحج مع العمرة ثم لايحل حتى يحل منهما .

وابتدأ الطواف بالبيت فطاف الناس ، وحمل أبو بكر محمداً ابنه ، وراح يطوف به ، وسعى الناس بين الصفا والمروة ، وبقيت عائشة لاتطوف ، فأحست في نفسها وجدا فقد حاضت وأصبح الطواف محرماً ، ولم تزل حائضاً حتى كان يوم عرفة ، فبكت ودخل رسول الله عليها وهي تبكي ، فقال لها :

— مالك تبكين ؟

— أبكى أن الناس حلوا ولم أحل ، وطافوا بالبيت ولم أطف ، وهذا الحج قد حضر .

— إن هذا أمر قد كتبه الله على بنات آدم ، فاغتسلي وأهلي بحج .

ففعلت عائشة وانطلقت إلى عرفة مع الحجاج . ولما قضت حجتها وطهرت ، دخل النبي عليها وكان عندها أخوها عبد الرحمن ، فالتفتت إليه وقالت :

— يا رسول الله ، إني أجد في نفسي من عمرتي أني لم أكن طفت حتى حججت .

فقال النبي لعبد الرحمن .

— اذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم .

الفصل الحادى عشر

الرفيق الأعلى

خرج النبي فى جوف الليل إلى المقابر ، وانطلق ليستغفر لأهل البقيع ، وانطلق معه أبو مويهبة مولاه ، فلما وقف النبي بين المقابر قال :

ــ السلام عليكم أهل المقابر ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى .

وعاد الرسول إلى الدار فوجد عائشة تشكو صداعا فى رأسها وتقول :

ــ وارأساه .

فقال لها :

ــ بل أنا يا عائشة وارأساه .

وجلس إلى جنبها والتفت إليها وقال مداعباً :

ــ ما ضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك ، وصليت عليك ودفنتك .

ــ والله لكأنى بك لو فعلت ذلك رجعت إلى بيتى فأعرست ببعض نسائك .

وقام النبي ليطوف على أزواجه كما عودهن ذلك ، وثقلت عليه وطأة المرض فكان كلما دخل على واحدة منهن سأل :

ــ أين أنا غداً ؟

ففهمت أزواجه جميعاً أنه يبغى عائشة ، ولما كان فى بيت ميمونة ، ثقل عليه المرض ، فسأل أزواجه أن يمرض فى بيت عائشة فأذن له ، فخرج بين على بن أبى طالب والعباس ، تخط قدماه الأرض ، عاصباً رأسه حتى دخل بيت عائشة ، واستقر فى البيت ، فلم يعد يخرج إلا للصلاة ، ثم غمر واشتد به الوجع فحبسه ، وشاء أن يخرج ليعهد إلى الناس ، فقال لأهله :

ــ أهريقوا على من سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم .

فجيء بالماء ، وأقعده أزواجه فى مخضب لحفصة ثم صببن عليه الماء حتى طفق يقول : « حسبكم ، حسبكم » ثم عصب رأسه وخرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم وعاد النبي إلى الدار وتمدد فى فراشه وارتفع صوت بلال بالأذان ، ولم يستطع النبي الخروج فقال :

ــ مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فلم تسرع عائشة باستجابة أمر النبى ، لأنه لم يقع فى قلبها أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبداً ، ولأنها كانت ترى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به . فأرادت أن يعدل ذلك رسول الله عن أبى بكر فقالت :

ــ إن أبا بكر رجل رقيق ، وإنه متى يقوم مقامك لا يطيق .

ــ مروا أبا بكر يصلى بالناس .

ــ يا رسول الله ، إن أبا بكر رجل رقيق .

فغضب رسول الله وقال :

ــ مروا أبا بكر أن يصلى بالناس .

فانطلقت بريرة لتخبر بلالا أن رسول الله قد أمر أن يؤم أبو بكر الناس .

والتفت النبي إلى من عنده وقال :

ــ ابعثوا إلى على فادعوه .

وكأنما خشيت عائشة أن تكون دعوة النبي لعلى ليوصى له ، فقالت :

ــ لو بعثت إلى أبى بكر .

وأسرعت حفصة وقالت :

ــ لو بعثت إلى عمر .

واجتمع على وأبو بكر وعمر عند النبي ولكن رسول الله لم يقل لهم شيئا ذا بال ، بل صرفهم قائلا :

ـــ انصرفوا ، إن تك لى حاجة أبعث إليكم .

فانصرفوا جميعاً ولم يدر أحد لم طلب عليا أولا ، ترى هل بعث إليه ليوصى له فأفسدت ذلك عائشة ؟ أم بعث إليه ليراه قبل أن يقضى وقد كان أحب الناس إليه !

وثقل فى وجعه حتى أغمى عليه ، فاجتمع إليه نساؤه وفاطمة وعلى والعباس ، وأسماء بنت عميس ، وقالت أسماء :

ـــ ما وجعه هذا إلا ذات الجنب فلدوه .

فلد ، فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ـــ من فعل بى هذا ؟

ـــ لدتك أسماء بنت عميس ، ظنت أن بك ذات الجنب .

ـــ أعوذ بالله أن يبلينى بذات الجنب ، أنا أكرم على الله من ذلك ، لا يبقى فى البيت أحد إلا لد إلا عمى العباس .

ووضع النبي رأسه فى حجر عائشة ، وكان عنده قدح فيه ماء ، فكان يدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول :

ـــ اللهم أعنى على سكرة الموت .

ودخل عبد الرحمن بن أبى بكر ومعه سواك يستن به ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عائشة تعرف أنه يحب السواك فقالت :

ـــ آخذه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم .

فتناولته وناولته إياه فاشتد عليه ، فقالت له :

ـــ ألينه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم .

فضغطته ولينته ثم أعطته رسول الله فاستن به وهو مستند إلى صدرها ، وخفت حركة النبي ، وتمتم بصوت خافت خفيض :

ـــ بل الرفيق الأعلى من الجنة .

ووجدت عائشة رسول الله يثقل فى حجرها ، فذهبت تنظر فى وجهه ، فإذا نظره قد شخص ، لقد خير فاختار ولحق بالرفيق الأعلى ، فيالعائشة ، ويالمصيبة الكبرى ، والرزء الفادح ، لقد مات النبى ، ومات الزوج ولما تتم العقد الثانى من عمرها ، فيالنكبة العظمى .

ووضعت رأسه على وسادة وقامت تلتدم مع النساء وتضرب وجهها ، وخيم الحزن على يثرب فقد قضى أعظم من أقلت الأرض ، وأظلت السماء .

الفصل الثانى عشر

متنبى بنى حنيفة

ادعى مسيلمة النبوة ، فلم يصدقه من قومه خلق كثير ، فقد كان قميئا ، أصفر اللون ، لاهيبة له ولا يبعث مظهره على الاحترام ، ورأى النبي أن يبعث إلى القوم من يفقههم فى الدين ويناوىء مسيلمة ، فبعث إليهم « نهارا الرجال » وانطلق نهار ، ورأى التفاف بعض الناس بمسيلمة ، فوسوست له نفسه أن يستغل هؤلاء الناس فيغترف من لذاذات الدنيا ، فانطلق إلى مسيلمة واتفق معه ، وباع نفسه للشيطان ، وراح مبعوث محمد يدعى أن محمدا يقول إن مسيلمة قد اشترك فى الرسالة ، فدخل الناس فى دين مسيلمة ، وكان سرور أهل اليمامة عظيما فمنهم نبى ، ومن قريش نبى ، وبذلك تساوى الرأسان ، ولن يرتفع رأس على آخر. وكان لمحمد قرآن ، وشاء مسيلمة أن يكون له قرآن ، فراح هو والرجال يضعان قرآنا كقرآن محمد وأخذ بنو حيفة يقرأون القرآن الجديد : « والمبذرات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتز فآووه ، والباغى فناوئوه » واستفحل أمر مسيلمة ووزيره ، فبعث إليهم أبو بكرعكرمة بن أبىجهل فهزم عكرمة ونكب ، وأرسل بذلك إلى أبى بكر ، فكتب إليه أبو بكر :

« يابن أم عكرمة لا أرينك ولا ترانى على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان » .

ورأى أبو بكر أن يرمى أهل اليمامة بسيف الله المسلول ، فأمد خالدا وأمره أن ينطلق إلى متنبى بنى حنيفة الذى استفحل أمره ، وعظم خطره ، فخرج خالد وخرج عبد الرحمن بن أبى بكر معه لمحاربة أهل الرده ، خرج عبد الرحمن وهو يمنى النفس بالنصر ورفع كلمة الله ، أو الاستشهاد فى سبيل الله ، وسار جيش خالد حتى ثنية اليمامة فوجد هناك سرية مجاعة بن مرارة كانت قد خرجت لثأر ، وقد

غلب القوم الكرى ، فأسرع جيش خالد والتف بالنيام ، ثم نبهوهم وقالوا لهم :
— من أنتم ؟
— هذا مجاعة وهذه حنيفة .
فأوثقوهم وجاء خالد وقد ظن أنهم جاءوه ليستقبلوه وليتقوه بحاجة فقال لهم :
— متى سمعتم بنا ؟
— ما شعرنا بك ، إنما خرجنا لثأر لنا فيمن حولنا من بنى عامر وتميم .
فأمر بهم أن يقتلوا ، وبينما كان حكم خالد ينفذ فيهم ، التفت أحدهم إلى خالد وقال :
— إن كنت تريد بأهل اليمامة غداً خيراً أو شراً فاستبق هذا . . وأشار إلى مجاعة - ولا تقتله .
فقتلهم خالد وحبس مجاعة عنده كرهينة .
ووقف جيش خالد وجيش مسيلمة وجهاً لوجه ، وقد امتلأت الصدور حماسة ، فالمسلمون يذبون عن دينهم وأهل اليمامة يدافعون عن حياضهم ونبيهم ، وراح كل يحض قومه ويهزهم بأحسن ما فيهم ، وها هو ابن مسيلمة يتنقل بين القوم ويصيح : « يابنى حنيفة ! اليوم يوم الغيرة إن هزمتم تستردف النساء سبيات ، وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » .
وقف عبدالرحمن ينتظر الإذن بالقتال ، وتزاحف الجيشان فشد عبدالرحمن ، ودارت رحى معركة رهيبة فلم يثبت المسلمون لجموع بنى حنيفة وتقهقروا ، وزال خالد عن فسطاطه ، وساء عبدالرحمن وبعض ذوى الهمم العالية ان ينهزم المسلمون ، فعزموا على أن يبقوا فى الميدان منتصبين حتى يحكم الله بينهم وبين الفجرة المرتدين ، وثارت الحمية فيهم ، فانطلق زيد بن الخطاب إلى نهار الرجال ، الفقيه المخادع الذى باع دينه بدنياه ، وعاجله بضربة جعله كأمس الدابر ، وراح عبد الرحمن يلعب بسيفه ، وقد أطل منه المنون ، وخلصت إليه الجراح ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه بل ظل يجاهد ، وهبت ريح أثارت الرمال فى وجوه المسلمين ، فانطلق ناس إلى زيد بن الخطاب يسألونه عما يفعلون ، فقال لهم : « لا والله لا أتكلم

اليوم حتى نهزمهم ، أو ألقى الله فأكلمه بحجتى ، غضوا أبصاركم ، وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما » .

وشدد المسلمون النكير ، وراح بنو حنيفه يسقطون حول مسيلمة قتلى ، فرأى خالد أن ينطلق إلى مسيلمة لقتله فيضع للمعركة الرهيبة حداً ، فانقض عليه وهو يصيح : « وامحمداه » وما إن صك صوته آذان المسلمين ، حتى فارت الدماء فى عروقهم ، وأخذوا يطيحون برءوس المخدوعين فى نبيهم ، ورأى مسيلمة ضغط المسلمين عليه ، وطلب خالد له ، فدب الذعر فى نفسه ، وشاء الفرار ، فقال له من حوله . « أين ما كنت تعدنا ؟ » فأجابهم وهو يفر : « قاتلوا عن أحسابكم » ولما كان لهم فى نبيهم أسوة ، فقد فروا مثله ، ورأى محكم اليمامة ظهور المسلمين ، فوقف يقاتل عن الديار ويصيح : « يامعشر بنى حنيفة الآن تستحقب الكرائم غير رضيات ، وينكحن غير حظيات ، فما عندكم من حسب فاخرجوه » واستمر محكم ابن الطفيل يقاتل ، ولكن سيوف المسلمين كانت تقصف قصفا ، وأصواتهم وهم يزأرون « يامحمداه » تزلزل أركان المكان ، وتخلع قلوب الأعداء ، وراح عبد الرحمن ابن أبى بكر يصول ويجول ، وقد أطل من سيفه المنون ، وصاح محكم فى قومه : « إلى الحديقة . . إلى الحديقة » فدخل القوم حديقة الرحمن ، وكانت لمسيلمه وكانت واسعة الأرجاء ، منيعة الجدران ، كأنها الحصن ، ووقف محكم يحمى قومه المتقهقرين ، واستمر يقاتل أمام باب الحديقة ، فوضع عبد الرحمن بن أبى بكر سهما فى قوسه ، وسدده إلى محكم فجاء فى نحره ، فسقط مجدلا ، وأغلق باب الحديقة ، فما يفعل المسلمون ، أيحاصرونها حتى يسلم القوم ؟ لا . إنهم لن يرضوا إلا بالنصر الكامل المبين فتسوروا الجدران ، وقاتلوا الأعداء الذين يحمون باب الحديقة حتى فتحوه فتدفق المسلمون منه كالبحر الزاخر ، وأخذت سيوفهم تقط الرقاب ، وقتل مسيلمة ، وجللت أرض الحديقة بقتلى بنى حنيفة فصارت حديقة الموت والفناء .

وانطلق عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر إلى خالد وقالا له :

— ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون .

— دعانى أبث الخيول ، فالقط من ليس فى الحصون ، ثم أرى رأيى .

فبث خالد الخيول فحووا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضموا هذا إلى المعسكر ، ونادى بالرحيل لينزل على الحصون ، ولكن مجاعة أسيره قال له :

— إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن الحصون لمملوءة رجالا ، فهل لك إلى الصلح على ما ورائى .

فصالحه خالد على كل شيء دون النفوس .

فقال مجاعة :

— أنطلق إليهم فأشاورهم ، وننظر فى هذا الأمر ثم أرجع إليك .

ودخل مجاعة الحصون ، وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى ، فقال للنساء :

— البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون .

ففعلن فرأى خالد الرجال فيما يرى على الحصون وعليهم الحديد ، فعزم على أن يصالح مجاعة ، وعلى أن يعود بالنصر فقد قتل خلق كثير ممن كان معه وقد أنهكت الباقين الحرب ، ثم رجع مجاعة وأتى خالدا وقال :

— قد أبوا أن يجيزوا ماصنعت ، وقد أشرف لك بعضهم نقضا على ، وهم منى براء .

وأخيراً تم الصلح بين مجاعة وخالد ، ودخل خالد الحصون فلم يجد إلا النساء والصبيان .

وعاد عبدالرحمن بن أبى بكر إلى يثرب بعد أن قتل سبعة من صناديد بنى حنيفة وبعد أن نحر محكم اليمامة : عاد ليشترك فى الجهاد ، وليعمل على نشر دين الله وإقامة أركانه ، وتوطيد دعائمه .

الفصل الثالث عشر

طـــــلاق

اندمل جرح عبد الله بن أبي بكر ، وتفتح قلبه لعاتكة زوجه ، فإن فى عبدالله رقة آل أبى بكر فعشقها وهام بها وتدله حباً ، حتى أصبح لا يطيق النأى عنها ، فكان إذا ما خرج عنها لحاجة أحس حنيناً إليها ، وشوقاً زائداً فهى توأم نفسه ، وغذاء روحه ، فيسرع بالعودة إليها ليضمها إلى صـــدره الملهوف ، وليتملى من حسنها الفتان ، ولينصت إلى حديثها العذب الأخاذ . إن صوتها ليمس أذنه فى رقة منعشة ، وإن حسنها ليشيع فى نفسه غبطة ، وإنه ليهيم فى أجواء من السعادة إذا ما نظر فى عينيها الساحرتين الأخاذتين ، فيا لعبد الله قد شفه الوجد وأنساه الحب أن يخرج كما يخرج الناس ، فمكث فى البيت يرشف الرضاب من فم عاتكة ، لا يحس أن هناك دنيا غير دنياه ، إنه لسعيد ، فما له يفكر فيما سواه !

وبادلت عاتكة عبد الله حباً بحب ، وإخلاصاً بإخلاص ، وعلمت مكانها من نفسه ، فغلبته فى كثير من أمره ، فصار الرأى لها ، والتدبير تدبيرها ، ولم تكتف بأنها سلبته قلبه ، بل راحت تسلبه لبه وفكره ، ففنى عبد الله فيها ، وأصبح أتبع لها من ظلها ، فساء ذلك أبا بكر ، إنه ليرى ابنه يتلاشى فى زوجه ، ويقبع فى داره لا يخرج للجهاد ، فعزم على أن يعاتبه لعله يرعوى ، ويثوب إلى رشده ، وتقابل الأب والابن وتعاتبا ، وانطلق عبد الله وقد وعد أباه أن يختلف إلى الأسواق كما كان يختلف ، وأن يسير إلى المسجد كما كان يسير ، وما إن بلغ الدار ، وما إن تطلع إلى عاتكة حتى نسى كل شىء ، نسى مادار بينه وبين أبيه ، بل نسى أباه ، بل نسى نفسه ، ولم يعد يذكر إلا عاتكة حبيبة الفؤاد ، ومكث عبد الله معها فلم يختلف إلى الأسواق ، ولم يبادر إلى الغزوات ، ولم ينطلق إلى المسجد ، بل انطلق يحلق فى عوالم الحب والخيال ، وانتظر أبو بكر لعل حب ابنه لزوجه يبلى على الأيام ، ولعل جذوته تخبو ، ولكن ما كان كر الأيام إلا ليزيد هذا الحب لهيباً ،

وما كان عتاب أبي بكر إلا ليؤجج ناره فى صدره ، إن عبد الله ليحاول مخلصاً أن يبرأ من هذا الحب الذى جر عليه عتاب أبيه وتقريعه ، ولكن متى كان للمرء سلطان على الفؤاد ! قد حاول عبد الله أن يكبح جماح قلبه ، ولكنه أخفق ، وانطلق قلبه بلاجماح على هواه . وخرج أبو بكر فى يوم الجمعة للصلاة فمر على عبدالله وهو يناغى عاتكة فى علية له ، فلم يكلمه بل سار فى طريقه ، فمازال أمام عبد الله فسحة من الوقت قبل الصلاة ، وأذن المؤذن وصلى النـــاس ، وعاد أبو بكر بعد أن انقضت الصلاة ، فألفى عبد الله لا زال يناغى عاتكة ويلاعبها ، فغضب أبو بكر أشد الغضب ، ونادى ابنه وقال له :

— يا عبد الله أجمعت ؟

فقال عبد الله فى ارتباك :

— أوصلى الناس ؟

فقال أبو بكر فى حدة :

— نعم .

ثم قال لابنه فى حزم :

— لقد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة ، وقد أهلكتك عن فرائض الصلاة ، طلقها .

انصرف أبو بكر ، وبقى عبد الله شارد اللب ، مطأطىء الرأس ، ثم سار يجر رجليه جراً ، وقد ارتسم على وجهه الألم الشديد ، يكاد قلبه ينفطر ، وكبده ينصدع ، إن نفسه لتدمى ، وإن كلمة أبيه الأخيرة لتدوى فى أذنيه فتزلزل كيانه . فيالها من كلمة قوضت هناءه ، « طلقها » هذا ما هتف به الشيخ ، ولخروج روحه أهون عليه من خروج عاتكة من بين يديه ، لطالما وعد أباه أن يرعوى فى حبه ، ولكن حبه قد غلبه ، فما من الفراق بد ، ليته مات يوم الطائف يوم رمى بسهم ، ليته قضى قبل أن يحل به هذا العذاب ، لقد كان وقع السهم يومذاك أخف من وقع ما سمعه اليوم على نفسه ، أصاب السهم جسمه فأدماه ، وأصـــابت الكلمة روحه وما لجرح الروح من دواء .

واستمر عبد الله باسر الوجه ، حزين الفؤاد حتى أقبلت عليه عاتكة ، فحاول

أن يخفى عنها ما ألم به ولكن هيهات ! فما كان المحب بقادر على أن يخفى ما به عمن يحب ، وما كان المحبوب بحاجة إلى أن يفصح اللسان عما يخفى المحب ، فإن روحيهما لتتناجيان وإن قصر البيان ، وتكلف عبد الله الهدوء والاطمئنان ، وفتح لها ذراعيه وقد ارتسم على وجهه الابتسام ، فلم ترتم فى أحضانه كما اعتادت أن تفعل ، ولم تقدم له شفتيها ، ولم ترن إليه فى حنان ، بل هتفت به فى قلق :

— ما هناك ؟

— لا شىء .

— بل هناك أشياء .

— لا شىء يا عاتكة .

— وحى يا عبد الله ، أصدقنى القول .

فجرت دموعه على خديه ، ولم ينبس ، وأرخى ذراعيه الممدودتين وأطرق ، فأسرعت إليه وضمته إلى صدرها ، وقالت فى لهفة :

— أتبكى ! ما هناك ؟

— إنه الفراق .

فاتسعت حدقتا عاتكة ، وأحست جفافاً فى حلقها ، ولم تستطع أن تكبت عواطفها فانخرطت فى البكاء ، وراحت تنشج ، واستمر عبد الله فى بكائه ، والتصق الصدران . وامتزجت الدموع ، واستمر النحيب والنشيج ، ثم تجلد عبد الله وأبعدها عنه فى رفق ، وخرج لا يلوى على شىء ، وقد هصر الحزن نفسه ، فياله من فراق .

راح عبد الله يهيم على وجهه ، وصورة عاتكة تتمثل له أنى صرف البصر ، إنه ليهفو إليها ، ولكن عز الوصال ، وتقطعت الأسباب وأصبحت عاتكة ذكرى ، وصارت له خيالا بعد أن كانت شيئاً ينال . وفى ذات ليلة حاول عبد الله النوم ، ولكن لم تغمض له عين ، فصعد إلى سطح له يرقب النجوم التى شهدت حبه ، وهناءه ، ليشهدها سهده وشقاءة ، وتلفت عبد الله فعادت إليه ذكريات سعادته تتزاحم فى رأسه ، فهاجت نفسه وطفق يهتف :

أعاتك لا أنساك ماذر شارق   وما ناح قمرى الحمام المطوق

أعاتك قلبي كل يوم وليلة ... لديك بما يخفى النفوس معلق
لها خلق جزل ورأى ومنطق ... وخلق مصون فى حياء ومصدق
فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها فى غير شىء تطلق

وكان أبو بكر فى سطح له يصلى ، فصك أذنيه صوت ابنه الشاكى ، فهز أوتار قلبه ، ورق له ولم يستطع أن يصبر على عذاب ابنه فأشرف عليه وهتف :

— ياعبد الله راجع عاتكة .

فأحس عبد الله نشوة الغريق غب انتشاله من اليم ، وصاح :

— أشهدك أنى راجعتها .

ولمحه أبو بكر وهو يهرول فى غبطة وانشراح ، ثم يشرف على غلامه أيمن ويقول فى فرح :

— يا أيمن أنت حر لوجه الله تعالى ، أشهدك أنى راجعت عاتكة .

فاطمأنت نفس الشيخ ، وأخذ عبد الله يجرى إلى مؤخر الدار حيث اعتكفت عاتكة وهو يقول :

أعاتك قد طلقت فى غير ريبة ... وروجعت للأمر الذى هو كائن
كذلك أمر الله غاد ورائح ... على الناس فيه ألفة وتباين
وما زال قلبى للتفرق طائراً ... وقلبى لما قد قرب الله ساكن
ليهنك أنى لا أرى فيك سخطة ... وأنك قد تمت عليك المحاسن
فإنك ممن زين الله وجهه ... وليس لوجه زانه الله شائن

الفصل الرابع عشر

آل الزبير

تأهب الزبير بن العوام للخروج للحاق بالمسلمين الذين يقاتلون الروم فى الشأم ، وتجهزت أسماء للخروج مع زوجها ، ووقف عبد الله ابنهما مسروراً ، وكان سرور الصبى عظيما ، فسيشاهد قتال الروم عن كثب . كان عبد الله فى العاشرة من عمره لم يشتد ساعده بعد ، ولكن ماسمعه طوال السنين التى مرت به من أحداث جسام جعله يتطلع إلى المجد ، إنه لم يسمع مذ ولد إلا قعقعة السلاح ، ولم ير إلا أبطالا مردة ، أو شهداء يمشون على الأرض . ولد عبد الله بين ناس يحبون الموت حبهم للحياة فهانت عليه نفسه ولم يعد يعرف الخوف ، وحان أوان الخروج . فخرجت بنت الصديق وصهر الصديق وحفيد الصديق لقتال الروم مع المقاتلين ، وبعث أبو بكر إلى قواد الشأم أن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً ، وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنكم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أوتوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصل كل رجل منكم بأصحابه .

وتحرك جرح عبد الله بن أبى بكر الذى أصيب به يوم الطائف ، فلزم الدار وراحت عاتكة تعمل جاهدة على تمريضه ، ولكن ضاعت جهودها سدى فقد ثقلت عليه وطأة المرض ، ومرت الأيام فكانت حالته تزداد سوءاً فما كان الزمن حليفه ، وما كانت عجلته تدور لتسرع ببرئه ، بل كانت تدور لتسرع بيوم طيه ، ودنا يوم الرحيل فتطلع إلى عاتكة ، وحاول أن يبش لها ولكن خانته ملامحه ، فظل وجهه هزيلا شاحباً لايوحى إلا بقرب الفراق ، فغامت عينا عاتكة بالدمع ، فأشاحت بوجهها حتى لايرى عبراتها المترقرقة فى مقلتيها ، وتذكر عبد الله أنه كان

قد ابتاع الحلة التى أرادوا دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بتسعة دنانير ليكفن فيها فطلبها ، فجاءوا له بها ، وحضرته الوفاة فنظر إلى الحلة وقال :

— لا تكفنونى فيها ، فلو كان فيها خير كفن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانطلقت روح عبد الله من سجنها لتهيم طليقة فى السموات ، وأحست عاتكة حزناً ثقيلا ، ولوعة وأسى ، وراحت تبكى حتى لكاد قلبها ينفطر ، وأنشأت تقول :

فلله عيناً من رأى مثله فتى ... أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرا
فآليت لا تنفك عينى سخينة ... عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
مدى الدهر ما غنت حمامة أيكة ... وما طرد الليل الصباح المنورا

وجهز الجسد الفانى ، ووقف أبو بكر يصلى عليه فى خشوع ، وفى القلب لوعة وفى النفس حسرة ، ثم حمل ليقبر ، وانطلق الناس به حتى بلغوا المقابر فنزل فى قبره عمر وطلحة وعبد الرحمن أخوه ، وغيب عبد الله فى التراب ، فانقضى كما ينقضى اللحن الجميل .

وتوافى المسلمون باليرموك ، وأقبل خالد بن الوليد فى مدد من العراق ، فوافق خالد المسلمين وهم متضايقون بعدد الروم ، فلما رأى الناس خالداً ومن معه سار فى صدورهم الأمل الدفء ، وشد ذلك من أزرهم ، فهجموا على أعدائهم ، وراحوا يوقعون فى صفوفهم الرعب ، ويشتتون شملهم ، فاضطر الروم تحت ضغط هجمات المسلمين العنيفة أن يتقهقروا إلى خنادقهم وبقوا بها شهراً ، وأخذ القسيسون والشمامسة والرهبان يحضونهم على القتال ، فثارت حميتهم ، وخرجوا لقتال المسلمين .

وقال خالد للقواد فيما قال :

— هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعونى أليكم اليوم .

فوافقوا جميعاً وأمروا خالداً وهم يحسبون أن الأمر يطول ، وتأهب المسلمون

ووقف الزبير وهو أفضل صحابى فى الجيش ينتظر الإذن بالهجوم وكان عبد الله ابنه معه على فرس واحدة ، لقد عزم الزبير على أن يخوض به المعركة حتى يألف الطعن والنزال .

ووقفت النساء خلف الجيش ومعهن عدد من السيوف وكانت أسماء هناك ، فى يدها سيف مشهور ، فيالعبد الله ، إنه ليشترك فى معركة هائلة يخوض غمارها أبواه ، واتجه خالد إلى النساء ، وقال لهن :

— من رأيتموه مولياً فاقتلنه .

ثم قفل راجعاً إلى مكانه ، ونشب القتال ، والتحم الناس ، وتطارد الفرسان ، واجتمع إلى الزبير جماعة من الأبطال فقالوا :

— ألا تحمل فنحمل معك .

فانطلق الزبير كالشهاب ، وانطلق الأبطال معه ، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا ، وأقدم هو وعبدالله أمامه على الفرس ، وأخذ الزبير يلعب برمحه وسيفه ، ويقصف فى الأعداء قصفاً شديداً ، وعبد الله ينظر إلى ما يفعل أبوه وقد بان فى وجهه الدهشة والإعجاب ، إنه ليشق الصف شقاً ، واستمر الزبير يصول ويجول ثم عاد إلى مكانه فجاءه جماعة من الأبطال وقالوا :

— احمل فنحمل معك .

— إنكم لا تثبتون .

— سنثبت .

فحمل الزبير وحملوا فلما واجهوا صفوف الأعداء أحجموا وأقدم ، واستمرت رحى المعركة دائرة ، وعبد الله بن الزبير ينظر إلى الروم الذين يشدون على المسلمين لإزالتهم ، ويعجب من هؤلاء المقترنين الذين يحاربون وهم مسلسلون ومربطون ، وهجم الروم هجمة صادقة ، فأزالوا جند خالد ، وهم بعض المسلمين بالفرار فأخذت النساء يضربن من انهزم من المسلمين بالخشب والحجارة ، وصاحت أسماء فيمن صاح منهن :

— أين تذهبون وتدعوننا للعلوج .

وراحت خولة بنت ثعلب تنشد :

يا هاربا عن نسـوة تقيات فعن قليل ما ترى سبيات

ولا حصيات ولا رضيات

فخجل الرجال من الفرار ، وعادوا إلى المعركة وقد صمموا على الموت أو النصر ، ونادى عكرمة بن أبي جهل أمام فسطاط خالد :

— من يبايع على الموت ؟

فبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد قتال الأبطال الصناديد ، وثبتوا للأعداء وراحوا يسقطون مجدلين الواحد إثر الآخر ، ولما رأى المسلمون ثبات إخوانهم ، ثارت حماستهم فانقضوا على الأعداء انقضاض النسور الكواسر فأزالوهم ، ورأى خالد انهزام القوم فركبهم واقتفى أثرهم ، واقتحم عليهم الخندق . ورأى النساء انهزام الروم فانطلقن للاشتراك في المعركة ، وطفقت أسماء تضرب بسيفها في رقاب المقترنين الذين هووا في الخندق ، وأخذ الزبير يشدد النكير . وشارك عبد الله القوم في جهادهم ، إنه لم يحمل سيفاً ، ولم يطعن أحداً ، ولكنه كان تحت رحمة السيوف المتأرجحة فوق رأسه ، والسهام المنطلقة والرماح المسددة إلى الصدور ؛ ضربة واحدة تسدد إليه ، أو سهم يطيش فيقضي الغلام قبل أن يشتد ساعده ، وقبل أن يخوض غمار المعارك التي يتوق إليها .

وبينما كانت بنت الصديق وصهر الصديق ، وحفيد الصديق منهمكين في قتال الروم ، كان البريد يغذ في السير إلى مكان المعركة يحمل نبأ موت الصديق .

الفصل الخامس عشر

على فراش الموت

كان الجو باردا ، فدخل الناس دورهم يحتمون فيها من قرصات البرد الزمهرير ، ودخل أبو بكر يغتسل ، فخرج بعد أن اغتسل ينتفض ، وأحس رعشة تسرى فى جسمه ، فشاء أن يستكن فى فراشه ليجاب لجسمه الدفء ، وليقضى على القشعريرة التى راحت تمشى فى أوصاله ، وما إن اندس فى فراشه حتى شعر بدفء لذيذ ، ثم أخذت حرارته فى الارتفاع حتى أحس كأن رأسه يكاد ينفجر ، لقد حم أبو بكر : وطفقت الحمى فى الزيادة ، حتى لم يعد بقادر على الخروج ليصلى بالناس ، فأمر عمر أن يصلى بهم .

وأسرعت عائشة إلى أبيها المريض لتمرضه ، وأقبلت عليه زوجه أسماء بنت عميس . ونظر أبو بكر إلى ابنته أم المؤمنين طويلا ثم قال :

ــ يا بنيه ، إن أحب الناس غنى إلى بعدى أنت ، وإن أعز الناس فقرا على بعدى أنت ، وإنى كنت نحلتك أرضى التى تعلمين ، وأنا أحب أن ترديها على فتكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله ، فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختاك .

فظهرت الدهشة فى وجه عائشة ، فمالها إلا أخت واحدة ، هى أسماء التى انطلقت إلى اليرموك مع زوجها ، فما بال أبوها يقول أختاك .

فقالت فى عجب :

ــ أختاى ؟

ــ ذو بطن ابنة خارجة فإنى أظنها جارية .

كانت حبيبة بنت خارجة زوجه حاملا ، فلم يشأ أن يهمل ولده الذى لازال فى عالم الغيب ، بل راح يفكر فيه ويعمل على إحقاق حقه قبل أن يراه ، واشتد المرض عليه فنظر إلى زوجه أسماء وقال :

— غسليني .
— لا أطيق ذلك .
— يعينك عبد الرحمن بن أبى بكر يصب الماء .
والتفت إلى عائشة وقال :
— فى كم كفن رسول الله (ص) ؟
— فى ثلاثة أثواب .
— اغسلوا ثوبى هذين - وكانا ممشقين - وابتاعوا لى ثوبا آخر .
— يا أبة إنا موسرون .
— أى بنية ، الحى أحق بالجديد من الميت ، إنما هما للمهلة والصديد .
وابتدأت الشمس فى الغروب ، وابتدأ أبو بكر فى الغروب ، فأخذ يعالج سكرات الموت ، وفتح عينيه وقال بصوت خفيض :
— يا عائشة ، ادفنونى بجوار رسول الله .
ثم أسبل عينيه ، وأخذت روحه تحشرج فى صدره ، فقالت عائشة :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فتقلص وجه أبى بكر ، وبان فيه الغضب وقال :
— ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » .
واشتد الموت عليه فغمغم :

وكل ذى إبل موروث   وكل ذى سلب مسلوب
وكل ذى غيبة يئوب   وغائب الموت لا يئوب

وراح يجود بأنفاسه الأخيرة ، وكان آخر ما نطق به :
— رب ، توفنى مسلماً ، وألحقنى بالصالحين .
وفاضت روح أبى بكر فارتجت المدينة لوفاته ، وتم تجهيزه ليلا ، ثم حفر له لحد بجوار لحد النبى فى بيت عائشة ، ودخل قبره عمر وعثمان وطلحة وعبدالرحمن ابن أبى بكر ، ولما قبر سمع عمر نواحا فقد أقامت عليه عائشة النوح ، فأحس عمر انقباضا ، وانطلق إلى باب عائشة ونهى النساء النائحات عن البكاء ، فأبين أن ينتهين ، واستمررن فى نوحهن ، فهز ذلك عمر وزاد فى حزنه فتحرك غضبه ،

فالتفت إلى هشام بن الوليد وقال له :

— ادخل فأخرج إلى ابنة أبى قحافة أخت أبى بكر .

وصك ذلك أذن عائشة فقالت من وراء الباب لهشام :

— إنى أحرج عليك بيتى .

فأحجم هشام ، ولكن عمر قال لهشام فى حدة :

— ادخل فقد أذنت لك .

فدخل هشام ، فأخرج أم فروة أخت أبى بكر إلى عمر ، فعلاها بالدرة ، فضربها ضربات ، فتفرق النوح حين سمعن ذلك ، وخرجت عائشة ، ووقفت على قبر أبيها فبكت ، ثم قالت :

— نضر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزا بإقبالك عليها ، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا متنجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك ، فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك » .

ودخلت عائشة مطأطئة الرأس ، حزينة الفؤاد ، فقد ولى الوالد الحنون ، بعد أن تركها الزوج الحبيب .

الفصل السادس عشر

بعد الصديق

مات أبو بكر وقد خلف وراءه أسماء بنت عميس وابنها محمد ، وحبيبة بنت خارجة وهي حامل ، وابنتيه عائشة وأسماء وابنه الأكبر عبد الرحمن ، فأما أسماء فقد أخذت تعنى بابنها محمد مدة حتى تزوجها علي بن أبي طالب فاحتضن محمد بن أبي بكر وكان ابن ثلاث سنوات فشب محمد في بيت علي ، واشتد ساعده وهو لا يعرف إلا عليا ، وقد كان حب علي له شديدا ، فراح يرعاه كما يرعى ولديه الحسن والحسين ، فتعلق محمد بعلي . وزاد تعلقه به على الأيام ، فقد رأى عن كثب عظمة علي ، فآمن بها ، وأخذ بعد نفسه منذ تفتحت عينيه ليفنى في سبيلها ، وأما حبيبة فقد وضعت جارية ، هي أم كلثوم ، وجعلت ترعاها حتى نمت قليلا فضمتها أختها عائشة إليها فترعرعت في بيتها مدللة معززة مكرمة ، وأما عائشة فقدر لها عمر عطاءها فكان ١٢٠٠٠ درهم لمكانتها ومكانة أبيها من الرسول ، فلم تبق من هذا العطاء شيئاً ، بل كانت يدها كالريح المرسلة : لا ترد سائلا ، ولا ترى ملهوفا إلا مدت إليه يدا ، ولكن هل تقنع بهذا التسامى . وتقر في بيتها ؟ . وأما أسماء بنت أبي بكر فقد كانت في كنف زوجها الزبير ، وقد أنجبت منه عبد الله وعروة ، وكانت تشارك الزبير في تنشئة عبد الله ليكون أهلا لما قد يضطلع به من أعمال ، إنها لتراه بعين الأم كفئا لأعظم المهام ، وإنها لتراه ببصيرتها النفاذه شبلا قوياً فهو ابن الزبير ، وحفيد الصديق ، فراحت تزكى فيه روح العزة ، لعل الأيام تحقق ما يتخايل للأم من آن لآن ، أما عبد الرحمن فما انتهى من قبر أبيه حتى أمر أزواجه أن يتأهبن للخروج معه ليشارك إخوانه في الجهاد .

* * *

حزنت عاتكة على زوجها عبد الله بن أبي بكر حزناً شديداً ، وظل هذا الحزن مجللا على قلبها ، حائلا بينه وبين السرور ، ولكن لما كان الحزن يبلى كما يبلى الثوب ،

فقد تهتك عن قلب عاتكة ما كان يغلفه من حزن ، فجعل ينبض قوياً بالحياة ، ويلتمس ما ينعشه ويرويه : فما أرسل إليها عمر بن الخطاب يطلب الزواج منها حتى قبلت ، وأولم عمر ليبنى بها ، فراح عبد الرحمن يفكر فى عاتكة وزواجها من عمر فأحس حزناً ، فقد كان أخوه عبد الله يحب عاتكة ، وقد عاهدت عاتكة نفسها على ألا تتزوج بعــــده ، ترى أنسيت عهدها ؟ إن عبد الرحمن ليحس رغبة فى الانطلاق إلى عاتكة ليذكرها بقولها غب موت أخيه ، وإن هذه الرغبة لتجيش فى صدره حتى ليضيق بها ويود أن ينفسها عنه ، ولكن ما فى زواج عاتكة من عمر ، ألم يتزوج هو قريبة ابنة أبى أمية المخزومى بعد أن فارقها عمر فى الهدنة ؟ بلى تزوجها ، وما فى ذلك شىء ، فقد فارقها عمر وهو لها كاره ، أما زواج عمر من عاتكة فإنه يحس له لذعاً فى نفسه ، إن أخاه مات عنها وهو متيم صب ، وإنها راحت تعلن على الملأ تعلقها به ، وعظم مصيبتها فيه ، وأنها لن تسلوه ، ولن تتخذ بعده حليلا . فما بال عاتكة نسيت أخاه هكذا سريعاً ، ولم يطق عبد الرحمن صبراً فانطلق إلى بيت عمر ليفرج عن صدره بعض ما يكربه ، وقابل عمر وقال له :

ـــ يا أمير المؤمنين ، أتأذن لى أن أدخل رأسى على عاتكة ؟

قال عمر : نعم .

ودخل عمر على عاتكة وقال لها : استترى .

واستترت عاتكة وتقدمت ، وقد حسبت أن عبد الرحمن قد قدم ليهنئها على زواجها من أمير المؤمنين ، ولكن عبد الرحمن أدخل رأسه وقال :

وآليت لاتنفــــك عينى قريرة عليـــك ولا ينفك جلدى أصفرا

فيا لعبد الرحمن لقد طعن عاتكة فى الصميم ، ونكأ جرحها الذى كاد أن يندمل ، فنشجت نشيجاً عالياً ، وجعلت الأبيات التى قالتها فى عبد الله تدوى فى أذنيها ، فكأنما شواظ من نار تصب فيهما ، فانخرطت فى البكاء ، وأحست كأن سكيناً تقطع أحشاءها . والتفت عمر إلى عبد الرحمن وقال له عاتباً :

ـــ ما أردت إلى هذا ! كل النساء يفعلن هذا ! غفر الله لك .

فانطلق عبد الرحمن لا يلوى على شىء .

الفصل السابع عشر

الوصال

جلس عبد الرحمن ونفر من أصحابه يتحدثون قبل أن ينطلق إلى الشام ، وأقبلت أعرابية تمشي على استحياء حتى وقفت على عبد الرحمن بن أبي بكر ، فنظر إليها فقالت :

— إني أتيت من أرض شاسعة ، تهبطني هابطة ، وترفعني رافعة ، في بواد برين لحمي ، وهضن عظمي ، وتركنني والهة قد ضاق بي البلد ، بعد الأهل والولد ، وكثرة من العدد ، لا قرابة تؤويني ، ولا عشيرة تحميني ، فسألت أحياء العرب : من المرتجى سيبه ، المأمون غيبة ، الكثير نائله ، المكفي سائله ، فدللت عليك ، وأنا امرأة من هوازن فقدت الولد والوالد ، فاصنع في أمري واحدة من ثلاث :

إما أن تحسن صفدي (عطائي) ، وإما أن تقيم أودي ، وإما أن تردني إلى بلدي .

فتحركت رقة آل أبي بكر في عبد الرحمن ، كأنما المرأة كانت تلعب بأوتار قلبه فهزته ، وأحس الشفقة تملأ نفسه فقال :

— بل أجمعهن لك .

وقام عبد الرحمن معها ليحسن عطاءها ، وليقيم أودها ، وليردها إلى بلدها ، ولما خرجت المرأة شاكرة ، حمل عبد الرحمن أهله وانطلق إلى الشام ليشترك مع إخوانه في الجهاد .

وخرج عبد الرحمن إلى الشام ، وعادت به الذكرى إلى يوم خرج أول ما خرج إليها في تجارة أبيه ، فخفق قلبه للذكرى ، وملأت صورة ليلى ابنة الجودي نفسه ، وأخذ طيفها يرافقه في رحلته ، إن عبد الرحمن ليحبها من كل قلبه ، وإن مر سنين لم يطفيء ذلك الحب ، ولم يضعف جذوته ، بل قواه الحرمان ، وضخمه الخيال ، فلكم عاشت ليلى في مخيلة عبد الرحمن ، ولكم تماثلت له في شكول وألوان ، لقد

زوج عبد الرحمن فلم تستطع واحدة من أزواجه أن تنسيه ليلى ، لأنه كان ممن يتعشقون السبح فى الخيال ، فما أكثر ما كانت روحه تهيم لتتصل بروحها ، ولقد كان يشعر أثناء ذلك بنشوة لا يحسها إذا اتصلت بينه وبين أزواجه الأسباب ، فظلت لذلك ذكراها عالقة فى الفؤاد ، إنه لا يذكر ما كان من أزواجه بالأمس القريب ، ولكنه لا زال يذكر يوم وقعت عيناه عليها أول ما وقعت ، وكانت على طنفسة لها وحولها ولائدها ، فكأنما كانت قمراً يحف به النجوم ، وإنه ليحس الآن نفس الشعور الذى أحسه يومذاك على طول العهد ، وعلى الرغم من كر السنين ، وإن قلبه ليخفق قوياً لذكراها ، كما خفق قوياً يوم رؤياها . كون عبد الرحمن من الرقة والحب ، فوجد فى ليلى غذاء لروحه الهفهافة الشفافة .

انطلق عبد الرحمن إلى الشام وهو يمنى النفس بالوصال ، ولقد كان الوصال ضرباً من المحال أيام أن وقعت عيناه عليها أول ماوقعت ؛ فقد كان أعرابياً مغموراً ، وكانت هى ابنة سيد عظيم الجاه ، ولو كان لقلبه عقل ، ما خفق بحبها ، وما تعلق بالسماء ، ولكن الآن فما أيسر الوصال ؛ إنهم ليغزون الشام ، وعما قريب تصبح ملك يمينهم ، وستقع ليلى فى أيديهم ، ولقد علم أمير المؤمنين عمر مايقاسيه عبدالرحمن من وجد ، فأمر أن ينفل ليلى إذا ما وقعت فى السبايا .

انطلق عبد الرحمن وصورة ليلى تتماثل له حيثما صرف البصر ، والأمل البسام يتخايل له ، والأمانى العذاب تملأ نفسه ، لقد سيطر حبه على حواسه جميعاً ، فكان يرى كل شىء باسما ، ويحس للأصوات رقة فى أذنيه ، فلقد كانت مرآة نفسه صافية ، فراحت تعكس كل شىء صافياً ، ولاحت له الشام فهزته النشوة ، فزجر راحلته وود لو أنها أسرعت كما أسرعت دقات قلبه ، أو لو أن حرارة قلبه انتقلت إلى راحلته ، إذن لطارت على جناح الحب والهيام .

ولحق عبد الرحمن بإخوانه المسلمين ، وانضم إلى الجيوش التى طفقت تنتقل من ظفر إلى ظفر ، حتى كاد ملك الشام يطوى ، فأسرع عبد الرحمن فيمن أسرع إلى قصر الجودى ، كانوا يلتمسون الأسلاب ، وكان يلتمس حبيبة الفؤاد ، وجعل

الناس يحملون كل شيء ، وترك عبد الرحمن كل شيء ، وراح يجوس خلال القصر ينقب عمن سلبته قلبه ، واحتلت خياله تلك السنين الطوال . وابتدأ عبد الرحمن يحس قلقاً ، فقد بحث عمن يهوى هنا وهناك فلم تقع العين عليها ، ترى هل غادرت القصر وانطلقت إلى حيث لا يعلم ؟ وما فكر فى هذا حتى انقبض صدره ، وظللت نفسه سحابة من الكآبة والحزن ، فقد انهارت الآمال ، وتبددت الأحلام .

وأقفر القصر من الناس ، ولم يبق إلا عبد الرحمن ، فكأنما أنساه الحزن نفسه ، أو كأنما التصقت روحه بالمكان الذى كانت تملأه ليلى ، وكأنما شاء الكون أن يشاركه حزنه فأرخى ستائره السود فحجب كل شيء ولف الظلام المكان ، فراح عبد الرحمن يضرب فى الأرض ، مطأطىء الرأس ، شارد اللب ، منقبض الصدر ، حزين القلب ، منكسر النفس ، ودخل عبدالرحمن ليهجع ولكن لم تغمض له عين وانقضى الليل كأسوأ ما يكون ليل ، ثم أصبح الصباح فخرج عبد الرحمن وانطلق إلى فسطاط خالد ، فألفى خالداً يقابله وقد انفرجت أسارير وجهه ، والتمعت عيناه سروراً ، وكانت كل جوارحه تنطق بأنها هناك ، فاضطرب عبدالرحمن وخفق قلبه ، وظهرت اللهفة فى وجهه ، ولم ينطق لسانه ولكن استفسرت ملامح وجهه وسألت : أين ؟ ، وغاب خالد قليلا وترك عبد الرحمن نهباً لأفكاره ، معلقاً بين الرجاء واليأس ، وأرهفت حواس عبدالرحمن جميعاً ، حتى كان يسمع للنسيم السارى صوتاً فى أذنيه . وأقبل خالد فاتسعت حدقتا عبد الرحمن ، ودخلت فى إثر خالد فتاة حلوة ، فانفرجت شفتا عبدالرحمن وفتح فاه ، واشتد وجيب قلبه ، واضطرب نفسه ، إنها ليلى على قيد خطوات منه ، ودفعها خالد إليه ، فانطلق بها وهو لا يدرى أعلى الأرض يسير أم بأجنحة يطير !

حدب عبد الرحمن على ليلى أشد الحدب ، فأنساها ما نزل بها من كرب ، وما نالها من هوان ، واطمأنت إليه فجعلت تترع معه كئوس الغرام ، وجعل يضمها إليه لعله يطفىء نار الحب التى تتلظى فى حنايا الضلوع ، وحملها عبد الرحمن وقفل عائداً إلى المدينة وهام بها حباً ، فلم يعد يدور على نسائه ، بل راح يمضى عندها

طوال الليل وعامة النهار ، فأحست أزواجه غيرة ، وخرجن إلى عائشة يشكون ما أصابهن من إهمال ، ويلتمسن منها معاتبته ، فخرجت عائشة لتعاتب عبد الرحمن وقد نسيت أنها قد ضاقت بفاطمة لما مشت إلى النبي صلى الله عليه وسلم لتقول له : « إن أزواجك يسألنك العدل فى بنت أبى قحافة » ، فانطلقت حتى دخلت على أخيها وكلمته فى أمر ليلى وأزواجه فقال عبد الرحمن :

— والله كأنى أرشف من ثناياها حب الرمان .

انصرفت عائشة ، فقام عبد الرحمن إلى ليلى ليضمها إلى صدره ، وليرشف قبلات معسولات ، وليهيم معها فى سماء الصبابة والهيام .

الفصل الثامن عشر

للأنساب آباء

احتضنت عائشة أختها أم كلثوم فترعرعت فى كنف أم المؤمنين فى خفض من العيش ، وغمرتها بالحنان والعطف فنشأت لينة رقيقة. وكانت أم كلثوم فتاة صغيرة حلوة ، ورثت عن أبيها رقة بنى تيم ، وورثت عن أمها حبيبة بنت خارجة ليونة أهل الحضر ، فجاءت لينة حلوة عذبة ، وما كادت تشب عن الطوق حتى بعث أمير المؤمنين عمر إلى عائشة يطلب تزويجه من أم كلثوم بنت صديقه الحميم ، فطلبت من السفير أن يمهلها حتى تستطلع رأى الصغيرة . ودخلت أم كلثوم على عائشة فأجلستها بجوارها وقالت :

ـ أرسل أمير المؤمنين فيك إلى . فما ترين ؟

فأطرقت أم كلثوم وقد توردت وجنتاها ، وعقد لسانها ، ولم يظهر فى وجهها الارتياح ، فقالت لها عائشة فى حنان :

ـ الأمر إليك .

وذهب روع أم كلثوم ، وانطلقت عقدة لسانها فقالت فى حياء

ـ لا حاجة لى فيه .

فظهرت الدهشة فى وجه عائشة . وقالت مستنكرة :

ـ ترغبين عن أمير المؤمنين !

فقالت أم كلثوم فى يسر :

ـ إنه خشن العيش ، شديد على النساء .

فأطرقت عائشة ، ولم تراجع أم كلثوم فقد قالت رأيها ، وراحت تفكر فيما تفعل ؟ وكيف تبلغ هذا الرفض إلى أمير المؤمنين ، الذى بجلهم بعد موت الصديق ،

وبذل كل ما فى طوقه ليجعل حياتهم رغدة آمنة ، وجعلت تستعرض الدهاة فى مخيلتها لتختار من بينهم أكيسهم ، ليقوم بهذه السفارة البغيضة دون أن يحرجها ودون أن يجرح كبرياء أمير المؤمنين ، فلم تجد إلا عمرو بن العاص كفئا لها ، فأرسلت إليه . وجاء عمرو فقالت له أم المؤمنين :

— خطب أمير المؤمنين أم كلثوم ولكنها ترغب عنه .

وسكتت عائشة ، وفهم عمرو ما ترمى إليه فقال لها :

— اكفيك .

وخرج إلى أمير المؤمنين ، وطفق يفكر فى الطريق ، ولم يطل تفكيره فقد وجد الداهية المخرج ، فأغذ فى السير حتى إذا ماجاء عمر قال له :

— يا أمير المؤمنين ، بلغنى خبر أعيذك بالله منه .

فنظر عمر إليه وقد بان التساؤل فى وجه وقال :

— وما هو ؟

— خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ؟

— نعم . أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى ؟

— لا واحدة ، ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك غلظة ؛ ونحن نهابك ، ولا نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها ، كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك .

فطأطأ عمر بصره ، وأخذ يفكر فى كلام عمرو الذى نفذ إلى قلبه ، إن عمرا يقول حقاً ، أجل إن فيه غلظة ، وإنه لشديد على النساء ، فيدخل عابسا ويخرج عابسا ؛ وإنه لا يود أن يخلف أبا بكر فى ولده بغير مايحق عليه ، ولكن عائشة ما تقول عنه إذا فسخ خطبته ، إن هذا يكدره ، فياليته أحجم عن خطبة أم كلثوم من أول الأمر ، ولكن لم كل هذا وداهية العرب ماثل أمامه ، إنه ليستطيع أن يطلب عونه ، فرفع رأسه وقال :

— فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟

لقد عزم أمير المؤمنين على النكوص ، فأسرع عمرو ليثبت الأمر :

— أنا لك بها . وأدلك على خير منها .

— فمن ؟

— أم كلثوم بنت على بن أبى طالب .

وانصرف عمرو وقد أرضى أم المؤمنين ، وأرضى أمير المؤمنين . وأرسل طلحة بن عبيد الله يخطب أم كلثوم ، وكان طلحة جوادا خيرا ، وراحت عائشة تقص على أختها أخباره وفعاله يوم أحد ، وكيف ثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم يذب عنه ويقول له ، نحرى دون نحرك يارسول الله ، وكيف ضربت يده ، وسالت دماؤه ولم يتخل عن نبيه ، وكيف كان الصديق يسمى يوم أحد بيوم طلحة ، وجعلت عائشة تقص الشيء الكثير عن كرمه وبره ، فأعجبت أم كلثوم به ، ورغبت فيه ، فعقد له عليها ، وبنى بها ، ودارت عجلة الزمن ، ورزقها الله بنتا ، فسمياها باسم خالتها أم المؤمنين ، واستمرت عجلة الزمن فى دورانها لتشب عائشة بنت طلحة حلوة فتانة ، تسلب الألباب ، وتثير الغرام ، وتعبث بالقلوب .

* * *

قوض عمر ملك فارس ، وطفق قواده يجدون فى أثر يزدجرد ملكهم ، فكان كلما نزل بمدينة حاصروها وفتحوها فلا يسعه إلا أن يفر وقد حمل أهل بيته ونفائسه . واستمرت المطاردة العنيفة ، واستمرت المدن تسقط فى أيدى العرب مدينة إثر مدينة ، فضاقت الأرض فى وجه يزدجرد ، وحدث أن دهم الغزاة إحدى مدنه ولم يأخذ أهبته للفرار ، فكاد أن يقع فى الأسر ، فلما وجد الفاتحين قاب قوسين منه أو أدنى ، فر ناجيا بجلده ، هائما على وجهه مخلفا وراءه أعز مافى ملكه ؛ فلذات أكباده الثلاث ، فوقعن فى أيدى العرب سبايا ، وحملن إلى القائد فيما حمل إليه من النفائس والغنائم والسبى ، فأخرجهن فى الخمس الذى بعث به إلى المدينة ليتصرف فيه أمير المؤمنين .

ووردت نفائس كسرى مدينة الرسول ، فقسمت فى الناس ، وأمر عمر ببيع السبايا ، وانتظرت بنات يزدجرد ما يصيبهن وقد ارتسم الألم فى وجوههن ،

وبان الأسى فى عيونهن ، وخيمت على وجوههن الوضاءة سحائب من الحزن ؛ فقد جار الزمن عليهن صغيرات ، وعبس لهن وعبث بهن وما دار بخلدهن قط أن يعبس أو يعبث ، فما كن يحسبن الدنيا إلا باسمة مشرقة ، مقبلة غير مدبرة ، فإذا بها عنهن كاشحة معرضة ، ولسلطانهن طاوية ، ولحريتهن سالبه : لقد ضاع كل شيء ، ولم يبق لهن إلا شبابهن ونضارتهن ، وتلفتن حولهن بعيون زائغة ملأتها العبرات ، فأين ما هن فيه مما كن فيه ، ذل بعد عز ، وخوف بعد أمن ، وانخفاض بعد رفعة ، وفقر بعد غنى ، ورق بعد سيادة وسلطان . ونظرت كل إلى أختها وقد سالت الدموع ، وتألمت النفوس ، فإنهن الآن مجتمعات ، وعما قريب مفترقات ، لا يعلمن إلى أين يحملن . ولا إلى من يدفع بهن ، إلى كريم يرحمهن ويواسى الجراح ، أم إلى لئيم لا يقيل عثرتهن ويسقيهن دواما كأس الهوان .

ولم يشأ الزمن أن يستمر فى قسوته ، بل شاء أن يجبر هذه القلوب التى تصدعت فقيض لها رجلا كريما . فما نظر ابن أبى طالب إليهن حتى رق لهن قلبه ، وتحركت عوامل الشفقة فى نفسه الكبيرة ، وانتظر ليرى ما يرى فيهن عمر ، فأمر عمر ببيعهن فالتفت إليه على وقال :

— إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة .

فصوب عمر بصره إليه وقال :

— وكيف الطريق إلى العمل معهن ؟

فقال على :

— يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن .

فوافق أمير المؤمنين ، وقومن ، ودفع على قيمتهن ، وراح يفكر فى أكفاء لهن ، فرأى أن يدفع بهن إلى أحب الناس إليه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لربيبه محمد بن أبى بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته ولده سالما ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، وأخذت عجلة الزمن فى الدوران ليشب سالم وزين العابدين والقاسم أتقى أهل زمانهم .

الفصل التاسع عشر

بذور الفتنة

قتل عمر، وبويع لعثمان بالخلافة ، وتسربت من يد ابن أبى طالب للمرة الثالثة ، فساء ذلك محمد بن أبى بكر فقد كان هواه مع على ، وكان يرى أن علياً أحق بها وأجدر ، ولا غرابة فى ميل محمد إلى على فقد ترى فى كنفه ، وشب وهو لا يعرف له أبا سواه ، ولمس عظمته وعلمه وعدله وجلاله ، فكان يعتقد اعتقاد اليقين أن عثمان أخذها بغير حق ، فأحس منذ اللحظة الاولى عدم ميل إلى عثمان ، وأخذ يتصيد هفواته ليعيبها عليه ، ثم حدث بعد ذلك ما أوغر صدر محمد على عثمان . فقدار تكب مايوجب الحد ، فضربه عثمان ، وكان المألوف أن يدهن مكان الضرب ، ولكن عثمان ضربه دون أن يدهن ، فنقم عليه ، وعزم على أن يناوئه . فانطلق من المدينة قاصداً مصر .

وأسلم عبد الله بن سبأ ، وكان يهودياً من أهل صنعاء ، وكانت **أمه** سوداء ، فكان يطلق عليه ابن السوداء ، وراح ابن السوداء منذ اللحظة الاولى يبذر بذور الشقاق بين المسلمين ، ويحاول ضلالتهم ؛ فبدأ بالحجاز وراح يوسوس فى صدور الناس ، يحاول أن يغيرهم على أميرهم عثمان ، ولكنه لم يجد النفوس مهيئة لدعوته ، فورد البصرة ، ونفث فيها بعض سمومه ، ثم عرج على الكوفة وبث آراءه ، وهبط إلى الشام وقابل أبا ذر الغفارى ، وأوغر صدره على معاوية ، فهب أبو ذر ليناوئه : ولكن معاوية بلغه أن ابن السوداء هو الذى غير عليه أبا ذر فأخرجه من الشام ثم أخرج أبا ذر لما أعضل به ، فانطلق ابن السوداء إلى مصر ، فألفى فيها تربة خصبة لآرائه فجعل يبذرها حبة حبة ، حتى نجح آخر الامر فى تشتيت شمل المسلمين وتفريقهم شيعاً وأحزاباً .

هبط ابن سبأ مصر وراح يحدث الناس حديث دينهم فالتف الناس حوله ،

وفى يوم جاس بضع نفر إليه وجعل يحدثهم كعادته ثم قال لهم :

ـــ لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى .

فنظر الناس إليه نظرة استفهام مشوبه بإعجاب ، فما كانوا يفقهون هذا قبل الآن ، وما كانوا يدرون شيئاً عن الرجعة التى حدثهم عنها ابن سبأ ، ثم جعلوا يتكلمون فيها حتى قبلوا ذلك عنه ، فاطمأن إلى بذرة الشقاق الأولى التى بذرها بعناية ومهارة .

وتقابل ابن سبأ ومحمد بن أبى بكر فى مصر ، وكان ابن السوداء يعلم هوى محمد وميله إلى أهل البيت ، فاشترك معه فى الدعوة لعلى وأخذ يقول :

ـــ إنه كان ألف نبى ولكل نبى وصى ، وكان على وصى محمد : ومحمد خاتم الأنبياء ، وعلى خاتم الأوصياء .

وتعاون محمد بن أبى بكر وعبد الله بن سبأ على دق أول مسمار فى نعش عثمان .

وعزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، واستعمل عبدالله بن سعد بن أبى سرح ، فغضب عمرو غضباً شديداً ، وحقد على عثمان وفارق أخته التى كانت عنده ، وانطلق إلى المدينة وقد عزم على أن يأتى علياً والزبير وطلحة فيؤلبهم على عثمان ، وأن يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان ، بل لقد كان حقده عليه هائلا حتى أنه راح يحرض عليه الراعى فى غنمه فى رأس الجبل .

وكان محمد بن أبى حذيفة يتيما فى حجر عثمان ، وشب فى كنفه ، فلما بويع عثمان أميراً للمؤمنين طمع محمد بن أبى حذيفة فى أن يولى عملا ، ولكن عثمان لم يستعمله فقد كان حدثاً فساء ذلك محمد ، وانتظر ولم يتغير ثم تقدم إلى عثمان يسأله العمل فقال له عثمان :

ـــ يابنى لوكنت رضى؟ ثم سألتنى العمل لاستعملتك ، ولكن لست هناك .

فأطرق محمد بن أبى حذيفة وقد بان الكمد فى وجهه ، وساءه ألا يستعمله عثمان فقال فى صوت فيه أسى :

ــ فأذن لى فلأخرج فلأطلب ما يقوتنى .

ــ اذهب حيث شئت .

وجهزه عثمان وحمله وأعطاه ما يكفيه . فانطلق إلى مصر ، فيالعثمان ، لقد اجتمع هناك ابن سبأ ومحمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة ، وعما قليل يبعث إليهم عمار بن ياسر ليرى له ما بلغه عن عامله فى مصر فينضم عمار ، الذى ضربه عثمان لكلام بينه وبين آخر ، إليهم فيتم عقدهم ، فيعملون على تحقيق غرضهم ، ألا وهو خلع عثمان .

وكان فى عثمان ضعف لأهله ، فكان يولى بنى أمية ويعطيهم ، وكان كبار الصحابة يرون أن رحمهم منه قريبة ولكن الفضل فى غيرهم ، وقد ساء ذلك عائشة أم المؤمنين ، فكانت ترى خلعه ، فأخذت تحرض عليه ، بل وتلتمس من ذوى المصاحة أن ينفروا الناس عنه ، فكانت عائشة أول من سل السيف فى وجهه .

الفصل العشرون

تألق النـــجم

سرح عثمان عبد الله بن سعد بن أبى السرح إلى أفريقية ، وقال له : « إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم » فتجهز ابن أبى السرح وخرج من مصر فى عشرة آلاف مقاتل ليفتح شمال أفريقية ، فالتقت جموع المسلمين بجموع الروم ، ودارت معارك رهيبة ، ورأى ابن أبى السرح ألا قبل له على كسر شوكة أعدائه ، فبعث إلى أمير المؤمنين يستمده ، فانتدب أمير المؤمنين الناس للخروج للجهاد ، فتقدم عشرة آلاف ، فيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن جعفر - وكان عثمان قد ألزمه حدود الله ، وسيتلاقى ومحمد بن أبى بكر بعيداً عن أعين أهل المدينة ، وسيتناجيان ويدبران - والحسن والحسين وابن الزبير ، وخرج الجميع من مدينة الرسول وانطلقوا حتى لحقوا جيوش المسلمين فى أفريقية .

والتقى الجمعان ، وأمر جرجير ملك الروم جيشه أن يلتفوا بالمسلمين ليحاطوا بهم هالة ، ودار القتال وكانت وطأته شديدة على المسلمين ، وأخذ صناديدهم يذبون عن أنفسهم ويشدون على الأعداء ليكسروا حلقة الأعداء التى تود أن تطبق عليهم لتستأصل شأفتهم . فوقفوا فى موقف رهيب لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه ، ولكنهم تواصوا بالصبر ، وراحوا يشددون التكبير ، وارتفعت الشمس حتى توسطت كبد السماء . فارتفع صوت المؤذن يؤذن بالظهر ، فابتدأ الجيشان فى الانصراف ليتأهبوا لاستئناف القتال فى اليوم الثانى .

ولاحظ ابن الزبير غياب ابن أبى السرح عن القتال فتعجب من ذلك ، فما كان من أخلاق قوادهم أن يتخلفوا عن القتال ، بل كانوا دائماً فرسان الحلبة المبرزين ، فما بال ابن السرح يغيب عن المعركة ، فسأل عن سبب ذلك فقيل له :

ـــ إنه سمع منادى جرجير يقول : من قتل ابن أبى السرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى ، فخاف وتأخر عن شهود القتال .

فانطلق ابن الزبير إلى عبد الله بن أبى السرح ودخل عليه وقال له :

ـــ لم تتخلف عن القتال ؟ أمن أجل ما نادى به ؟ فلتناد أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته .

وتراءى الجمعان ، وبرز منادى المسلمين ونادى :

ـــ من قتل جرجير نفله الأمير مائة ألف وزوجه ابنته .

فأحس جرجير رهبة ، وأوجس خيفة فسيكون هدف المسلمين جميعاً فتأخر ، وراح يتلفت وقد انتابه ذعر وقلق ، ونشب القتـــال واستمر حتى إذا ما أذن المؤذن بالظهر انصرف الجيشان ، وانصرف عبدالله بن الزبير إلى خيمته ، وتمدد ، وراح يستعرض ما شهده فى القتال ، لقد رأى أن الجيشين يحاربان حتى الظهر ثم ينصرفان . وخطر له خاطر ، ثم احتل هذا الخاطر ذهنه فجعل لايفكر إلا فيه ، وتساوقت الافكار وتناسقت ، وأتم عبد الله تدبير كل شىء فى رأسه ، ثم نهض واتجه إلى عبد الله بن أبى السرح ليفضى إليه بالخطة التى فكر فيها ، والتى ستضع حداً للمعركة القاسية الدائرة .

واختلى ابن الزبير وعبد الله بن أبى السرح وراح يفضى إليه برأيه ثم قال :

ـــ أرى أن يترك أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين للحرب حتى إذا ما انصرف الروم ركب عليهم المنتظرون فى الخيام .

فأعجب ابن أبى السرح بالخطة ، وأمر صناديد جيشه بالانتظار فى خيامهم وعدم اشتراكهم فى الحرب الدائرة من الصبح حتى الظهر ، والخروج عند سماع أذان الظهر ليحموا ظهر ابن الزبير الذى سينطلق قدماً إلى جرجير .

وبرزت الشمس وبرز الجيشان للقتال ، وتبودلت الضربات والطعنات وتلاقت السيوف ، وتصافحت الأجسام ، وسالت الدماء . وجللت الجثث المكان ، واقتربت الشمس من كبد السماء ، فشى التعب فى الأجسام ، وانتظر الناس سماع الأذان ، فقد حنت أبدانهم إلى الراحة ، وحان الحين ، وأذن المؤذن بالظهر ، فافترق

المتلاحمون ، وانصرف كل إلى عسكره ، وهم الروم بالانصراف ، وكانت عين ابن الزبير على ملكهم ، فرآه من وراء الصفوف وهو راكب على برذون ، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس .

فالتفت ابن الزبير إلى صناديد المسلمين المتأهبين للقتال وقال لهم :

— احموا لى ظهرى .

ثم انطلق إلى الملك ثابت الجنان ، لايظهر عليه أى الاضطراب ، وراح يخترق الصفوف إليه ، والناس يتركونه وقد حسبوا أنه ذاهب فى رسالة إلى مليكهم ، ولما اقترب منه بان الشر فى وجهه ، فأجفل الملك وفر على برذونه ، فانطلق فى أثره ، وانقض فرسان المسلمين ليحموا ظهر ابن الزبير الباسل .

ولحق ابن الزبير الملك ، فانقض عليه ، وطعنه برمحه ، وذفف عليه بسيفه ، وأخذ رأسه ونصبه على الرمح ثم كبر ، وانقض المسلمون على الأعداء ، فلما رأى ذلك البربر فرقوا ، وفروا كفرار القطا ، واتبعهم المسلمون ، وجعلوا يقتلون ويأسرون ، وانجلت المعركة عن نصر مبين ، كان الفضل فيه لابن الزبير الذى فكر ودبر ونفذ ، وارتفع اسم ابن الزبير سريعاً ، وتألق نجمه فقد كان البطل المجلى فى أول معركة يخوض غمارها .

وغنم المسلمون غنائم جمة ، وأموالا كثيرة ، وسبياً عظيما ، وقسم عبد الله بن أبى السرح الغنائم فاحتجز الخمس لأمير المؤمنين ، وقسم الباقى على المقاتلين ، ثم احتجز لنفسه خمس الخمس كما وعده أمير المؤمنين . فكان هذا سلاحاً جديداً فى أيدى مناوئى عثمان ، فشهروه فى وجهه ، وراحوا يعيبون عليه ميله وهواه إلى أهله . وأخذت ابنة الملك سبية ، فقدمها ابن أبى السرح إلى ابن الزبير هدية ، وشاء ابن أبى السرح أن يبعث إلى أمير المؤمنين بالبشارة . فاختار بطل المعركة لينطلق الى عثمان بالفتح العظيم ، فخرج ابن الزبير قاصداً المدينة ، وجعل يطوى الصحارى والوديان ، ويتمنى أن يكون له جناحان ليطير إلى أمير المؤمنين لينبئه بالخبر العظيم .

ودخل ابن الزبير على عثمان ، وقد تهلل وجهه ، وبان السرور فى عينيه ، وجعل

يقص على عثمان مافعله المسلمون حتى جاءهم الله بالنصر ، فالتفت عثمان اليه وقال :

ــ إن استطعت أن تؤدى هذا للناس فوق المنبر .

فقال ابن الزبير فى ثقة :

ــ نعم .

وخرج إلى المسجد وصعد المنبر ، واجتمع الناس ليسمعوا مايقول هـذا الحدث الذى جاء بالبشارة ، وانطلق عبد الله وتدفق ، فاستحوذ على الناس ، واستولى عليهم ، فأعاروه سمعهم ، واستمر فى إلقائه الرصين ، وبيانه الأخاذ . والتفت فإذا أبوه الزبير فى جملة من حضر ، فلما تبين وجهه كاد أن يرتج عليه فى الكلام ، فقد كان يهابه ويخشاه قلبه ، ولكن الزبير ابتسم له ، ورمزه بعينه ، وأشار إليه ليحضه على استئناف ماكان فيه ، فتمالك عبد الله روعه ، وعادت إليه رباطه جأشه ، وقال وحلق فى القول ، فاثلج صدر الزبير ، وأخذ يستمع إلى ابنه وقد تفتحت جوانح نفسه ، وانشرح صدره ، وأحس دمعة فرح تكاد تفر من عينيه فمسحها بظهر يده . وأخذته النشوة وهزه الطرب ، وود أن ينطلق ليضم ابنه الحبيب إلى صدره ، وانتهى ابن الزبير من قوله ، فنزل فأسرع إليـه الزبير والتفت إليه فى حنان . وقال له فى إعجاب :

ــ والله لكأنى أسمع خطبة أبى بكر الصديق حين سمعت خطبتك يابنى .

الفصل الحادى والعشرون

عيب عثمان

انتصر المسلمون فى أفريقية على الروم انتصاراً باهراً ، فأغضب ذلك قسطنطين ابن هرقل . فعزم على قتال المسلمين بنفسه ، فخرج فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام ، وتجهزت المراكب وكانت خمسمائة مركب ثم أقلعت لملاقاة المسلمين ، وبلغ عبد الله بن أبى سرح خروج الروم لقتاله ، فأعد المراكب وحمل المسلمين . وكان محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة قد اجتمعا فى غزوة أفريقية ، فحملهما عبد الله فى مركب واحد ، فأخذا يوسوسان للناس أن دم عثمان حلال ، ويقولان استعمل عبد الله بن سعد بن أبى سرح رجلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ، ونزل القرآن بكفره ، وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً وأدخلهم ، ونزع أصحاب رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ، واستمرا فى عيب عثمان والنيل منه ، حتى أخذ الناس يتحدثون عما أحدث عثمان .

وقام عبد الله بن سعد بن أبى سرح ليصلى بالناس العصر ، فكبر محمد بن أبى حذيفة تكبيراً ورفع صوته حتى فرغ الإمام عبد الله . فسأل : ما هذا ؟ فقيل له هذا محمد بن أبى حذيفة يكبر ، فدعاه عبد الله فقال له :

— ما هذه البدعة والحدث ؟

— ما هذه بدعة ولا حدث وما بالتكبير بأس .

— لا تعودن .

وانصرف محمد بن أبى حذيفة واجتمع بمحمد بن أبى بكر ، واستأنفا ما كانا فيه ، فأوسعا الأرض إذاعة ، وأخذ الناس يستمعون إليهما فراحا يقولان إن عثمان قد أتم الصلاة فى السفر وما أتمها النبى ولا أبو بكر ولا عمر ، وإن أصحاب الرسول لا يرضون عما يفعل عثمان ، وقال محمد بن أبى بكر للناس إنه تسلم رسالة

ممن بالمدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جاء فيها : إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل تطلبون دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك ، فهلموا فأقيموا دين محمد صلى الله عليه وسلم » .

وانحدرت الشمس وأذن المؤذن بالمغرب ، فقام عبدالله بن أبي سرح ليصلي بالناس وكبر محمد بن أبي حذيفة تكبيراً أرفع من الاول ، فأرسل إليه وقال له :

— إنك غلام أحمق . أما والله إني لا أدرى ما يوافق أمير المؤمنين لقاربت بين حطوك .

— والله مالك إلى ذلك من سبيل ، ولو هممت به ماقدرت عليه .

— فكف خير لك .

واستمر محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر في تأليب القوم على عثمان ، وبلغ ذلك عبد الله فبعث إليهما وراح ينهاهما أشد النهى، ولكنهما لم يرجعا ، فقال لهما :

— والله لولا أني لا أدرى مايوافق أمير المؤمنـــين لعاقبتكما وحبستكما ، لاتركبا معنا .

فانتقل محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة إلى مركب مافيه أحد من المسلمين ، ما معهما إلا القبط ، واستمرت المراكب في إبحارها حتى بلغ المسلمون ذات الصوارى ، فلاح لهم أسطول قسطنطين العظيم .

فالتفت عبد الله بن أبي سرح إلى من حوله وقال :

— أشيروا على .

فقالوا :

— تنظر الليلة .

ووقفت مراكب المسلمين أمام مراكب الأعداء ، وأرخى الليل سدوله ، وشاء أن يسيطر سكونه ، ولكن نواقيس الروم التي كانت تدق دقات متلاحقة ، وتكبير المسلمين وابتهالاتهم كانت تهتك السكون ، وراح الناس يقرأون سورة الانفال ، وانقضى الليل ، ولاح الصباح ، وهبت ريح شديده على سفن المسلمين

ورست مراكب قسطنطين قريبا من مراكب المسلمين . فبعث عبد الله الى الروم : « الأمن بيننا وبينكم » فقالوا « ذلك لكم ولنا منكم » وهدأت الريح ثم أوفد ابن أبى سرح إليهم :

— إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر ، فقالوا :

— الماء .

لقد هزم الروم فى الأرض ، فشاءوا أن ينتصروا فى البحر ، فما كان للعرب علم بقتال السفن ، وإنها لفرصة طيبة ليقتصوا لما نالهم فى أفريقية وليغسلوا عاره ، واقتربت سفن المسلمين من سفن الروم ، وقد تأهب القوم للقتال ، فشدوا على نواجزهم ، ورفعوا أسيافهم ، وارتفعت أصواتهم بالتكبير ، والتصقت السفن بالسفن ثم ربط بعضها إلى بعض ، ودار القتال فوثب الرجال على الرجال ، يضربون بالسيوف على السفن ، ويتواجئون بالخناجر ، وقفز محمد بن أبى بكر إلى مراكب الروم : وقد استل سيفه وكشر عن أنيابه ، وراح يصول ويجول ويقفز فى خفة الغزال ، ويضرب ضرب الأبطال ، وشد من أزره محمد بن أبى حذيفة فجعلا يقصفان الروم قصفاً شديداً ، وسالت الدماء وامتزجت بمياه البحر ، فكان الدم الغالب على الماء ، وسقطت جثث القتلى فى البحر فكانت الأمواج تضربها وراحت تطرحها ركاما ، وقتل من المسلمين بشر كثير ، وأصيب الروم بخسائر فادحة ، وصبر صناديد المسلمين للقتال صبرا ماصبروه فى موطن آخر ، وتضعضع قسطنطين ، فقد خلصت إليه الجراح ، ودب إليه الوهن فلم يستطع كثير صبر ، فولى الأدبار ، وبقى الأسطول الظافر فى ذات الصوارى أياما .

واجتمع محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة هناك ، وأخذ الناس يعجبون منهما ، فقد عابا عبدالله بن أبى سرح ، ولكن ماإن وقعت الواقعة ونشب القتال حتى كانا أنكل المسلمين قتالا ، فسألوهما عن ذلك فقالا :

ـ كيف نقاتل مع رجل لا ينبغى لنا أن نحكمه ؟

وقال محمد بن أبى حذيفة :

ـ أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقا .

ـ وأى جهاد ؟

ـ عثمان بن عفان .

الفصل الثانى والعشرون

قتيل الدار

استمر ابن سبأ ينفث سمومه فى مصر ، وطفق يحرض الناس على الطعن على أمرائهم ، وأمر أتباعه أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يستميلوا الناس ، وجعل يكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه ، فاستمرت خيوط التآمر على عثمان تحاك فى الظلام ، حتى إذا ما أخذت بخناقه ، بانت ووضحت وظهرت للعيان . وعاد محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة من غزوة ذات الصوارى إلى مصر وقد أفسدا الناس ، واستأنفا نشاطهما فشدا من أزر دعوة ابن سبأ ، ونجحوا جميعاً فى استمالة خلق كثير من المصريين ، ومما زاد الطين بلة أن عبد الله ابن أبى سرح قد ضرب بعض الذين أتوا إليه من المصريين ، فحنق أهل مصر عليه ، وانضموا إلى الساخطين وقد صمموا على الخروج إلى إمامهم فى المدينة .

خرج المصريون وقد أظهروا أنهم يريدون العمرة ، وخرج محمد بن أبى بكر معهم ، وشيعهم محمد بن أبى حذيفة إلى عجرود ثم قفل راجعا ، فكان إذا سئل عمن خرج كان يقول : خرج القوم للعمرة ، ولكنه جعل يقول فى السر : خرج القوم إلى إمامهم فإن نزع وإلا قتلوه .

وأوفد عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان رسولا ينبئه نبأ القوم ، فأطرق عثمان ثم التفت إلى من عنده وقال :

ــ هؤلاء قوم من أهل مصر يريدون بزعمهم العمرة ، والله ماأراهم يريدونها ، ولكن الناس قد دخل بهم ، وأسرعوا إلى الفتنة ، وطال عليهم عمرى ، أما والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة مما يرون من الدماء المسفوكة والإحن ، والأثرة الظاهرة والأحكام المغيرة .

ونزل المصريون ذا خشب ، وذاع فى المدينة أنهم ما جاءوا إلا لقتل أمير

المؤمنين ، ثم دخل كبار الصحابة على عثمان وقالوا له إن وفد مصر يطلب عزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وأرسلت عائشة أم المؤمنين إليه . « تقدم إليك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك » ورأى عثمان أن لامناص من استجابة رغبة المصريين فبعث إليهم وقال لهم :

— اختاروا رجلا عليكم مكانه .

فاختار الناس محمد بن أبي بكر ، فكتب عثمان عهده له وولاه . وراح محمد يتأهب للخروج إلى مصر ، فلما تم كل شيء ، خرج ومعه عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وابن أبي سرح ، وانطلق الركب ، وترك مدينة الرسول وانقضت ثلاثة أيام ، ولمح الناس غلاما أسود على بعير يخبطه خبطا ، فانتظروه لعله يقصدهم لحاجة ، ولكنه لما حاذاهم لم يتمهل ولم ينتظر بل استمر يغذ في السير ، فارتابوا في أمره وبعثوا من يطلبه لجيء به فسألوه :

— ما قضيتك وما شأنك ؟ أهارب أم طالب أحدا .

— لا هذا ولا ذاك ، وإنما أنا غلام أمير المومنين وجهني إلى عامله في مصر .

فأشار رجل إلى محمد بن أبي بكر وقال :

— هذا عامل مصر

— ليس هذا أريد

وشاء الغلام أن يستأنف سيره ، ولكن محمد بن أبي بكر قبض عليه وقال :

— غلام من أنت ؟

— غلام أمير المومنين .

فنظر إليه محمد نظرة فاحصة وهزه وقال :

— حقا ؟

— بل غلام مروان .

واقترب رجل وتفرس فى وجهه وقال .

— إنه غلام أمير المؤمنين .

فقال له محمد :

— إلى من أرسلت ؟

— إلى عامل مصر .

— بماذا ؟

— برسالة

— معك كتاب ؟

— لا .

فالتفت محمد إلى من حوله وقال :

— فتشوه .

ففتشوه فلم يجدوا معه شيئا ، وكادوا يطلقون سراحه ، ولكنهم وجدوا معه أداوة قد يبست ، فيها شىء يتقلقل ، فحركوه ليخرج فلم يخرج ، فشقوا الأداوة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى بن أبى سرح ، فجمع محمد من كان عنده من المهاجرين والأنصار وغيرهم ثم فك الكتاب بمحضر منهم ، وراح يقرأه فتغيرت هيأته ، وبان الغضب فى وجهه ، فإنه ليأمر عبد الله بن أبى سرح بقتله وقتل أصحابه ، فقفل محمد عائدا إلى المدينة وقد بيت العزم على قتل عثمان الذى أهدر دمه بلا مبرر .

ختم محمد الكتاب بخواتيم نفر كانوا معه ، ثم عاد إلى المدينة وجمع طلحة والزبير وعليا وسعدا ، ثم فض الكتاب بمحضر منهم وقرأه عليهم ، فدخل علىّ على عثمان ودخل نفر من المصريين فما سلموا عليه بالخلافة ثم قالوا :

— رحلنا من مصر ونحن لانريد إلا دمك أو تنزع فردنا على ومحمد بن مسلمة ، ثم رجعنا إلى بلادنا حتى إذا كنا بالبويب أخذنا غلامك فأخذنا كتابك وخاتمك إلى عبد الله بن سعد تأمره فيه بجلد ظهورنا فقال عثمان :

— والله ما كتبت ولا أمرت ولا شوورت ولا علمت .

فقال على :

— قد صدق .

فارتاح إليها عثمان وقال المصريون :

— فالكتاب كتابك ؟

— أجل . ولكنه كتب بغير أمرى .

— فإن الرسول الذى وجدنا معه الكتاب غلامك ؟

— أجل ، ولكنه بغير أذنى .

— فالجمل جملك ؟

— أجل ولكنه أخذ بغير علمى .

— ما أنت إلا صادق أو كاذب ، فإن كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقها ، وإن كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع لضعفك وغفلتك وخبث بطانتك ، لأنه لاينبغى لنا أن نترك على رقابنا من يقتطع مثل هذا الأمر دونه لضعفه وغفلته . فاردد خلافتنا ، واعتزل أمرنا ، فإن ذلك أسلم لنا منك ، وأسلم لك منا .

فقال عثمان :

— فرغتم من كل ماتريدون ؟

— نعم .

— الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده رسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أما بعد فإنكم لم تعدلوا فى المنطق ، ولم تنصفوا فى القضاء ؛ أما قولكم تخلع نفسك فلا أنزع قميصا قمصنيه الله عز وجل وأكرمنى به ، وخصنى به على غيرى ، ولكن أتوب وأنزع ولا أعود لشىء عابه المسلمون ، فإنى والله الفقير إلى الله الخائف منه .

— إن هذا لوكان أول حدث أحدثته ثم تبت منه ولم تقم عليه لكان علينا أن نقبل منك ، وأن ننصرف عنك ، ولكنه قدكان منك الأحداث قبل هذا لما قد علمت ، وقد انصرفنا عنك فى المرة الأولى ولا تخشى أن تكتب فينا ، ولا من اعتللت به بما وجدنا فى كتابك مع غلامك ، وكيف نقبل توبتك وقدبلونا منك أن لا تعطى من نفسك التوبة من ذنب إلا عدت إليه ، فلسنا منصرفين حتى نعزلك ونستبدل بك ، فإن حال من معك من قومك وذوى رحمك وأهل الانقطاع إليك دونك بقتال قاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك ، أو تلحق أروحنا بالله .

— أما أن أتبرأ من الإمارة ، فإن تصلبونى أحب إلى من أن أتبرأ من أمر الله عز وجل وخلافته ، وأما قولكم تقاتلون من قاتل دونى ، فإنى لا آمر أحدا بقتالكم ، فمن قاتل دونى فإنما قاتل بغير أمرى ، ولعمرى لوكنت أريد قتالكم لقد كنت كتبت الى الأجناد ، فقادوا الجنود ، وبعثوا الرجال ، أو لحقت ببعض أطرافى بمصر أو عراق ، فالله الله فى أنفسكم ، فابقوا عليها إن لم تبقوا على ، فإنكم مجتلبون بهذا الأمر دما .

وانصرف المصريون عن عثمان وقد آذنوه بالحرب .

وحوصر عثمان ، وقدحصره المصريون واشترك محمد بن أبى بكر معهم ، وأرسل على ولديه الحسن والحسين ليقوما على باب عثمان وأرسل الزبير ابنه عبد الله ليذب عنه ، وانضم إليهم بنو أمية ، واستمر الحصار وانضم محمد بن جعفر إلى محمد ابن أبى بكر ، وقد حاول كبار الصحابة أن يفتلوا المحاصرين عن عزمهم ، ولكنهم باءوا بالفشل . انفلت الأمر من أيديهم ، وأصبح الأمر أمر الثوار ، فلزم أهل المدينة دورهم ، وبعثت ليلى ابنة عميس إلى محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر ، فلما دخلا عليها قالت لهما :

— إن المصباح يأكل نفسه ، ويضىء للناس ، فلا تأثما فى أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما ، فإن الأمر الذى تحاولون اليوم لغيركم غدا . فاتقوا أن يكون عملكم اليوم حسرة عليكم فلجا .

— لاننسى ماصنع بنا عثمان .

— ماصنع بكما إلا ألزمكما حدود الله .

وخرجا مغضبين ، وانطلقا إلى دار عثمان ، وحاول الثوار اقتحام الباب فبرز لهم الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة . واجتلد الفريقان وراح ابن الزبير يذب عن الباب وخلصت إليه الجراح ، واقترب محمد بن أبي بكر من ابن الزبير ومروان وأخذ يتوعدهما ويسبهما ، ونادى عثمان من يذبون عنه :

— الله الله أنتم فى حل من نصرتى .

فأبوا واستمروا فى القتال ، ففتح عثمان الباب وخرج ومعه السيف لينههم ، فلما رأى المصريون عثمان ثبتوا فى مكانهم قليلا ثم أدبروا فزعين ، فأقسم عثمان على الصحابة ليدخلن . فأبوا أن ينصرفوا فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين .

وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة . فقد نال الناس من عثمان ومنعوا عنه الماء ، فأرسل إليها وإلى على والزبير وطلحة يقول : « إنهم قد منعونا الماء ، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا » فجاء على فى الغلس ، فقال : يأيها الناس إن الذى تفعلونه لايشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لاتقطعوا عن هذا الرجل الماء ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسق ، وما تعرض لكم هذا الرجل . فيم تستحلون حصره وقتله ؟ ! .

فقال الثوار : « لا والله ، ولا نعمة عين لانتركه يأكل ولا يشرب » فرمى بعمامته فى الدار بأنى قد نهضت فيما أنهضتنى ، ورجع على وأقبلت أم حبيبة أم المؤمنين . فضربوا وجه بغلتها ، وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة ، فتلقاها الناس وقد مالت برحالتها ، فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل ، فأحجمت عائشة عن الانطلاق إلى عثمان خشية أن ينالها مانال أم حبيبة . وتجهزت للحج لتهرب من حضور مقتل أمير المؤمنين ، وقبل أن تنطلق بعثت إلى أخيها محمد ابن أبى بكر تستتبعه فأبى . وكيف يخرج معها ولم يبق على أن ينال بغيته إلا أن

يقتحم باب الدار ، وأقبل رجل إلى محمد وقال له :

ــ يا محمد ، تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعها ، وتدعوك ذؤبان العرب إلى مالايحل فتتبعهم .

ــ ما أنت وذلك يابن التميمية ؟

ــ يابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبتك عليه بنو عبد مناف .

وانصرف الرجل ، وأقبل طلحة بن عبيد الله وقال :

ــ اين ابن عديس ؟

فقيل له :

ــ هاهو ذا .

فأتى طلحة ابن عديس زعيم الثوار فناجاه بشيء ، ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه :

ــ لاتتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل ، ولا يخرج من عنده

وبلغ الصوت عثمان فقال :

ــ هذا ما أمر به طلحة .

ثم أطرق قليلا ، ثم رفع رأسه وقال :

ــ اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله ، فإنه حمل على هؤلاء وألبهم . والله إني لارجو أن يكون منها صفرا ، وأن يسفك دمه ، إن انتهك مني مالايحل له .

وفتح باب دارعثمان وأراد ابن عباس أن يخرج فمنعوه ، ومر به محمد بن أبي بكر ، فالتفت الى الثوار وقال :

ــ خلوه

فتركوه ، ولم يك عند الباب أحد فقد دخل الصحابة ووقفوا خلفه ، فجاء الثوار بنار وأحرقوا الباب والسقيفة ، فتأجج الباب والسقيفة ، وأخذ الخشب فى الاحتراق ، ووقف أمام الباب عبدالله بن سلام وراح يصيح فى الناس :

— ياقوم ، لاتسلوا سيف الله عليكم ، فوالله إن سللتموه لاتغمدوه ، ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة ، فإن قتلتموه لايقوم إلا بالسيف . ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله ، والله لئن قتلتموه لتتركنها .

فارتفعت أصوات الثوار :

— يابن اليهودية ، وما أنت وهذا .

ورأى ابن سلام عزم القوم ، فرجع عنهم وقد أطرق أسفا . وأكلت النار الخشب . فخرت السقيفة على الباب فثار أهل الدار ، واستمر عثمان فى صلاته وكأنما الخطر المحدق به لايعنيه ، وبرز الحسن للقتال وراح يرتجز .

لادينهم دينى ولا أنا منهم   حتى أسير إلى طمار شمام

واستمر عبدالله بن الزبير مع عثمان ، وعثمان يقرأ فى صلاته : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » واستمر فى قراءته هادىء النفس مايخطىء وما يتتعتع . وأتم صلاته ثم التفت إلى ابن الزبير وأمره أن يأتى أهل الدار فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم ، فخرج عبدالله من عنده ، وكان آخر من خرج ، واستمر القتال على باب عثمان ، وجرح الحسن ، وخشى محمد بن أبى بكر أن تثور قريش للحسن ، فتسور محمد وصاحباه من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان ، ولا يعلم أحد ممن كانوا بالباب .

صرخت نائلة زوج عثمان :

— قد قتل أمير المؤمنين .

وبلغ الصوت آذان المدافعين عن الباب . فأسرعوا بالدخول ، فوجدوا عثمان مقتولا ، فبكوا ، وذاع النبأ ألا إن أمير المؤمنين قد قتل ، فأقبل على ودخل الدار وهو كالواله الحزين ، والتفت إلى ولديه وقال فى غضب :

— كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟

وثار على فلطم الحسن وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ولعن عبدالله بن الزبير . فقال له ابن طلحة :

ـــ لاتضرب ياأبا الحسن ولا تشتم ، ولا تلعن ، ولو دفع مروان ماقتل .

ودخل على على زوجة عثمان وقال لها :

ـــ من قتله وأنت كنت معه ؟

فقالت :

ـــ دخل عليه محمد بن أبى بكر وهو يقرأ فى المصحف ، فأخذ بلحيته فقال : يا محمد ، والله لو رآك أبوك لساءه مكانك ، فتراخت يد محمد ، وخرج عنه وهو مطأطىء الرأس ، ثم دخل رجلان عليه فوجداه فقتلاه .

فقال محمد بن أبى بكر :

ـــ والله لقد دخلت عليه ، وأنا أريد قتله . فلما خاطبنى بما قال خرجت وأنا لا أعلم بتخلف الرجلين عنى ، والله ماكان لى فى قتـــله سبب ، وقد قتل وأنا لا أعلم بقتله .

وقتل عثمان فابتدأت الفتن تفد كالموج تجر بعضها بعضا .

الفصل الثالث والعشرون

دم عثمان

خرجت عائشة للحج وخرج معها أخوها عبد الرحمن ، وخرج بعدها عبد الله ابن عباس على الموسم بأمر عثمان ، وقتل عثمان بعد يومين من خروج ابن عباس ، فتعجل أناس وأدركوا ابن عباس ، وهرب مروان وبنو أميـــة ليلحقوا بمكة ، وتساقط الهراب على مكة وعائشة مقيمة بها تريد عمرة المحرم ، فلما تساقط إليها الهراب استخبرت رجلا يقال له أخضر فقالت :

— ماصنع الناس ؟

— قتل عثمان المصريين .

— إنا لله وإنا اليه راجعون ، أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق . وينكرون الظلم ، والله لانرضى بهذا .

وبقيت عائشة وقدم آخر فسألته .

— ماصنع الناس ؟

— قتل المصريون عثمان .

— العجب لأخضر زعم أن المقتول هو القاتل ، ومن أمير القوم ؟

— لم يجبهم الى التأمير أحد .

— أكيس هذا غب ماكان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح ؟

وتلقت عائشة نبأ مقتل عثمان فلم تثر ، ولم تطالب بدمه ، بل بقيت فى مكة حتى إذا ما أتمت حجها ، وقفلت عائدة الى المدينة لقيها عند سرف رجل من أخوالها من بنى ليث فقالت :

— ماوراءك ؟

فصمت ولم يحر جوابا .

ـــ ويحك علينا أو لنا ؟

ـــ لا أدرى ؛ قتل عثمان وبقوا ثمانيا .

ـــ ثم صنعوا ماذا ؟

ـــ أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الامور إلى خـــير مجاز ، اجتمعوا على على بن أبى طالب .

فما إن صك اسم على أذن عائشة حتى اكفهر وجهها ، وتحركت عوامل الغيظ فى صدرها ، ولم تستطع كبح جماح نفسها بل قالت :

ـــ والله ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الامر لصاحبك ، ردونى ردونى . قتل والله عثمان مظلوما ، والله لاطلبن بدمه .

ـــ ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لانت ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر .

ـــ إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الاول .

وانصرفت عائشة إلى مكة وقد عزمت على تأليب القوم على أمير المؤمنين على ، وبلغت باب المسجد وهى لا تقول شيئا ، ولا يخرج منها شيء ، ثم قصدت للحجر فاستمرت فيه ، وبلغ القوم عودة أم المؤمنين فأسرعوا إلى المسجد ليروا ما الخبر ، فلما التج المسجد بالناس ، قالت عائشة فى نبرات أخاذه :

ـــ يأيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الامصار ، وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالامس الارب ، واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم ، وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خلجوا ، وبادوا بالعدوان ، ونبا فعلهم عن قولهم ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام ، والله لإصبع عثمان خير من طباق الارض أمثالهم . فنجاة من اجتماعكم

عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم ، ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء .

إن عثمان قتل مظلوما ، وإن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام .

وابتدأت الفتنة التى أيقظتها بنت أبى قحافة تتحرك وتزحف لتنطلق إلى أبعد مما قدرت بنت الصديق . ترى لو كانت عائشة تعلم مدى انطلاق فتنتها أكانت تقدم على إيقاظها ؟ ! ولكن هذا ما كان مقدرا فى سجل القدر . مكتوبا منذ الأزل .

وقام عبد الله بن عامر الحضرمى . وكان عامل عثمان على مكة ، ليجيب أم المؤمنين فقال :

— هأنذا لها أول طالب .

وابتدأ الناس يتجمعون فى مكة حول عائشة ليناوئوا عليا ، وليطالبوا بدم عثمان ، وقدم عبد الله بن عامر من البصرة . ويعلى بن أمية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، فأناخ بالأبطح معسكرا ، وقدم طلحة والزبير فلقيا عائشة فقالت لهما :

— ما وراءكما ؟

— وراءنا أنا تحملنا بقليتنا هرابا من المدينة من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوما حيارى ، لايعرفون حقا ولا ينكرون باطلا ، ولا يمنعون أنفسهم .

— فائتمروا أمرا ، ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء .

ودخلت عائشة دارها . واجتمع عندها الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن أبى بكر ومروان وعبد الله بن الزبير وبنو أميه ووجوه القوم ، وأخذوا يتشاورون فى الأمر فقال القوم فيما ائتمروا به :

— نلحق بالشام .

فقال عبد الله بن عامر .

ـ قد كفاكم الشام من يستمر فى حوزته .

فقال له طلحة والزبير :

ـ فأين ؟

ـ البصرة ، فإن لى فيها صنائع ، ولهم فى طلحة هوى .

ـ قبحك الله ، فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكتفى بك ، ونأتى الكوفة فنسر على هؤلاء القوم المذاهب .

فأطرق عبد الله بن عامر وقال بعض القوم :

ـ نسير إلى على فنقاتله .

ـ ليس لكم طاقة بأهل المدينة .

واستمروا يديرون قداح الرأى بينهم حتى استقر رأيهم على الخروج إلى البصرة ، وقالوا لأم المؤمنين :

ـ يا أم المؤمنين ، دعى المدينة . فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التى بها ، واشخصى معنا إلى البصرة ، فإنا نأتى بلدا مضيعا ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة على بن أبى طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة ، ثم تقعدين ، فإن أصلح الله الأمر كان الذى تريدين وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد .

فوافقت عائشة وكان أزواج النبى معها على قصد المدينة ، فلما تحول رأيها إلى البصرة تركن ذلك ، وانطلق القوم بعدها إلى حفصة يسألونها ، فقالت :

ـ رأيى تبع لرأى عائشة .

وانطلق القوم يبحثون عن جمل شديد ، يحملون عليه أم المؤمنين ، ورأى يعلى جملا قويا فاتجه إلى صاحبه وقال :

ـ ياصاحب الجمل ، تبيع جملك ؟

ـ نعم .

ـ بكم ؟

— بألف درهم .

— مجنون أنت ، جمل يباع بألف درهم ؟! .

— نعم ، جملي هذا .

— ومم ذلك ؟

— ما طلبت عليه أحدا قط إلا أدركته ، ولا طلبني وأنا عليه أحد قط إلا فته .

— لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا .

— ولمن تريده ؟

— لأمك .

— لقد تركت امى فى بيتها قاعدة لاتريد براحا .

— إنما أريده لأم المؤمنين عائشة .

— فهو لك ، فخذه بغير ثمن .

— لا . ولكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهرية ونزيدك دراهم .

ورجع صاحب الجمل مع الرجل إلى الرحل ليأخذ ناقة عائشة وستمائة درهم .
ولم يبق إلا الخروج ، فدخلت عائشة هودجها وحمل الهودج ووضع فوق الجمل ، ونادى المنادى :

— إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثأر عثمان ، ولم يكن عنده مركب ، ولم يكن عنده جهاز . فهذا جهاز وهذه نفقة .

وأرادت حفصة الخروج ، فأتاها عبدالله بن عمر ، فطلب إليها أن تقعد فقعدت ، وبعثت إلى عائشه .

— إن عبد الله حال بيني وبين الخروج .

فقالت عائشة :

— يغفر الله لعبد الله .

ورأت أم الفضل ما يبيت لعلى أمير المؤمنين ، فلم تستطع صبرا بل كتبت له كتابا ، واستأجرت رجلا من جهينة على أن يطوى ويأتى عليا بكتابها ، فانطلق الرجل ينهب الأرض ليبلغ أمير المؤمنين نبأ المتآمرين .

وجمع الزبير بنيه قبل الرحيل ليودع بعضهم ، فأخرج عروة ومنذر وعبدالله أبناء أسماء جميعاً ، وقال للآخرين : ياعمرو أقم ، يافلان أقم ، فلما رأى عبد الله ابن الزبير ذلك التفت إلى أخويه وقال :

— ياعروة أقم . يامنذر أقم .

فنظر الزبير إلى عبد الله وقال :

— ويحك ، أستصحب ابنى وأستمتع منهما .

— إن خرجت بهم جميعاً فاخرج ، وإن خلفت منهم أحدا فخلفهما ، ولا تعرض أسماء للثكل من بين نسائك .

فتركهما الزبير وضمهما إلى صدره قبل أن ينطلق وقد غامت عيناه بالدموع ، ترى هل كان يحس أن هذا هو اللقاء الأخير !

وابتدأ الرحيل ، فسحت العيون ، وجرت الدموع وارتفع النحيب والنشيج ، فما من خارج للقتال إلا وقد بكى ، وما من شاهد للخروج إلا ودمعه منهمر ، وحزنه ثقيل ، فإنه ليرى خروج المسلمين لقتال المسلمين ، فلم ير يوم كان أكثر باكيا على الإسلام أو باكيا له من ذلك اليوم ، يوم النحيب .

* * *

خرج الركب ، وكان عبد الله بن الزبير يلتفت إلى البيت العتيق بين لحظة وأخرى ، إنه ليحس روحه قد شدت إليه ، وقبل أن يغيب البيت عنه قال :

— ما رأيت مثلك بركة طالب خير ، ولا هارب من شر .

واستمر القوم فى السير حتى قابلهم سعيد بن العاص ، خلا سعيد بطلحة والزبير وقال لهما :

ــ إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر ، أصدقاني .

ــ لأحدنا أينما اختاره الناس .

ــ بل اجعلوه لولد عثمان ، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه .

فقالا فى استنكار :

ــ ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ؟

ورجع سعيد ولم يشأ أن ينضم إليهم ، فلما رأى المغيرة ذلك قال :

ــ الرأى ما رأى سعيد ، من كان ههنا من ثقيف فليرجع .

واستأنف الركب سيره . وامتطى طلحة ناقته الحمراء وانطلق ليطالب بدم عثمان الذى كان يحاصره بنفسه ووثب القوم عليه . وحان أوان الصلاة ، فأذن مروان ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير وقال :

ــ أيكما أسلم بالأمر وأوذن بالصلاة ؟

فقال عبد الله بن الزبير :

ــ على أبى عبد الله .

وقال محمد بن طلحة .

ــ بل على أبى طلحة .

وكاد الشقاق يقع لولا أن تداركت عائشة الأمر فأرسلت إلى مروان :

ــ مالك ، أتريد أن تفرق أمرنا ، فليصل ابن أختى .

فصلى عبد الله بن الزبير بالناس ، وابتدأ يحس خطره ، فراحت أفكار الزعامة تحتل فكره ، وتتخايل له من آن لآن . ترى ما يكون الأمر أيخلى الزبير بن طلحة والأمر ، أم يخلى طلحة بين الزبير والأمر ؟ .

وأستأنف القوم رحيلهم ، وكانوا كلما مروا على ماء أو واد سألوا الدليل عنه حتى طرقوا ماء . فأخذت الكلاب تنبح ، وسألوا الدليــــل :

ــ أى ماء هذا ؟

ــ ماء الحوأب .

فعادت الذكرى بعائشة القهقرى ، فتذكرت يوم قال النبى لنسائه « ليت شعرى أيتكن التى تنبحها كلاب الحوأب » ، ففزعت وصرخت بأعلى صوتها :

— أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقا ردونى ، ردونى ، أنا صاحبة كلاب الحوأب ردونى . . ردونى .

وضربت عضد بعيرها فأناخته . فأناخ الناس حولها وانقضى يوم وعائشة لاتبرح مكانها ، ولا تثنى عن عزمها ، بل تطالب منهم أن يردوها . وانقضى الليل . وقبل أن تشرق الشمس كان عبد الله بن الزبير قد فكر ودبر ، فجاء أم المؤمنين وهو يصيح :

— النجاة . . النجاة ، فقد أدرككم والله على بن أبى طالب .

فارتحل القوم ، وانطلقت عائشة بنت الصديق ، وعبد الرحمن بن الصديق والزبير زوج أسماء ، وطلحة زوج أم كلثوم ، وعبد الله حفيد الصديق إلى البصرة لمناوأة على ، ولم يكن فى معسكر على من أبناء أبى بكر إلا محمد ، انطلق القوم إلى الغيب المجهول ، انطلقوا وما دار بخلدهم أنهم جميعاً سيخرجون منها صفر اليدين ، وأنهم سيقتلون ويقتلون . لينالها غيرهم ، ولكن ذلك كان فى سجل القدر مكتوبا .

الفصل الرابع والعشرون

فى البصرة

بلغت أم المؤمنين البصرة ، وقابلت وجوه القوم ، فما درى عثمان بن حنيف عامل على على البصرة مايفعل ، أيقاتل القوم ، ولكن لعل ذلك لايوافق أمير المؤمنين ، أم يسالمهم حتى يصل الإمام فيعالج الأمر بما يحلو له ؟ وأخيراً قر رأيه على أن يبعث إلى أم المؤمنين عمران بن حصين ، وكان رجل عامة ، وأبى الأسود الدؤلى وكان رجل خاصة ليعلما له علمها وعلم من معها . فانطلقا حتى انتهيا إلى أم المؤمنين وكانت بالحفير والناس عندها . فاستأذنا فأذنت لهما فسلما وقالا :

— إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟

— والله مامثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر . إن الغوغاء من أهل الأمصار ، ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله . مع مانالوا من قتل إمام المؤمنين بلا ترة وعذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام ،وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام . ومزقوا الأعراض . وأقاموا فى دار كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين ، غير نافعين ولا متقين ، لايقدرون على امتناع ولا يأمنون ، فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيـــه الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا .

وخرجا من عند عائشة وانطلقا الى طلحة فقالا :

— ما أقدمك ؟

— الطلب بدم عثمان رضى الله عنه .

— ألم تبايع علياً ؟

— بلى . واللج على عنقى ، وما أستقبل علياً إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان

وقابلا الزبير ثم انطلقا إلى عائشة ليودعاها ، فودعت عمران والتفتت إلى أبى الأسود وقالت :

ـ يا أبا الأسود ، إياك أن يقودك الهوى إلى النار ، «كونوا قوامين لله شهداء بالقسط» .

وخرج الرجلان وقد تبلبلت أفكارهما ، فما يفعلان أينضمان إلى عائشة فيقاتلان أمير المؤمنين وابن عم الرسول ، أم ينضمان إلى على فيقاتلان زوجة الرسول وحوارى الرسول ، ومن ذب عن الرسول يوم أحد حتى أصيبت يده . والله إنها لحيرة كبرى ، وفكر عمران أن يعتزل ، وكان هوى أبى الأسود مع على فلما دخلا على عثمان بن حنيف قال أبو الأسود :

يا بن حنيف قد أتيت فانفر   وطاعن القوم وجالد واصبر

وابرز لهم مستلئما وشمر

فأطرق عثمان قليلا ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ، دارت رحى الإسلام ورب الكعبة ، فانظروا بأى زيفان تزيف .

فقال عمران فى أسى :

ـ إى والله لتعركنكم عركا طويلا ثم لا يساوى ما بقى منكم شىء .

فالتفت عثمان إلى عمران وقال :

ـ فأشر على يا عمران .

ـ إنى قاعد فاقعد .

ولكن عثمان تذكر أنه عامل على فقال :

ـ بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين .

ـ بل يحكم الله ما يريد .

وانصرف عمران إلى بيته ليعتزل الفتنة ، وهب عثمان بن حنيف ليتهيأ لقتال الذين وفدوا على البصرة ليؤلبوا القوم على أمير المؤمنين ، ورأى هشام بن عامر

عزم ابن حنيف ، فدخل عليه وقال :

— يا عثمان إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره ، إن هذا فتق لا يرتق ، وصدع لا يجبر فسامحهم حتى يأتى أمر على ، ولاتحادهم .

— لا .

ونادى عثمان فى الناس ، وأمرهم بالتهيؤ ، ولبسوا السلاح ، وانطلق القوم إلى المسجد الجامع ، ودس عثمان خطيباً لينفر الناس عن أم المؤمنين ومن معها ، فلما دخل الناس الجامع قام الخطيب وقال :

— أنا قيس بن العقدية الحميسى ، إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم إن كانوا جاءوا خائفين ، فإنهم جاءوا من المكان الذى يأمن فيه الطير ، وإن كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان رضى الله عنه فما نحن بقتلة عثمان ، أطيعونى فى هؤلاء القوم ، فردوهم من حيث جاءوا .

فأثلج قوله صدر عثمان بن حنيف ، فقد بان الرضا فى وجوه القوم ، ولكن ما كاد خطيب عثمان يصمت ، حتى هب آخر وقال :

— أو زعموا أنا قتلة عثمان رضى الله عنه ؟ ! فإنما فزعوا إلينا يستعينوا بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا ، فإن كان القوم أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم من إخراجهم الرجال أو البلدان .

وأقبلت عائشة ومن معها حتى انتهوا الى المربد فوقفوا هناك ، وخرج عثمان فيمن معه ، وانطلق إلى عائشة من شاء أن ينضم إليها من أهل البصرة ، ثم تكلم طلحة فالزبير ، ثم قامت عائشة فأرهف الجميع السمع ، وما ابتدأت حتى استولت على الأفئدة ، فقد كانت جهورية الصوت ، ساحرة الإلقاء ، فما انتهت من قولها حتى افترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين ، فرقة ثبتت مع ابن حنيف وفرقة انضمت إلى أم المؤمنين ، وتقدم جارية بن قدامة السعدى إلى عائشة وقال :

— يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، إنه كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك ، وأبحت حرمتك . إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك . إن كنت أتيتنا

ظائمة فارجعى إلى بيتك ، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس .

فلم تأبه عائشة له ، وخرج غلام إلى طلحة والزبير وقال :

— أما أنت يازبير فحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما أنت ياطلحة فوقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدك ، وأرى أمكما معكما ، فهل جئتما بنسائكما ؟

— لا . .

— فما أنا منكما فى شىء .

واعتزل وقال :

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم   هذا لعمرك قلة الإنصاف

وأقبل غلام على محمد بن طلحة يسأله .

— أخبرنى عن قتلة عثمان

فالتفت محمد بن طلحة إليه ، وكان محمد رجلا تقياً ، وقال :

— نعم . دم عثمان ثلاثة أثلاث ، ثلث على صاحبة الهودج ، وثلث على صاحب الجمل الأحمر (طلحة) وثلث على على بن أبى طالب .

فضحك الغلام وقال :

— ألا أرانى على ضلال .

ولحق بعلى .

واقتتل أنصار أم المؤمنين وأنصار على ، وانتصر أنصار عائشة أخيراً واستتب الأمر لهم فى البصرة ، وقام الزبير ليتكلم فأظهر عيب على ، فقام إليه رجل من عبد القيس فقال :

— أيها الرجل أنصت حتى نتكلم .

فقال عبد الله بن الزبير :

— ومالك وللكلام ؟

— يامعشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس فى الإسلام ، كما دخلتم فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلا منكم ، والله ما استأمرتمونا فى شيء من ذلك ، فرضينا واتبعناكم ، فجعل الله عز وجل للمسلمين فى إمارته بركة ، ثم مات رضى الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم ، فلم تشاورونا فى ذلك فرضينا وسلمنا ، فلما توفى الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً عن غير مشورة ، فما الذى نقمتم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بفيء أو عمل بغير الحق أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه ، وإلا فما هذا ؟

فضاق صدر القوم وثارت ثائرتهم وهموا بقتل الرجل ، ولكن قام من دونه عشيرته ، فصبر القوم وقد عزموا على أمر . وانقضى اليوم فلم يستطيعوا أن ينسوا ذلك الرجل الذى أفحمهم . وبزغت شمس اليوم الثانى ، فخرجوا لقتله ولكنهم وجدوا أناساً معه ، فهجموا على الرجل فقتلوه وقتلوا معه سبعين رجلا .

واختلفوا فى الصلاة فأمرت عائشة عبدالله بن الزبير فصلى بالناس . لقد كانت عائشة تخصه بالخير فكانت تدعوه ابنها ، وتحبه كل الحب ؛ ترى هل كانت تطمع فى أن تنادى به أميراً للمؤمنين ؟ وأصبح بيت المال فى أيدى أنصار عائشة ، فشاء الزبير أن يعطى الناس أرزاقهم ، وتقسيم مافى بيت المال ، فالتفت إليه ابنه عبد الله وقال :

— إن ارتزق الناس تفرقوا .

وأخذوا يفكرون فيمن يصيرونه على بيت المال ، فاصطلحوا على عبد الرحمن ابن أبى بكر ، فولى بيت المال .

الفصل الخامس والعشرون

فى الكوفة

خرج محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن جعفر من الربذة ، وانطلقا برسالة على إلى الكوفة ، وأغذا فى السير حتى دخلا على الناس ، فقام محمد بن أبى بكر فى المسجد يقرأ كتاب أمير المؤمنين .

ـ إنى اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصاراً ، وأيدونا وانهضوا إلينا ، فالإصلاح ماتريد لتعود الأمة إخوانا ، ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره ، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه .

ونزل محمد عن المنبر وراح يحادث وجوه القوم ، وراح محمد بن جعفر يزين للناس الخروج ، ويطلب منهم أن ينفروا إلى على ، ولكن الناس لم يجيبوهما إلى شىء ، فلما جاء المساء دخل ناس على أبى موسى الأشعرى عامل الكوفة وقالوا له :

ـ ماترى فى الخروج ؟

فقال :

ـ كان الرأى بالأمس ليس باليوم ، إن الذى تهاونتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ماترون ، وما بقى إنما هما أمران ، القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا فاختاروا .

وبلغ محمد بن أبى بكر أن أبا موسى يثبط الناس عنهم ، فثار ودخل ومحمد بن جعفر عليه ، وأغلظا له فى القول ، فقال :

ـ والله إن بيعة عثمان رضى الله عنه لفى عنقى وعنق صاحبكما ، فإن لم يكن بد من قتال ، لانقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا . وفشلا فى سفارتهما فلم ينفر أحد لنصرة على ، فعادا ليبلغا أمير المؤمنين مافعل أبو موسى ، فوافياه

بذى قار ، فأوفد الأشتر وابن عباس إلى الكوفة ليكلما أبا موسى ، فاستمر أبو موسى يكفكف الناس عن على ، فعاد ابن عباس بالخبر ، فدعا أمير المؤمنين ابنه الحسن فأرسله وأرسل معه عمار بن ياسر ، وبلغ أبا موسى وصول الحسن فخرج لاستقباله ، فلما لقيه ضمه إليه وانطلقوا إلى المسجد ، وأقبل أبو موسى على عمار فقال :

ــ يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين ، فأحللت نفسك مع الفجار .

ــ لم أفعل ، ولم تسوءنى ؟

وكاد الحديث بينهما يشتد ولكن الحسن قطعه عليهما ، فأقبل على أبى موسى وقال :

ــ يا أبا موسى ، لم تثبط الناس عنا ، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شىء .

ــ صدقت بأبى أنت وأمى ، ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب ، وقد جعلنا الله عز وجل إخوانا ، وحرم الله علينا أموالنا ودماءنا .

فظهر الغضب فى وجه عمار فقام وقال :

ــ يأيها الناس ، إنما قال له خاصة ، أنت فيها قاعداً خير منك قائماً .

فارتفع صوت من المسجد :

ــ اسكت أيها العبد ، أنت أمس مع الغوغاء ، واليوم تسافه أميرنا .

فثار أناس لعمار ، وثار أناس ضده ، فجعل أبو موسى يكفكف الناس ، ثم انطلق حتى أتى المنبر ، وهدأ القوم وأقبل رسول عائشة إلى أهل الكوفة على حمار ، فوقف بباب المسجد ، وترجل وربط حماره ثم انطلق إلى المنبر ليقرأ على الناس كتاب أم المؤمنين :

ــ أما بعد فثبطوا أيها الناس ، واجلسوا فى بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

واستمر فى قراءته ، حتى إذا ما انتهى قال :

— أُمِرَت بأمر ، وأمرنا بأمر : أمرت أن تقرفى بيتها ، فأمرنا أن نقاتل حتى لاتكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرنا به .

فظهرت الدهشة فى وجوه الجميع . فما كان يظن أن يكون قائل هذا القول رسول عائشة ، ولما أفاق الناس من دهشتهم صاح أحدهم :

— ما أمرت إلا بما أمر الله عز وجل به ؛ بالإصلاح بين الناس .

فثارت ضجة فى المسجد ، فقام أبو موسى وقال :

— أيها الناس ، أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب يأوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف . إنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا . إن الفتنة إذا أقبلت شبهت ، وإذا أدبرت بينت ، وإن هذه الفتنة باقرة كداء البطن تجرى بها الشمال والجنوب ، والصبا والدبور ، فتسكن أحياناً فلا يدرى من أين تؤتى ، تذر الحليم كابن أمس . شيموا سيوفكم ، وقصدوا رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزموا بيوتكم . خلوا قريشاً إذا أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم بالإمرة ، ترتق فتقها ، وتشعب صدعها ، فإن فعلت فلأنفسها سعت فعلى أنفسها منت ، سمنها تهريق فى أديمها ، استنصحونى ولا تستغشونى ، وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحر هذه الفتنة من خباها .

فقام رجل وصاح فى الناس :

— سيروا إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق .

فقام القعقاع بن عمرو فقال :

— إنى لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن ترشدوا ، ولأقولن لكم قولا هو الحق ، لابد من إمارة تنظم الناس ، وتزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا على يلى بما ولى ، وقد أنصف فى الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع .

وقام رجل يؤيد القعقاع :

ــ أيها الناس ، إنه لابد لهذا الأمر ولهؤلاء الناس من وال ، يدفع الظالم ، ويعز المظلوم ، ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه ، وهو المأمون على الأمة الفقيه فى الدين ، فمن نهض إلية فإنا سائرون معه .

وانشرح صدر عمار والحسن ، فقد رأيا الناس يميلون إلى الخروج معهما ، فقام عمار وقال :

ــ هذا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستنفركم إلى زوجة رسول الله وإلى طلحة والزبير . وإنى أشهد أنها زوجته فى الدنيا والآخرة فانظروا ثم انظروا فى الحق ، فقاتلوا معه .

فصاح رجل ممن له مع عائشة هوى :

ــ يا أبا اليقظان ، لهو مع من شهدت له بالجنة على من لم تشهد له .

فالتفت الحسن إلى أبى اليقظان عمار ، وهمس :

ــ اكفف عنا ياعمار ، فإن للإصلاح أهلا .

وقام الحسن ليصلح ما أفسده عمار ، فتطلع الناس إليه ، وأعاروه سمعهم ، وساد المسجد سكون ، ثم ارتفع صوت الحسن :

ــ يأيها الناس ، أجيبوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يليه أولو النهى أمثل فى العاجلة ، وخير فى العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا ، وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم .

فقام رجل من وجوه القوم فقال :

ــ إن أمير المؤمنين قد دعانا ، وأرسل إلينا رسله حتى جاءنا ابنه ، فاسمعوا إلى قوله ، وانتهوا إلى أمره ، وانفروا إلى أميركم ، فانظروا معه فى هذا الأمر ، وأعينوه برأيكم .

وقام آخر فقال .

ــ أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين ، وانفروا خفافا وثقلا ، مروا أنا أولكم .

فقام الحسن فقال :

— أيها الناس ، إنى غاد ، فمن شاء منكم أن يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فليخرج فى الماء .

فنفر الناس لينضموا إلى أمير المؤمنين ، وانطلقوا جميعاً حتى وافوه بذى قار . ودعا الإمام القعقاع بن عمر وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له :

— اذهب إلى أهل البصرة ، والق هذين الرجلين ، فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة .

— أفعل .

— كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟

— نلقاهم بالذى أمرت به ، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى ، اجتهدنا بالرأى ، وكلمناهم على قدر مانسمع ونرى أنه ينبغى .

— أنت لها .

وخرج القعقاع إلى البصرة ، فلما دخلها بدأ بعائشة رضى الله عنها ، فسلم عليها وقال لها :

— أى أمه ، ما أشخصك ، وما أقدمك هذه البلدة ؟

— أى بنى إصلاح مابين الناس .

— فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما .

فبعثت أم المؤمنين إليهما ، فلما جاءا وجلسا ، التفت إليهما القعقاع وقال :

— إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها وما أقدمها هذه البلاد فقالت . إصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما أمتابعان أم مخالفان ؟

— متابعان .

— فأخبرانى ماوجه هذا الإصلاح ، فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، وإن أنكرناه لانصلح .

ـــ قتلة عثمان رضى الله عنه ، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن .

ـــ قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذى أفلت فمنعه ستة آلاف وهم على رجل ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون، فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون .

فأطرقت أم المؤمنين ثم رفعت رأسها وقالت للقعقاع .

ـــ فتقول أنت ماذا ؟

ـــ أقول هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ، ودرك بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر . وذهاب هذا الثأر ، وبعثة الله فى هذه الأمة هزاهزها ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تعرضونا للبلاء ، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم ، وأيم الله إنى لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنى لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التى قل متاعها ، ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذى حدث أمر ليس بقدر وليس كالأمور ، ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل .

فقالوا جميعا :

ـــ نعم . إذا قد أحسنت وأصبت المقالة ، فارجع فإن قدم على وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر .

وقام القعقاع مسروراً ، فقد حسب أنه قد وفق إلى حقن دماء المسلمين ، وقفل عائداً إلى أمير المؤمنين وقص عليه ماجرى ، فأعجبه ذلك ، وبات الناس وقد حسبوا أن الصلح منهم قريب .

الفصل السادس والعشرون

الجمل

ذاع فى معسكر على نبأ اتفاق القوم على الصلح ، فأظهر الناس سرورهم ، وقام على وخطبهم وقال :

— ألا وإنى راحل غداً فارتحلوا ، ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان رضى الله عنه بشىء فى شىء من أمور الناس ، وليغن السفهاء عنى أنفسهم .

وكان ابن سبأ الذى قلب الأمصار على عثمان يستمع إلى خطبة على ، فساءه أن يكون صلحاً ، إنه ليود الفرقة للمسلمين ، وإنه ليعمل على توسيع شقة الخلاف بينهم مد أسلم إلى اليوم ، فما بال القوم يفكرون فى الاتفاق ، إن هذا لن يكون ، وانطلق ابن سبأ يفكر ، فوسوس له شيطانه أن يجمع من اشترك فى قتل عثمان ، ليوغر صدورهم على هذا الصلح فيعملوا على تعكيره وعدم وقوعه .

واجتمع نفر ممن مشوا إلى عثمان ، وراحوا يديرون قداح الرأى بينهم ، فقالوا :

— ما الرأى وهذا والله على ، وهو أبصر الناس بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك ، وهو يقول ما يقول ، ولم ينفر إليه سوانا والقليل من غيرنا ، فكيف به إذا شام القوم وشاموه ، وإذا رأوا قلتنا فى كثرتهم .

فقال أحدهم :

— رأى الناس فينا والله واحد ، وإن يصطلحوا وعلى فعلى دمائنا ، فهلموا فلنتواثب على على فنلحقه بعثمان فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون ، فقال ابن سبأ :

— بئس الرأى رأيت .

واستمر القوم فى حوار ، وكاد عقدهم ينفرط دون أن يتخذوا قراراً ، فقال أحدهم :

— أبرمو أموركم قبل أن تخرجوا ، ولا تؤخروا أمراً ينبغى لكم تعجيله ،

ولا تعجلوا أمراً ينبغي لكم تأخيره ، فإنا عند الناس بشر المنازل ، فما أدرى ما الناس صانعون غداً إذا ما هم التقوا .

فقال ابن السوداء ما كان قد بيت العزم عليه :

— إن عزكم فى خلطة الناس ، فصانعوهم ، وإذا التقى الناس غداً ، فأنشبوا القتال ، ولا تفرغوهم للنظر ، فإذا من أنتم معه لا يجدوا بداً من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون .

فأعجبهم الرأى ، وعزموا عليه ، وانصرفوا جميعاً يبيتون الغدر ، وانصرف ابن سبأ كما ينصرف الشيطان بعد أن تتم غوايته .

وسار على ، وانطلق حتى نزل بحيال جيوش عائشة وطلحة والزبير ، فنزلت القبائل إلى قبائلهم : مضر إلى مضر ، وربيعة إلى ربيعة ، واليمن إلى اليمن ، وكانت تباشير الصلح تلوح فى الأفق فقد كان بعضهم يخرج إلى بعض ولا يتحادثون إلا فى الصلح ، ومشت السفارات بين المعسكرين وأصبح الصلح أمراً مؤكداً ، لاشية فيه ، وأقبل الليل ، ونام الناس ، وراح عبد الله بن سبأ يعمل على إنفاذ ما بيت بليل ، فوضع رجلا قريباً من على ، وقبل أن يبدأ الصبح فى التنفس ، خرج أتباع ابن سبأ فغدوا مع الغلس ، وانسلوا إلى المعسكر الآخر انسلالا ، وراح المضريون يضعون سيوفهم فى المضريين ، واليمانيون فى اليمانين ، وأهل ربيعة فى أهل ربيعة ، فثار العسكر ، وانتشرت الجلبة ، فخرج على يسأل عن الخبر ، فقال له الرجل الذى وضعه ابن سبأ :

— ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا ، فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس .

فدعا على صاحب ميمنته وميسرته وقال :

— لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ، ويستحلا الحرمة ، وأنهما لا يطاوعانا .

واستمر السبائية ينشبون القتال وعلى يصيح :

— أيها الناس كفوا .

وأسرع رجل إلى عائشة فلما دخل عليها صاح :

— أدركى فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله يصلح بك .

فأخذت عائشة تتأهب للخروج ، وجعل الناس يلبسون هودجها الأدراع ، ودعا الزبير ابنه عبد الله وقال له :

— يا بنى ، إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم ، وإنى لا أرانى إلا سأقتل اليوم مظلوما ، وإن من أكبر همى لدينى ، أفترى ديننا يبقى من مالنا شيئاً ؟ يا بنى بع مالنا ، واقض دينى وأوص بالثلث ، فإن فضل من مالنا من بعد قضاء الدين شىء فثلثه لولدك ، يا بنى إن عجزت عن شىء منه فاستعن عليه مولاى .

فنظر عبد الله إلى أبيه وقال :

— يا أبه ومن مولاك ؟

— الله .

وتذكر الزبير ما حدث بينه وبين على لما التقى الجمعان ، وخروج على إليه ودنوه منه وقوله : « أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غنم فنظر إلى فضحك وضحكت إليه فقلت : لا يدع ابن أبى طالب زهوه ، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنه ليس به زهو ولتقاتلنه وأنت له ظالم » وتذكر قوله لعلى : « اللهم نعم ، ولو ذكرت ماسرت مسيرى هذا والله لاأقاتلك أبداً » ، وتذكر رجوعه إلى عائشة وقوله لها : « ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا » ، وقولها له : فما تريد أن تصنع ؟ ، ورده عليها : « أريد أن أدعهم وأذهب » ورأى بعين خياله ابنه عبد الله وهو يصيح فيه : « جمعت بين هذين الغاويين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب ، أحسست رايات ابن أبى طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد » .
فأحس الدم يفور فى عروقه ، وراح يفكر فيما قاله لابنه : « إنى قد حلفت ألا أقاتله » فلم يثن ذلك عبدالله بل قال له : « فكفر عن يمينك وقاتله » . إن الزبير

ليحس حرجا ، وإنه لمدفوع لقتال على دفعاً ، إن فكرة ترك الميدان تتخايل له ، ولولا عبد الله ابنه لما أعتق غلامه ليحل يمينه فيقوم فى الصف مع المقاتلين ، ودارت رحى المعركة ، والزبير يقاتل كارها ، وأقبلت عائشة على هودجها ، فلما برزت من البيوت وكانت بحيث تسمع الغوغاء وقفت ، فلم تلبث أن سمعت غوغاء شديدة فقالت :

ــ ما هذا ؟

ــ قالوا ضجة العسكر .

ــ بخير أو بشر ؟

ــ بشر .

وانطلقت إلى المعركة ، وقالت للآخذ بخطام ناقتها :

ــ خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله عز وجل ، فادعهم إليه .

فانطلق كعب يحمل المصحف ويدعوهم إلى كتاب الله فخشى أصحاب ابن سبأ الصلح فرشقوه رشقاً واحداً فقتلوه ، وراحوا يرمون عائشة فى هودجها ، فجعلت تنادى :

ــ يا بنية ، البقية البقية ، الله الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب .

ولكن أنصار ابن سبأ صموا آذانهم ، واستمروا فى قتالهم ، فقالت عائشة للناس :

ــ أيها الناس ، العنوا قتلة عثمان وأشياعهم .

وراحت تدعو وضج أهل البصرة بالدعاء ، وسمع على بن أبى طالب جلبه ، فقال :

ــ ما هذه الضجة ؟

ــ عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم .

فدعا على :

ــ اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم .

ورأت عائشة عزم القوم على القتال ، فذعرت الناس ، واستعر أوار المعركة ، فراح الناس يسقطون صرعى مجدلين تحت ضربات السيوف البتارة ، فيا للمسلمين يضرب كل أهله ،

واستمرت المعركة الرهيبة ، وتقارعت السيوف ، ووقف طلحة يقول لما رأى انهزام من معه :

— إلى عباد الله ، الصبر الصبر .

فمر به القعقاع فألقاه جريحاً فقال له :

— يا أبا محمد ، إنك لجريح ، وإنك عما تريد لعليل ، فادخل الابيات .

ورأى الزبير قسوة المعركة ، وسقوط المسلمين قتلى من الفريقين فانقبض ، وتغلبت عليه فكرة الانسحاب ، وترك الميدان ، فانسحب وانطلق إلى وادى السباع .

واشتد جرح طلحة عليه ، فالتفت إلى غلامه وقال :

— يا غلام أدخلني ، وابغني مكانا .

وانهزم أهل البصرة ، وشاءوا التقهقر ولكنهم وجدوا جمل عائشة منتصبا ، فالتفوا حوله وراحوا يقاتلون دونه ، وكان لا يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قتل ، وتقدم رجل فأخذه فقتل ، وتقدم آخر فأخذه فصرع ، ومشى عبد الله بن الزبير وبه سبع وثلاثون جراحة من ضربة وطعنة حتى اقترب من الجمل ، فأخذ بالخطام فسألت عائشة :

— من أنت ؟

— عبد الله بن الزبير .

— واثكل أسماء .

وأحست عائشة خيفة ، إنها لتخشى أن يسقط عبدالله أحب الناس إليها ، فانتابها قلق ، وأرهفت منها الحواس ، ومر الأشتر بعبدالله ، فقفز عبدالله عليه فعانقه فسقطا جميعا ، وضاع الخطام من يد عبدالله ، ففزعت عائشة وخافت عليه

القتل ، وأخذ عبد الله بن الزبير والأشتر يتصارعان ، وهتف ابن الزبير :

ـــ اقتلونى واقتلوا مالكا معى .

ورأى على ثبات الناس حول الجمل ، فهتف :

ـــ اعقروا الجمل ، فإنه إن عقر تفرقوا .

وحمل الناس على الجمل ، وضربه رجل فسقط . فتفار الناس الناس من حوله ، فأسرع القعقاع ونفر معه بإنزال الهودج عن ظهر البعير ، وتركوه بين القتلى وكأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل ، وأمر على محمد بن أبى بكر أن ينطلق إلى أخته ليحملها بعيداً عن القتلى وقال له :

ـــ انظر هل وصل إليها شيء ؟

فانطلق محمد وعمار بن ياسر حتى أتيا الهودج ، فأدخل رأسه فيه فقالت عائشة

ـــ من أنت ؟ ويلك ؟

ـــ أبغض أهلك إليك .

ـــ من ؟

ـــ أخوك البر .

ـــ عقوق .

وقال عمار بن ياسر :

ـــ كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه .

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا ابنك البار عمار .

ـــ لست لك بأم .

ـــ بلى وإن كرهت .

وهدأت نفس عائشة ، ونظرت إلى محمد وغمغمت :

ـ الحمد لله الذى عافاك .

وحمل الهودج من بين القتلى ووضعوه بعيداً ينتظرون أوامر على فيه ، وأقبل

الليل ، ونشر لواءه الأسود على ميدان القتال ، فحجب القتلى ، فجاء على ومعه قنبر وفى يده مشعلة من نار يتصفح القتلى ، حتى وقف على طلحة ، فظهر الحزن فى وجهه ، وقال :

— أعزز على أبا محمد أن أراك معفراً تحت نجوم السماء ، وفى بطون الأودية ، شفيت نفسى ، وقتلت معشرى ، إلى الله أشكو عجزى .

واستمر يتصفح القتلى ، ويستغفر لهم ثم أمر أن يجمعوا ليصلى عليهم أجمعين .

وانتهى على إلى عائشة فقال لها :

— أى أمه ، يغفر الله لنا ولكم .

— غفر الله لنا ولكم .

والتفت على إلى محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر وقال لهما :

— أدخلاها البصرة .

فانطلق محمد بعائشة فى سكون الليل إلى البصرة ، فأنزلها فى دار عبدالله بن خلف ، وتسلل الجرحى فى جوف الليل إلى البصرة ، ولاذ بعضهم بعائشة ، وأقبل الناس حتى التج بهم الدار ، وأخذت عائشة تسأل عن عدة من الناس ، فكانت كلما نعى لها منهم واحد قالت :

— يرحمه الله .

حزنت عائشة لقتل طلحة فقد ترملت أختها أم كلثوم وتيتمت ابنتها الصغيرة ، وانتابها قلق شديد ، فإنها لم تدر بعد ما لحق ابن الزبير بعد أن تصارع والأشتر ، وضربه الاشتر ضربة شديدة على رأسه ، ترى هل قتل فثكلته أسماء ، أم هام على وجهه مع الهائمين . واستمر قلق عائشة شديداً ، ومما زاد فى اضطرابها وقلقها نعى الناعى الزبير ، فقد قتل غدراً فى وادى السباع ، فهل كتب على أسماء أن تفقد الأب والابن ؟ . واستمر قلق عائشة ، وانصرم النهار ولم تعلم ما حدث لعبد الله ، وأقبل الليل ، وأقبلت الهموم ، إن نفس عائشة لتعتصر حزنا ، فما جنت من خروجها إلا الأحزان ، قتل الزبير حوارى الرسول ، وقتل طلحة رب

الجود ، وفقدت ابنها عبد الله ، ترى هل فقدته حتماً ؟ وما فكرت في هذا حتى تفزعت وأحست وطأة الحزن الثقيل ، إنها لتحب عبد الله ، وإنها كانت تحب له الصدارة ، أما أمرت أن يصلي بالناس وفيهم الزبير وطلحة وخيار صحابة الرسول ؟ واستمر اضطرابها وقلقها فلم تذق كثير غمض ، وانقضى الليل بأحزانه وهمومه ، وأسفر النهار وأبتدأ الناس يفدون إلى الدار التي فيها أم المؤمنين ، وأقبل رجل والتمس الإذن بالدخول لأمر هام ، فأذنت له فدخل واقترب منها وقال :

— إن عبد الله ابن الزبير في داري .

فتهللت أسارير وجهها ، وظهر البشر في محياها . إن عبد الله حي يرزق ، وخطر لها أن تدعو أخاها محمد بن أبي بكر فقالت :

— على بمحمد .

فالتفت الرجل إليها وقال :

— يا أم المؤمنين ، إنه قد نهاني أن يعلم به محمد .

ولكن ذلك لم يثن أم المؤمنين عن عزمها فقالت :

— على بمحمد .

فجاء محمد ، فقالت له :

— اذهب مع هذا الرجل حتى تجيئني بابن اختك .

وناولت عائشة الرجل الذي بشرها بحياة ابن الزبير عشرة آلاف درهم ، ثم انطلق ومحمد بن أبي بكر حتى دخلا على ابن الزبير ، فلما رأى عبد الله محمداً نظر إليه نظرة ارتياب وتساؤل ، فقال محمد :

— جئت والله بما كرهت ، وأبت أم المؤمنين إلا ذلك .

وخرج محمد وابن الزبير وهما يتشاتمان ، وذكر محمد عثمان فشتمه ، فشتم ابن الزبير محمداً ، واستمرا في سبابهما حتى دخلا على عائشة ، وما إن وقعت عيناها على ابن الزبير حتى أحست نشوة ، وترقرقت دموع الفرح في مآقيها ، إن ابنها الحبيب ماثل أمامها ، فالحمد لله على نجاته .

ومر يومان ولم يدخل على البصرة ، وشاء أنصار على أن يوزع عليهم أموال أنصار طلحة والزبير فمشوا إليه وسألوه أن يقسم فيهم أموال المهزومين ، فأبى عليهم ، فانصرفوا ولم ترض نفوس أصحاب ابن سبأ ، وراحوا يهمسون ، ويطعنون فى على فى الخفاء ، وبلغ على أن أنصاره يقولون :

— كيف يحل لنا دماؤهم ، ولا تحل لنا أموالهم ؟

فجمع القوم وقال لهم :

— أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين فى سهمه ؟

فسكت القوم ، وطأطأوا رءوسهم فقد صفعهم ابن أبى طالب فلم تتحرك شفاههم ، ووئدت فى نفوسهم فكرة تقسيم أموال المهزومين فيهم .

ونادى على عبد الله بن عباس ، وبعثه إلى عائشة يأمرها بالخروج إلى المدينة ، فانطلق ابن عباس إلى دار ابن خلف ، ولم يستأذن بل دخل إلى عائشة بغير إذنها ، ولم يستأذن فى الجلوس إليها ، بل جذب وسادة فجلس عليها ، فنظرت عائشة إليه فى غضب وقالت :

— يابن عباس ، أخطأت السنة المأمور بها ؛ دخلت علينا بغير إذننا ، وجلست على رحلنا بغير أمرنا .

فقال ابن عباس فى هدوء :

— لو كنت فى البيت الذى خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مادخلنا إلا بإذن ، وما جلسنا على رحلك إلا بإذنك . إن أمير المؤمنين يأمرك بسرعة العودة ، والتأهب للخروج إلى المدينة .

— أبيت ما قلت ، وخالفت ما وصفت .

وأعرضت عنه ، فقام إلى أمير المؤمنين وأخبره بامتناعها ، فرده إليها فدخل إليها وقال :

— إن أمير المؤمنين يعزم عليك أن ترجعى .

فوافقت وأجابت إلى الخروج .

وفى صبيحة اليوم الثالث لانتهاء المعركة دخل على البصرة ، واتجه إلى عائشة ، ومعه الحسن والحسين وباقى أولاده وأولاد أخوته ، وفتيان أهله من بنى هاشم ، وانطلق على بغلته فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف ألفى صفية بنت الحارث تبكى على عبد الله وعثمان بن خالف ، فلما رأته رفعت رأسها إليه وقالت :

ـــ ياعلى ياقاتل الأحبة ، يامفرق الجمع ، أيتم الله بنيك منك ، كما أيتمت ولد عبد الله منــه .

فلم يرد عليها شيئا ، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة ، فسلم عليها وقعد عندها وقال لها :

ـــ جبهتنا صفية . أما إنى لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم .

وتحادث على وعائشة ، ورأت أم المؤمنين صفاء نفسه ، فشاءت أن تطمئن على ابن أختها ، فسألته أن يؤمن عبد الله فأمنه ، وأمن الناس جميعاً ، وخرج على من عندها ، وقابلته صفية بمثل ما استقبلته به فقال رجل من أنصار على :

ـــ والله لا تفلتنا هذه المرأة .

فغضب على والتفت إليه وقال :

ـــ صه ، لا تهتكن ستراً ، ولا تدخلن داراً ولا تهيجن امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسفهن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف ، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن الرجل ليكافىء المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده ، فلا يبلغنى عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس .

ومضى على فلحق به رجل فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمض لك شتيمة من صفية .

ـــ ويحك لعلها عائشة .

ـــ نعم قام رجلان منهم على باب الدار فقال أحدهما ، جزيت عنا أمنا عقوقا. وقال الآخر : يا أمنا توبى فقد خطئت .

فظهر الغضب فى وجه على ، وأمر القعقاع أن ينطلق ويقبل بمن كان على الباب .

فلما مثلوا بين يدى على ، وعلموا غضبه أحالوا على رجلين ، فقال للقعقاع .

ــ اضرب أعناقهما .

فظهر الفزع فى وجه الرجلين ، وسأله من حوله الرأفة فيهما فقال

ــ لأنهكنهما عقوبة .

فضربهما مائة مائة ، وأخرجهما من ثيابهما ، وانصرف على بعد أن نال من نال من أم المؤمنين .

* * *

وتجهزت عائشة للخروج إلى المدينة ، وأمدها على بكل شىء ينبغى لها من مركب أو زاد أو متاع ، وأمر لها باثنى عشر ألفا من المال ، وتأهب عبدالرحمن ابن أبى بكر للخروج مع أخته ، واستعد ابن الزبير للعودة فى ركابها ، ولما تم كل شىء ، وحانت ساعة الرحيل ، أقبل الناس لوداعها ، وأقبل على والحسن والحسين. وقبل أن تنطلق من البصرة ، التفتت إلى الناس وقالت :

ــ يابنى ، تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزاده ، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشىء بلغه من ذلك ، إنه والله ماكان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها . وإنه عندى على معتبتى من الأخيار .

فقال على :

ــ صدقت والله وبرت . ماكان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة .

وتحرك الركب ، وخرج على ليشيع عائشة أميالا ، وسرح بنيه معها يوما ، وعاد على ، واستأنف الركب سيره ، وراح ابن الزبير يفكر فى دين أبيه ، وطفق عبد الرحمن بن أبى بكر يفكر فيما اعترى حبه وأطفأ ناره .

الفصل السابع والعشرون

عاشق الخيال

واستمر الركب فى سيره الوئيد ، وكان كل من فيه مشغولا بفكره ، فكانت عائشة تفكر فى خروجها مع الزبير وطلحة للإصلاح بين الناس ، وعودتها بعد أن عقر جملها . وقتل زوجا أختيها أسماء وأم كلثوم ، لقد قتل الزبير وكانت ترجو له خيرا ، وقتل طلحة وقد ترك عائشة الصغيرة تنتظر أوبته ، فياليتها ما خرجت ، ويا ليتها ماتت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، واستمرت عائشة تفكر طوال الطريق فما رحمها فكرها ، ولا طابت نفسها . وأهم دين الزبير ابنه عبد الله فراح يفكر فيما يفعل ، لقد ترك الزبير إحدى عشرة دارا بالمدينة ودارين بالبصرة ، ودارا بالكوفة ، ودارا بمصر . وأرض الغابة التى اشتراها بسبعين ومائة ألف ، ولكنه ترك ديناً ثقيلا ، فقد حسب عبد الله ما عليه من الدين فوجده ألفى ألف ومائتى ألف ، فما يفعل عبد الله ، لقد قر رأيه على أن يبيع أرض الغابة ليسد ما عليه. واستمر ابن الزبير يفكر فى الدين والدائنين ، أما عبد الرحمن بن أبى بكر فقد جعل يفكر فى ليلى ابنة الجودى ، فقد خبا حبه لها ، بل لقد مات هذا الحب ولم يعد يحس له فى قلبه من حركة ، لقد كان قلبه يقفز فى صدره إذا ما خطرت له ليلى على بال ، وما أكثر ما كانت تخطر له على بال ، وكان يحسب أن حبه لها سيدوم مادام فى السماء نجم ، فما باله أصبح يذكرها فلا يهزه ذكراها ، بل يحس ضيقاً وانقباضاً ، كانت ليلى أمنية نفسه ، وكان يتمنى أن يجود ببعض عمره فى سبيل وصالها ، فلما جاد الزمن بما لم يكن فى الحسبان أن يجود به ، ونال عبد الرحمن ما تمنى ، وارتبطت الأسباب بينه وبين من عاش على ذكراها سنوات ، كاد عبد الرحمن يجن فرحا ، ولزم الدار ليعب من فم ليلى لذيذ الخمر الحلال ، إنه ليهيم بها ، وإنه ليرعاها ويحنو عليها . وإنه ليجفف دموعها بشفتيه كلما سالت على خديها لذكرى الأهل والسلطان

الذى تقوض ، والعز الذى زال ، وراحت سحابة الحزن التى كانت مخيمة على نفس ليلى تنقشع فقد بددتها حرارة حب عبد الرحمن ، وابتدأ قلب ليلى يتفتح على قطرات الحب التى كانت تنزل عليه منعشة محيية ، فنسيت الأهل ونسيت السلطان وأقبلت على حياة الحب والهيام ، واستمر الحلم اللذيذ فأهمل عبد الرحمن أزواجه جميعاً ولم يعد يرى إلا ليلى ، فقد كانت الحياة فى عينيها والسعادة فى شفتيها . ومرت الأيام وابتدأ عاشق الخيال يصحو من حلمه اللذيذ ، وابتدأ الملل يتسرب إلى نفسه ، ولاح فى خاطره خطرة ما كانت لتجسر أن تطرق باب فكره من قبل ، خطر له أن ليلى ما هى إلا امرأة كسائر نسائه ، إن كان فيها رقة ففيهن رقة . وإن كانت تمتاز بالحسن فكلهن حسناوات ، فما باله يحبس حبه عليها . ولم يعزع عبد الرحمن لتسلل هذه الفكرة إليه أول ما تسللت ، بل أطرق وراح يغذيها حتى نمت فى نفسه واستولت عليه ، إنه هجر نساءه وما كان له أن يهجرهن ، وإنه ليشتهين ويتمنى الوصال ، وراح عاشق الخيال يهيم فى الخيال فلم يطق صبراً على البعد ، فخرج عن عند ليلى ليطوف على نسائه وليصل ما انقطع بينه وبينهن بعد أن عاد بليلى من الشام .

وتغير عبد الرحمن فلم يعد يتودد إلى ليلى ، فخشيت أن يكون حبه لها قد ولى ، فأظهرت له ضروب الحنان لعلها تبقى على جذوة الحب فى قلبه مشتعلة ، ولكن هيهات فقد انطفأت الجذوة وأصبح القلب رماداً .

فيا لليلى ! هجرها عبد الرحمن فلم يعد يزورها ، فتحركت شجونها ، وانزوت فى بيت الأحزان ، تبكى حبيبها الذى فقدته حياً ، وملك أبيها الذى ذاب ، وأساها عبد الرحمن وأنساها حبه زوال السلطان ، فمن ذا الذى يواسيها فى هجر عبد الرحمن ! وتواصت ليلى بالصبر وانتظرت لعل الطير الشارد يعود إلى وكره ، ولكن عبد الرحمن خرج وعائشة إلى الحج ثم انطلق معها إلى العراق للمطالبة بدم عثمان دون أن يودعها بكلمة أو يتزود منها بقبلة وداع . نسيها عبد الرحمن ما فى ذلك شك ، فما كان ينطلق إلى الأسواق إلا بعد أن يتزود منها بقبلات فما بالك بترك

البلاد إلى بلاد ، ولم تشأ ليلى أن تتعلق باليأس ، وأن تقطع حبل الأمل ، بل راحت تمد فيه ، وجعلت تتعال لعبد الرحمن وتجد له المعاذير ، فلعله اضطر إلى الخروج اضطراراً ، ولم يكن هناك فسحة من الوقت ليمر عليها ويودعها قبل الرحيل ، وتناست ليلى أنه هجرها قبل أن يخرج للحج ، وانتظرت أوبته من العراق وهى تتمنى أن يزورها فيبدد شكوكها ويعيد إليها طمأنينتها .

واستمر ركب عائشة فى السير ، ترفعه رافعة ، وتخفضه خافضة ، وكان الرجال الذين بعثهم أمير المؤمنين معها يخدمونها فى الطريق ، فكانت تحس ضيقاً وحرجا كلما خدموها أوحملوها ؛ وبلغ الركب مكة فى أوان الحج ، فحج القوم ثم انطلقوا إلى المدينة ، فلما بلغتها أم المؤمنين أسرع الناس لاستقبالها ، وقيل لها :

ـــ كيف رأيت مسيرك ؟

ـــ كنت بخير الله . لقد أعطى على بن أبى طالب فأكثر ، ولكنه بعث معى رجالا . واقترب منها الرجال الذين بعثهم على معها ، وخلعوا عمائمهم ، فتهدل الشعر الطويل ، فقد كن نسوة من ذوات الدين من عبد قيس وهمدان وغيرهما ، ألبسن العمائم وتقلدن السيوف ، فلما انكشف لعائشة أمرهن قالت :

ـــ ما ازددت يا بن أبى طالب إلا كرما . وددت أنى لم أخرج ، إنما قيل لى تخرجين فتصلحين بين الناس .

وسار ابن الزبير وهو يفكر فى قضاء دين أبيه ، فلقيه حكيم بن حزام فقال له :

ـــ يا بن أخى ، كم على أخى من الدين ؟

فكتمه عبد الله وقال :

ـــ مائة ألف .

ـــ والله لا أدرى أموالكم تسع هذه ؟

ـــ وإن كانت ألفى ألف ومائتى ألف .

ـــ ما أراكم تطيقون هذا ، فإن عجزتم عن شىء منه فاستعينوا بى .

وانطلق ابن الزبير حتى أتى المسجد فقام وقال :

— من كان له على الزبير دين فليوافنا بالغابة .

واتجه ابن الزبير إلى الغابة ، وأقبل الناس ، وأتاه عبد الله بن جعفر وكان له على الزبير أربعمائة ألف ، فالتفت إلى ابن الزبير وقال :

— إن شئتم تركتها لكم ، وإن شئتم فأخروها فيما تأخرون إن أخرتم شيئا .

فقال عبدالله فى عزم :

— لا .

— فاقطعوا لى قطعة .

— لك من هاهنا إلى هاهنا .

واستمر ابن الزبير يبيع أرض الغابة حتى باع بألف ألف وستمائة ألف ويسدد دين أبيه .

أما عبد الرحمن فإنه راح يطوف على نسائه فزارهم جميعاً إلا ليلى ، فحز ذلك فى نفسها ، لقد تبدل حب عبد الرحمن بغضا ، فحزنت حزنا ثقيلا ، وجعلت تبكى ثما يرقأ لها دمع ، فقد شربت كأس الذل ، وجرعت الهوان ، وصارت الدنيا موحشة مقبضة ، فقد أقفرت من الحبيب ، وتحطمت على صخرتها القاسية الأمانى العذاب .

هجرها عبد الرحمن فما الذى يبقيها فى المدينة ، إن كل ماحولها لينكأ جرح قلبها ، ويذكرها بمن سكن القلب ثم مزقه ، ليتها تفر من الدار التى شهدت أيام الصفاء ، فإن كل ركن من أركانها ليعيد إليها الذكريات التى تضنيها وتعذبها تعذيبا وخرجت ليلى إلى دار عائشة تشكو إليها ما أصابها من هجر عبد الرحمن فسارت بخطا ثقيلة مطأطئة الرأس ، تحس وطأة الذل ، فما كانت تحسب أن الزمن يجور عليها فيزلزل ملكهم ، ويحطم الفؤاد ، ودخلت على عائشة وقد ارتسم الأسى فى وجهها ، وراحت تقص عليها مانالها من عبد الرحمن ، وقد غامت عيناها بالدموع ،

وظهر التأثر فى وجه عائشة ، فلما انتهت ليلى ، بعثت عائشة فى طلب عبدالرحمن فلما أقبل قالت له :

ــ يا عبد الرحمن ، لقد أحببت ليلى فأفرطت ، وأبغضتها فأفرطت ، فإما أن تنصفها وإما أن تجهزها إلى أهلها .

فأطرق عبدالرحمن ثم رفع رأسه وقال :

ــ أجهزها إلى أهلها .

وخرجت ليلى من المدينة إلى الشام تندب حظها العاثر ، وتبكى حبها الفاشل

الفصل الثامن والعشرون

والى مصر

سرب محمد بن أبى حذيفة المصريين إلى عثمان بن عفان ، وخرج معهم محمد بن أبى بكر ، وبقى ابن أبى حذيفة بمصر ، فلما حوصر عثمان وثب ابن أبى حذيفة على عبد الله بن أبى سرح فطرده منها وصلى بالناس ، وبويع لعلى وأظهر معاوية الخلاف ، وبايعه على ذلك عمرو بن العاص ، فسار معاوية وعمرو إلى محمد بن أبى‌حذيفة وعالجا دخول مصر فلم يقدرا على ذلك ، فلم يزالا يخدعان ابن أبى‌حذيفة حتى خرج إلى عريش مصر فى ألف رجل ، فتحصن بها وجاءه عمرو فنصب المنجنيق عليه ، فأخذ ابن أبى حذيفة فى ثلاثين من أصحابه وقتل .

ودعا على قيس بن سعد الأنصارى فقال له :

— سر إلى مصر فقد وليتكها ، واخرج إلى رحلك واجمع إليه ثقاتك ، ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند ، فإن ذلك أرعب لعدوك ، وأعز لوليك .

— رحمك الله يا أمير المؤمنين ، فقد فهمت ماقلت ، أما قولك : اخرج إليها بجند فوالله لئن أدخلها إلا بجند آتيها به من المدينة لا أدخلها أبداً ، فأنا أدع ذلك الجند لك ، فإن احتجت إليهم كانوا منك قريبا ، وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عدة لك ، وأنا أصير إليها بنفسى وأهل بيتى .

وانطلق قيس بن سعد فى سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال :

— الحمد لله الذى جاء بالحق ، وأمات الباطل ، وكبت الظالمين ، أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم .

فقام الناس فبايعوا ، واستقامت لقيس بن سعد مصر ، وبعث عليها عماله إلا قرية خربتا فقد أعظم أناس فيها قتل عثمان ، وامتنعوا عن البيعة ، وأرسلوا إلى قيس :

ــ إنا لانقاتلك ، فابعث عمالك ، فالأرض أرضك ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى مايصير أمر الناس .

واستقر الأمر فى مصر لقيس بن سعد ولكن وثب مسلمة بن مجلد الأنصارى فنعى عثمان ، ودعا إلى الطلب بدمه ، فرأى سعد أن يصانعه فأرسل إليه :

ــ ويحك ، على تثب ، فوالله ما أحب أن يكون لى ملك الشام إلى مصر وإنى قتلتك .

فبعث إليه مسلمة :

ــ إنى كاف عنك مادمت أنت والى مصر .

وهدأت مصر بحزم قيس ورأيه ، فأوجس معاوية منه خيفة ، إنه ليخشى أن يقبل إليه على فى أهل العراق ، ويقبل إليه قيس بن سعد فى أهل مصر فيقع بينهما وتكون القاضية ، ففكر معاوية وهداه فكره أن يستميل قيسا إليه ، فبعث إليه يطلب منه أن يبايعه ويتابعه وله سلطان العراقين ولمن أحب من أهل بيته سلطان الحجاز مادام لمعاوية سلطان .

فرفض قيس هذا العرض ، فساء ذلك معاوية وأهمه ، فإنه يعلم أن قيس ابن سعد من ذوى الرأى والبأس ، وأنه شوكة فى جنبه ولن يهدأ معاوية حتى يخضد هذه الشوكة ، وينتزعها من جنبه انتزاعا . وفكر معاوية وأعمل الفكر ، فرأى أن خير وسيلة لنزع قيس أن يوقع بينه وبين على ، فقام معاوية على المنبر وقال :

ــ لاتسبوا قيس بن سعد ، ولا تدعوا إلى غزوه ، فإنه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ، ألا ترون مايفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا ، يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويؤمن سربهم ، ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم

فسرحت عيون على بن أبى طالب إلى محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر بذلك فدخلا على أمير المؤمنين وأخبراه خبر قيس ، فتعجب له ولم يصدق ، فإنه ليعلم أن قيساً من أنصاره ودعا بنيه وقال :

ـــ مارأيكم ؟

فقال ابن جعفر :

ـــ يا أمير المؤمنين ، دع مايريبك إلى مالا يريبك ، اعزل قيساً عن مصر.

ـــ والله ما أصدق بهذا على قيس .

ـــ مره بقتال أهل خربتا .

فكتب على إلى قيس كتاباً يأمره بقتال أهل خربتا . فأبى قيس بن سعد أن يقاتلهم ، وكتب إلى على : « إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم ، وقد رضوا منى أن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست مكايدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم ، ولو أنى غزوتهم كانوا لى قرنا ، وهم أسود العرب ، ومنهم بسر بن أرطاة ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج ، فذرنى فأنا أعلم بما أدارى منهم »

فقال عبد الله بن جعفر :

ـــ يا أمير المؤمنين ماأخوفنى أن يكون هذا ممالأة لهم منه ، فمره ياأمير المؤمنين بقتالهم .

فكتب على إلى قيس : « سر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم إن شاء الله » فلما أتى قيس بن سعد الكتاب كتب إلى أمير المؤمنين : « ياأمير المؤمنين ، فقد عجبت لأمرك ، أتأمرنى بقتال قوم كافين عنك ، مفرغيك لقتال عدوك ، وإنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك فأطعنى ياأمير المؤمنين واكفف عنهم ، فإن الرأى تركهم والسلام »

وبلغ الكتاب على فقال ابن جعفر :

ـــ يا أمير المؤمنين ، ابعث محمد بن أبى بكر على مصر يكفك أمرها ، واعزل

قيسا ، والله لقد بلغنى أن قيساً يقول : والله إن سلطانا لايتم إلا بقتل مسلمة ابن مخلد لسلطان سوء . والله ما أحب أن لى ملك الشام إلى مصر وإنى قتلت ابن المخلد .

فوافق على على بعث محمد بن أبى بكر على مصر ، فتجهز محمد وحمل أهل بيته ، وانطلق إلى مصر يحمل كتاب أمير المؤمنين ، فلما دخلها قدم على قيس وقدم إليه كتاب أمير المؤمنين ، فتغير وجه قيس لما علم بعزله وقال :

— مابال أمير المؤمنين ، ماغيره ؟ أدخل أحد بينى وبينه ؟

— لا وهذا السلطان سلطانك .

— لا . والله لاأقيم معك ساعة واحدة .

وخرج قيس بن سعد من مصر لا لينضم إلى معاوية بل لينطلق إلى على الذى عزله ليشهد معه صفين ، وينتظر لعل الأيام تثبت صدق فراسته وإنه كان لعلى ناصحاً يوم نصحه أن يكفف عن قتال أهل خربتا ، وخرج محمد بن أبى بكر إلى المسجد وقام خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصرنا وإياكم كثيراً مما عمى عنه الجاهلون . ألا إن أمير المؤمنين ولانى أموركم ، وعهد إلى ماقد سمعتم ، وأوصانى بكثير منه مشافهة ، ولن آلوكم خيرا ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، فإن يكن ماترون من إمارتى وأعمالى طاعة لله وتقوى ، فاحمدوا الله عز وجل على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى ، وإن رأيتم عاملا لى عمل غير الحق زائغاً فارفعوه إلى ، وعاتبونى فيه ، فإنى بذلك أسعد ، وأنتم بذلك جديرون ، وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته .

ونزل محمد وذهب الى مقر عمله ، وكتب أول ماكتب كتاباً الى معاوية بن أبى سفيان :

« من محمد بن أبى بكر الى الغاوى معاوية بن صخر .

أما بعد ، فإن الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلاعبث منه ولاضعف فى قوته

ولا حاجة به إلى خلقهم ، ولكنه خلقهم عبيداً ، وجعل منهم غويا ورشيداً ، وشقياً وسعيداً ، ثم اختار على علم منه واصطفى وانتخب منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فانتخبه لعلمه ، واصطفاه لرسالته ، وائتمنه على وحيه ، وبعثه رسولا ومبشراً ونذيراً ، فكان أول من أجاب وأناب وآمن وصدقه ، وأسلم وسلم أخوه وابن عمه على بن أبى طالب ؛ صدقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كل حميم ، ووقاه بنفسه كل هول ، وحارب حربه وسالم سلمه ، فلم يبرح متبذلا لنفسه فى ساعات الليل والنهار ، والخوف والجوع والخضوع لا نظير له فيمن اتبعه ، ولا مقارب له فى فعله ، وقد رأيتك تساميه ، وأنت أنت ، وهو هو أصدق الناس نية ، وأفضل الناس ذرية ، وخير الناس زوجة ، وأفضل الناس ابن عم ، أخوه الشارى بنفسه يوم مؤته ، وعمه سيد الشهداء يوم أحد ، وأبوه الذاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حوزته ، وأنت اللعين ابن اللعين ، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الغوائل ، وتجهدان فى إطفاء نور الله ، تجمعان على ذلك الجموع ، وتبذلان فيه المال ، وتؤلبان عليه القبائل وعلى ذلك مات أبوك ، وعليه خلفته ، والشهيد عليك من تدنى ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ، ورؤساء النفاق . والشاهد لعلى مع فضله المبين القديم أنصاره الذين معه ، الذين ذكرهم الله بفضلهم ، وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ، وهم معه كتائب وعصائب ، يرون الحق فى اتباعه والشقاء فى خلافه ، فكيف — يالك الويل — تعدل نفسك بعلى ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ووصيه وأبو ولده ، أول الناس له اتباعا ، وأقربهم به عهدا ، يخبره بسره ، ويطلعه على أمره ، وأنت عدوه وابن عدوه ، فتمتع فى دنياك مااستطعت بباطلك . وليمددك ابن العاص فى غوايتك فكأن أجلك قد انقضى ، وكيدك قد وهى ، ثم تبين لك لمن تكون العاقبة العليا . واعلم أنك إنما تكايد ربك الذى آمنك كيده ، ويئست من روحه ، فهو لك بالمرصاد ، وأنت منه فى غرور والسلام على من اتبع الهدى » .

فكتب إليه معاوية :

« من معاوية بن صخر إلى الزارى على أبيه محمد بن أبى بكر :

أما بعد فقد أتانى كتابك تذكر فيه ما الله أهله فى عظمته وقدرته وسلطانه ، وما اصطفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، مع كلام كثير لك فيه تضعيف ولأبيك فيه تعنيف ، ذكرت فيه فضل ابن أبى طالب ، وقديم سوابقه ، وقرابته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومواساته إياه فى كل هول وخوف ، فكان احتجاجك على وعيبك لى بفضل غيرك لا بفضلك ، فاحمد رباً صرف هذا الفضل عنك وجعله بغيرك ، فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبى طالب ، وحقه لازماً لنا مبروراً علينا ، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ماعنده وأتم له ماوعده ، وأظهر دعوته فأبلج حجته ، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه ، كان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حقه ، وخالفه على أمره . على ذلك اتفقا واتسقا ، ثم إنهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما ، فهما به الهموم . وأرادا به العظيم ، ثم إنه بايع لهما وسلم لهما ، وأقاما لايشركانه فى أمرهما ، ولا يطلعانه على سرهما حتى قبضهما الله ، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما ، وسار بسيرهما ، فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصى من أهل المعاصى ، فطلبتما له الغوائل وأظهرتما عدوانكما ، حتى بلغتما فيه مناكما . فخذ حذرك يابن أبى بكر ، وقس شبرك بفترك يقصر عن أن توازى أو تساوى من يزن الجبال بحلمه ، لايلين عن قسر قناته ، ولا يدرك ذو مقال أناته ، مهد مهاده ، وبنى للملك وشاده ، فإن يك مانحن فيه صواباً ، فأبوك استبد به فنحن شركاؤه ، ولولا مافعل أبوك من قبل ماخالفنا ابن أبى طالب ، ولسلمنا إليه ، ولكن رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا ، فأخذنا بمثله ، فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك ، والسلام على من أناب .

* * *

ومر على محمد بن أبى بكر شهر وهو فى مصر يفكر فى قتال هؤلاء المعتزلين ، وكان كلما هم بقتالهم تذكر مادار بينه وبين قيس بن سعد يوم خلا به وناجاه

وقال : « إنك جئت من عند امرئ لارأى له ، وليس عزلكم إياى بمانعى أن أنصح لكم ، وأنا من أمركم هذا على بصيرة » . ونصحه قيس ألا يقاتل أهل خربتا ولكن محمدا اغتشه وقر رأيه أخيرا على قتالهم . فبعث إليهم : « ياهؤلاء إما أن تدخلوا فى طاعتنا ، وإما أن تخرجوا من بلادنا » فبعثوا إليه : « إنا لانفعل، دعنا حتى ننتظر إلى ماتصير إليه أمورنا . ولا تعجل بحربنا » ، فأبى عليهم ذلك ، فأخذوا حذرهم ، وجعلوا يتتبعون أخبار معاوية فى الشام ، فلما كانت وقعة صفين وبلغهم أن معاوية قد صبر لعلى ، وأن علياً قد رجع عن معاوية وصار أمرهما إلى الحكومة ، شد ذلك من أزرهم فاجترأوا على محمد بن أبى بكر وأظهروا له العداوة فلما أصبحت عداوتهم سافرة ، ومناوءتهم ظاهرة ، بعث إليهم جيشا ، فدار القتال بين أهل خربتا وجيش محمد ، وانهزم الجيش وقتل قائده ، فبعث محمد جيشاً آخر لم يك أحسن حظا من سابقه ، فقد لحقته الهزيمة ، وسقط القائد قتيلا ، فضاعت هيبة محمد ، وخرج معاوية بن خديج الكندى أحد زعماء خربتا يدعو إلى الطلب بدم عثمان ، فأجاب ناس آخرون ، فبالمحمد فقد فسدت مصر عليه وابتدأت فى الوثوب عليه .

وبلغ على وثوب أهل مصر على محمد ، فقال . « مالمصر إلا أحد الرجلين صاحبنا الذى عزلناه عنها ، أو مالك بن الحارث (الأشتر) وعزم على على تسيير الأشتر إلى مصر فبعث إليه : « أما بعد . فإنك ممن استظهرته على إقامة الدين . وأقمع به نخوة الآثيم ، وأشد به الثغر المخوف ، وكنت قد وليت محمد بن أبى بكر مصر ، فخرجت عليه بها الخوارج ، وهو غلام حدث ليس بذى تجربة للحرب ، ولا مجرب للأشياء فأقدم على لننظر فى ذلك فيما ينبغى ، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام » .

فأقبل الأشتر ، وسرحه على إلى مصر ، وبلغ ذلك معاوية فساءه ، فإن الأشتر قوى الشكيمة . وإن معاوية ليطمع فى مصر ، فلو أنها صارت إلى الأشتر لامتنعت عليه ، ففكر فى أن يمنع وصوله إلى مصر ، فتفتق ذهن الداهية عن حيلة ليس لها

من رد ، فوضع رجلا فى طريق الأشتر فلما مر به استقبله الرجل فقال :

« هذا منزل . وهذا طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج » فنزل الأشتر وأتاه الرجل بعلف وطعام ، حتى إذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سما فسقاه إياه . فلما شربها نال معاوية مبتغاه .

وبلغ محمد بن أبى بكر أن علياً بعث الأشتر فشق ذلك عليه ، ووجد موجدة وبلغ على موت الأشتر وموجدة محمد ، فبعث إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين إلى محمد بن أبى بكر : سلام عليك . أما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الأشتر إلى عملك ، وإنى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ، ولا ازدياداً منى لك فى الجد ، ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك فى المؤونة ، وأعجب إليك ولاية منه ، إن الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحا ، وعلى عدونا شديداً ، وقد استكمل أيامه ، ولاقى حمامه ، ونحن عنه راضون ، فرضى الله عنه وضاعف له الثواب ، وأحسن له المآب ، اصبر لعدوك ، وشمر للحرب ، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر الله ، والاستعانة به ، والخوف منه يكفك ما أهمك ويعينك على ما ولاك ، أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته والسلام عليك » .

وبلغ كتاب على محمدا فهدأت نفسه وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله على أمير المؤمنين من محمد بن أبى بكر : سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله غيره ، أما بعد : فإنى قد انتهى إلى كتاب أمير المؤمنين ففهمته وعرفت ما فيه ، وليس أحد من الناس بأرضى منى برأى أمير المؤمنين ، ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه منى ، وقد خرجت فعسكرت وآمنت الناس إلا من نصب لنا حرباً وأظهر لنا خلافا ، وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظه ، ملتجىء إليه وقائم به ، والله المستعان على كل حال والسلام » .

وبايع أهل الشام لمعاوية ، فطمع فى مصر وبعث إلى الثوار ليشد من أزرهم

فأرسل إلى معاوية بن خديج الكندى ومسلمة بن مخـــلد الأنصاوى : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الله قد ابتعثكما لأمر عظيم ، أعظم به أجركما ، ورفع به ذكركما وزينكما به فى المسلمين ، طلبكما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبكما لله إذ ترك حكم الكتاب ، وجاهدتما أهل البغى والعدوان ، فأبشروا برضوان الله ، وعاجل نصر أولياء الله » .

فبعثا إلى معاوية يطلبان منه أن يمدهما بجيش ، فأوفد عمرو بن العاص فى ستة آلاف رجل ، وانطلق الثوار للانضمام إلى جيش ابن العاص .

ونزل عمرو أدانى أرض مصر ، وكان عبد الرحمن بن أبى بكر فى جيشه ، فقد انضم إلى معاوية بعد أن أعاد ليلى إلى أهلها ، وحارب على معه ، وخرج إلى مصر ليقاتل جيش أخيه ، فيالآل أبى بكر ، انقسما معسكرين ، وقاتل الأخ أخاه .

وأرسل عمرو إلى محمد بن أبى بكر كتابا ، وأعطى الرسول كتاب معاوية إليه فلما تسلم الرسالتين ، فض الأولى فإذا هى رسالة عمرو فقرأ : « أما بعد ، فتنح عنى بدمك يابن أبى بكر ، فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفضوا أمرك ، وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك . لقد التقت حلقتا البطان ، فاخرج منها فإنى لك من الناصحين والسلام » . ففض كتاب معاوية وقرأ : « أما بعد فإن غب البغى والظلم عظيم الوبال ، وإن سفك الدم الحرام لايسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا ، ومن التبعة الموبقة فى الآخرة ، وإنا لانعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ولا أسوأ له عيبا ، ولا أشد عليه خلافا منك ، سعيت عليه فى الساعين ، وسفكت دمه فى السافكين ، ثم أنت تظن أنى عنك نائم ، أو ناس لك حتى تأتى فتأمر على بلاد أنت فيها جارى ، وجل أهلها أنصارى يرون رأيى ، ويرقبون قولى ، ويستصرخونى عليك ، وقد بعثت إليك قوما حناقا عليك ، يستسقون دمك ، ويتقربون إلى الله بجهادك ، وقد أعطوا الله عهدا أن يمثلن بك ، ولو لم يكن منهم إليك ماعدا قتلك ماحذرتك ، ولا أنذرتك ولأحببت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك وعدوك على عثمان »

فطوى محمد كتابيهما وبعث بهما إلى على وكتب معهما :

« أما بعد فإن ابن العاص قد نزل أدانى أرض مصر واجتمع إليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم ، وقد جاء فى جيش لجب خراب . وقد رأيت ممن قبلى بعض الفشل ، فإن كان لك فى أرض مصر حاجة ، فأمدنى بالرجال والأموال والسلام عليك » .

وكتب إلى معاوية: « أما بعد فقد أتانى كتابك ، تذكرنى من أمر عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه ، تأمرنى بالتنحى عنك كأنك لى ناصح ، وتخوفنى المثلة كأنك شفيق ، وأنا أرجو أن تكون لى الدائرة عليكم فأجتاحكم فى الوقعة ، وإن تؤتوا النصر ، ويكن لكم الأمر فى الدنيا ، فكم لعمرى من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به ، وإلى الله مصيركم ومصيرهم ، وإلى الله مرد الأمور ، وهو أرحم الراحمين ، والله المستعان على ماتصفون والسلام .

وكتب إلى عمرو بن العاص : « أما بعد فقد فهمت ماذكرت فى كتابك يابن العاص ، زعمت أنك تكره أن يصيبنى منك ظفر ، وأشهد أنك من المبطلين ، وتزعم أنك لى نصيح ، وأقسم أنك عندى ظنين ، وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيى وأمرى ، وندموا على اتباعى ، فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء ، فحسبنا الله رب العالمين .

الفصل التاسع والعشرون

فى جوف حمار

دخل رسول محمد بن أبى بكر الكوفة ، وانطلق إلى أمير المؤمنين ، فلما فرغ على من قراءة الكتب الثلاثة ، خرج إلى الجامع وأمر فنودى الصلاة جامعة ، فتوافد الناس ، وقام على وقال :

ـــ أما بعد : فإن هذا صريخ محمد بن أبى بكر وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله ، وولى من عادى الله ، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعاً منكم على حقكم هذا ، فإنهم قد بدأوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر . عباد الله إن مصر أعظم من الشأم أكثر خيرا وخير أهلا ، فلا تغلبوا على مصر : فإن بقاء مصر فى أيديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم ، اخرجوا إلى الجرعة بين الحيرة والكوفة ، فوافونى بها هناك غداً إن شاء الله .

وانصرف على ، وانقضى الليل وهو يفكر فى انتداب الناس إلى الخروج إلى مصر لشد أزر ابن الصديق ، ولما لاح نور الصباح خرج يمشى إلى الجرعة فنزلها بكرة ، وأقام بها وانتظر الناس الذين سيوافونه هناك ، ومرت ساعات ولم يوافه منهم رجل واحد ، فحز ذلك فى نفسه ، وضاق صدره ، ولكنه تواصى بالصبر والانتظار فأخذت الساعات فى المرور ، ولم يقدم أحد فحزن واكتأب فما بال القوم لايجيبون دعوته ؟ ! وانتصف النهار واعتلت الشمس كبد السماء ، فقام عائداً والأسى يهصر قلبه ، والحنق يملأ صدره ، وساءه معاوية يدعو قومه فيتبعونه ، وهو يدعو من حوله فيقومون عنه ويعصونه ، إنه ليتمنى فراق القوم الذين ابتلاه الله بهم ، وراح يفكر فى صريخ محمد بن أبى بكر ، فازداد حزناً على حزن ، ودخل الدار مطأطىء الرأس ، كسير الفؤاد ، يحس للحزن وخزا ، وانقضى النهار

ولم تهدأ نفسه ، بل كان كلما تذكر ماأصابه من أنصاره زاد غماً ، فلما كان من العشى بعث إلى أشراف الناس ، فدخلوا عليه وهو حزين كئيب ، فالتفت إليهم وقال لهم :

— الحمد لله على ماقضى من أمرى ، وقدر من فعلى ، وابتلانى بكم أيتها الفرقة ممن لايطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت ، لاأبا لغيركم ماتنتظرون بصبركم والجهاد على حقكم ، الموت والذل لكم فى هذه الدنيا على غير الحق ، فوالله لئن جاء الموت وليأتين ليفرقن بينى وبينكم ،وأنا لصحبتكم قال ، ولكم غير ضنين ، لله أنتم لادين يجمعكم ، ولا حمية تحميكم ، إذا أنتم سمعتم بعدوكم يرد بلادكم ، ويشن الغارة عليكم ، أو ليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ، ويجيبونه فى السنة المرتين والثلاث إلى أى وجه شاء ، وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة ، وطائفة منكم على العطاء ، فتقومون عنى ، وتعصوننى وتختلفون على .

وصمت على وقد بلغ التأثر به منتهاه ، ورأى مالك بن كعب الهمدانى تأثر الإمام العميق ، وحزنه الشديد فقام إليه وقال :

— يا أمير المؤمنين أندب الناس ، فإنه لاعطر بعد عروس ، لمثل هذا اليوم كنت أدخر نفسى ، والأجر لايأتى إلا بالكره ، اتقوا الله ، وأجيبوا إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوه ، أنا أسير إليها يا أمير المؤمنين .

وراح منادى على ينادى فى الناس : «ألا انتدبوا إلى مصر مع مالك بن كعب » فلم يسارع الناس إلى الانتداب ، وانقضت أيام ، وتأهب الخارجون للخروج وخرج مالك وخرج على معه فنظر فإذا جميع من خرج نحو ألفى رجل ، فظهر الأسى فى وجهه ، وتيقن أن مصر قد خرجت من يده ، فقال لمالك :

— سر ، فوالله ما أخالك تدرك القوم حتى ينقضى أمرهم .

* * *

نزل عمرو أدانى مصر ، فقام محمد بن أبى بكر فى الناس يحضهم على القتال فقال :
ــ معاشر المسلمين والمؤمنين ، فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة ، وينعتون الضلال ، ويشبون نار الفتنة ، ويتسلطون بالجبرية ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود ، عباد الله فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم فى الله . انتدبوا عباد الله مع كنانة بن بشر .

فانتدبوا مع كنانة نحو من ألفى رجل ، وخرجوا لقتال عمرو وجيش الشام ، وخرج ابن أبى بكر فى ألفى رجل ، وانطلق كنانة على مقدمة محمد حتى التقى بجيش عمرو ، فسرح عمرو الكتائب كتيبة بعد كتيبة ، فراح كنانة يشد على كل كتيبة تصطدم به فيضربها حتى يقربها بعمرو ، ورأى عمرو مايفعل كنانة بجيشه ، فبعث إلى حليفه معاوية بن خديج ، فجاء معاوية فى جيش عظيم ، فأحاط بكنانة وأصحابه واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب ، فلما رأى كنانة ماحل بجيشه ، نزل عن فرسه وقد عزم على أن يبقى فى الميدان منتصباً حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، وشرع سيفه ، وراح يقرأ : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » .

وكشر عن أنيابه ، وجعل يلعب بسيفه ورمحه ، واستمر يقاتل ويذب عن نفسه حتى أصابه كلال ، إن القوم يحيطون به ويطلبونه ، وإن الموت منه قريب ، فلم يجزع واستمر ثابتاً فى مكانه يمشى مشى الفحول ، وخلصت إليه الجراح ، وانبثق الدم انبثاقا فوهنت يده ، ورأى أعداءه أشباحا تترافع أمام عينيه ، ودارت الدنيا به ولكنه تجلد ، وحاول أن يثبت على قدميه ، ولكن طعنة خاصت إلى قلبه فسقط مجدلا ، فلما رأى أهل مصر ما أصاب قائدهم تفاروا ، وانهزموا مذعورين ، فاقتفى عمرو أثرهم ، وراح يطلب محمد بن أبى بكر ، ولكنه لم يجد لجيش محمد أثراً فقد تفرق عنه أصحابه لما بلغهم قتـــل كنانة ، فاستمر عمرو فى سيره حتى نزل فسطاط مصر .

تفرق عن محمد أصحابه حتى بقى وما معه واحد منهم ، فخرج يمشى فى الطريق يضرب على غير هدى ، واستمر فى سيره حتى بلغ منه الجهد ، وأصابه الإعياء فشاء أن يستريح ، فهم أن يجلس ، ولكنه تذكر أن القوم يطلبونه ، فتحامل واستأنف سيره ، وجعل يتلفت خلفه ، حتى وهنت قواه ، ولمح خربة فى ناحية الطريق ، فيمم صوبها وجعل يجر رجليه جراً حتى دخلها ، وأوى إليها ، وراح يلتقط أنفاسه ، وكان كلما أحس حركة تلفت مذعوراً ، وشعر بظمأ شديد ، وبجفاف قاتل فى حلقه ، ففكر فى أن يطلب ماء ولكنه خشى أن يعثر عليه أعوان عمرو ، فبقى فى مكانه ، ودخل الخربة رجل فتملق محمد واضطرب ، وحاول أن يقوم ليختفى ولكن جسمه كان قد حن إلى الراحة ، فثبت فى مكانه وثبتت عيناه على الرجل ، حتى إذا ماخرج عاد إلى نفس محمد طمأنينتها ، وبقى فى الخربة وحده فريسة العطش الشديد .

دخل عمرو الفسطاط ، وجعل معاوية بن خديج ينقب عن محمد بن أبى بكر ثم خرج فى طلبه ، وبلغ عبد الرحمن بن أبى بكر خروج معاوية فى طلب أخيه فأوجس خيفة ، فإن ابن خديج لن يرجع عن قتله إذا ماوقع فى يده ، فانطلق عبدالرحمن إلى عمرو بنفس وجلة مضطربة ، إنه ليخشى أن يبطش ابن خديج بمحمد ، ودخل على عمرو وقد نسى كل شىء إلا أن محمداً أخوه . وأن الخطر يحف به . وأن الموت يدنو منه كلما دنا ابن خديج من مكمنه فاقترب من عمرو وقال :

ــ ياعمرو أتقتل أخى صبرا ؟

فأطرق عمرو ولم يحر جواباً ، فقال عبد الرحمن فى غضب :

ــ ابعث إلى معاوية بن خديج فانهه .

فلم يحرك عمرو ساكناً فثار عبدالرحمن ، فنادى عمرو رجلا وقال له :

ــ اخرج إلى معاوية بن خديج ومره أن يأتى بمحمد بن أبى بكر .

فخرج الرسول فى أثر ابن خديج ، وراح يطوى الأرض حتى بلغه وهو يسأل الناس فى قارعة الطريق : « هل مر بكم أحد تنكرونه ؟ » فأبلغه أمر عمرو .

واستمر ابن خديج وأصحابه يضربون فى الطريق حتى اقتربوا من الخربة فألفوا رجلا فى الطريق ، فسأله ابن خديج :

— هل مر بك أحد تنكره ؟

— لا والله ، إلا أنى دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل فيها جالس .

فتهللت أسارير ابن خديج وصاح :

— هو هو ورب الكعبة .

فانطلق ابن خديج وأصحابه يركضون حتى دخلوا عليه ، فلم يقاوم بل استسلم لهم ، لأن العطش يكاد يقضى عليه ، وعاد معهم إلى عمرو ورأى عبد الرحمن أخاه أسيراً فى أيدى أعدائه ، فخفق قلبه وأحس غصة فى حلقه ، واقترب من ابن خديج وطلب منه أن يخلى عنه ، فصاح معاوية :

— أكذاك قتلتم كنانة بن بشر وأخلى أنا عن محمد بن أبى بكر ، هيهات . أكماركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر .

والتفت محمد إلى عبد الرحمن وقال :

— اسقونى من الماء .

فهم عبد الرحمن بإحضار الماء ولكن ابن خديج قال :

— لا سقاه الله إن سقاك قطرة أبدا ، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً فتلقاه الله بالرحيق المختوم ، والله لأقتلنك يابن أبى بكر فيسقيك الله الحميم الغساق .

فقال له محمد :

— يابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك إليك وإلى من ذكرت ، وإنما ذلك إلى الله عز وجل يسقى أولياءه ، ويظمىء أعداءه أنت وضرباؤك ومن تولاه . أما والله لو كان سيفى فى يدى مابلغتم منى هذا .

فثارت ثائرة عبد الرحمن ، فإن سيفه فى يده ، وإنه ليتمنى أن يقتل هؤلاء

جميعاً ليخلص أخاه ولكن مايفعل فرد فى هذه الجموع الكثيرة الثائرة التى تتعطش إلى دم أخيه ، فبقى فى مكانه والحزن يحز فى نفسه حزاً ، فإن أخاه يقتل أمام عينيه وهو لا يحرك ساكنا ، والتفت ابن خديج إلى محمد وقال فى شماتة :

— أتدرى ما أصنع بك ؟ أدخلك فى جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار .

فقال محمد فى ثبات :

— إن فعلتم بى ذلك فطال ما فعل ذلك بأولياء الله ، وإنى لأرجو هذه النار التى تحرقنى بها أن يجعلها الله على برداً وسلاما كما جعلها على خليله إبراهيم ، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه ، إن الله يحرقك ومن ذكرته قبل ، وإمامك وهذا (وأشار إلى عمرو) بنار تلظى عليكم كلما خبت زادها الله سعيراً .

فثارت ثائرة ابن خديج وقال :

— إنى إنما أقتلك بعثمان :

— وما أنت وعثمان ؟ ! .

فاستل ابن خديج سيفه ، وضرب به عنق محمد ، ففاضت روح عابد قريش ، وربيب على ، وابن الصديق ، وأحس عبد الرحمن كأن سيفاً قد غاص فى قلبه فمزقه ، وشعر بروحه تدمى ، واستولى عليه حزن شديد ، فقد رأى مصرع أخيه الأليم ، وشاهد الفاجعة العظمى ولم يستطع لها دفعاً ، فجعلت نار الغيظ تأكل صدره ، ولم يكتف ابن خديج بقتل محمد ، بل حز رأسه وبعث بها إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام ، وجاء بحمار ، وأدخل محمد فى جوفه ثم أحرقه عليه بالنار ، فلما رأى عبد الرحمن ما يفعل ابن خديج بجسد أخيه ثارت ثائرته ، وهجم عليه ، ولكن القوم أحاطوا به ، وتكاثروا عليه ومنعوه واندلعت ألسنة النار ، فبان الألم المروع فى وجه عبد الرحمن ، وأحس كأن النار تشوى كبده ، وتلسع روحه لسعاً ، وفاحت رائحة الشواء ، وملأت خياشيمه ، فأحس بها ناراً تملأ صدره ، فتأوه ألماً ، وأخذت النار فى الخمود ، وابتدأ الناس فى الانصراف حتى أقفر المكان إلا من

الشواء وعبد الرحمن ، ثم انصرف عبد الرحمن ودمعه جار ، يكاد يجن من شدة الألم .

* * *

كان الحجاج بن غزية الأنصارى مع محمد بن أبى بكر فى مصر فلما رأى مقتله المروع خرج إلى على ليحدثه بما رأى وعاين ، فانطلق إلى الكوفة ليبلغ الإمام خروج مصر من يده ، وهلاك محمد ومصرعه . وكتب عمرو إلى معاوية :

« أما بعد فإنا لقينا محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر فى جموع جمة من أهل مصر ، فدعوناهم إلى الهدى والسنة وحكم الكتاب ، فرفضوا الحق وتوركوا فى الضلال ، فجاهدناهم ، واستنصرنا الله عليهم ، فضرب الله وجوههم وأدبارهم ، ومنحونا أكتافهم ، فقتل الله محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر وأماثل القوم ، والحمد لله رب العالمين والسلام عليك » ودفع بالكتاب إلى رسول فخرج الرسول إلى الشام يحمل إليهم نبأ فتح مصر وقتل ابن الصديق ، وبلغ الكتاب معاوية فظهر الرضى فى وجهه ، وأذن على المنبر بقتل محمد فأظهر الناس سرورهم وسمع عبد الرحمن بن شبيب الفزارى بقتل محمد فحزن وساءه النبأ فقد كان عين على بالشام ولما استوثق من هلاك محمد ، خرج ليأتى علياً بالنبأ الفادح .

رأى عبد الرحمن بن أبى بكر مصرع أخيه ، فجعل يتلوى من الألم ، وانصرف وقد شفه الحزن ، ولم تطفىء دمعه النار التى تأججت فى صدره : لقد قتل محمد ولم يكتف بقتله ، بل مثل به وما أبشعها من مثلة ، فياليت عبد الرحمن ما خرج مع القوم الجفاة ، وعزم على الانطلاق إلى دار أخيه ليحمل أهله إلى عائشة . وما ذكر عائشة حتى ازداد حزناً ، فستجزع على محمد أشد الجزع ، وستبكيه أحر البكاء ، فإنه ليعلم مقدار حبها لآل الصديق . وجهز عبد الرحمن أهل بيت أخيه وحملهم وخرج إلى مدينة الرسول مخلفا وراءه فاجعة مروعة ، وذكرى أليمة لا يخفف من آلمها كر السنين .

ودخل الأنصارى الكوفة ، وأقبل بعده الفزارى ، وقدما على على ، فراح

الأنصارى يقص ما رأى ، فرؤى الحزن فى وجه الإمام وتبين فيه ، وقال الفزارى :

ـــ إنى لم أخرج من الشأم حتى قدمت البشراء من قبل عمرو بن العاص تترى يتبع بعضها بعضا بفتح مصر وقتل محمد بن أبى بكر ، وحتى أذن بقتله على المنبر .
وأطرق الجميع ، وساد الحزن المكان ثم قال الفزارى فى حزن :

ـــ يا أمير المؤمنين ، قلما رأيت قوما قط أسر ، ولا سرورا قط أظهر من سرور رأيته بالشأم حين أتاهم هلاك محمد بن أبى بكر .

فقال على :

ـــ أما إن حزننا عليه على قدر سرورهم به ، لا بل يزيد أضعافا .

وبعث على إلى القوم المنطلقين إلى مصر الانضمام إلى محمد ليردهم من الطريق ، فقد انتهى الأمر ، وقتل محمد ، وما ساروا إلا خمسا ، وقام على فى الناس خطيبا ، وقد تملكه الحزن والغضب ، فحمدالله وأثنى عليه وصلى على رسوله (ص) وقال :

ـــ ألا إن مصر قد افتتحها الفجرة أولو الجور والظلم الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجا . ألا وإن محمد بن أبى بكر قد استشهد رحمه الله فعند الله نحتسبه ، أما والله إن كان ما علمت لممن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحب هدى المؤمن ، إنى والله ما ألوم نفسى على التقصير ، وإنى لمقاساة الحرب لجد خبير ، وإنى لأقدم على الأمر ، وأعرف وجه الحزم ، وأقوم فيكم بالرأى المصيب ، فأستصرخكم معلنا ، وأناديكم نداء المستغيث معربا . فلا تسمعون لى قولا ، ولا تطيعون لى أمرا ، حتى تصير بى الأمور إلى عواقب المساءة ، فأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر ، ولا ينقض بكم الأوتار ، دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فتجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليس له نيه فى جهاد العدو ، ولا اكتساب الأجر ، ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب كثيره يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، فأف لكم .

* * *

وبلغ النبأ الفادح عائشة فأذهلها ، وقبض صدرها ، وأسال الدمع مدرارا من مآقيها ، وجعلت تردد :

— كنت أعده ولدا وأخا ، وكان له فضل وعبادة .

ولم تستطع أن تكبت حزنها فراحت تدعو على معاوية وعمرو فى دبر كل صلاة وعيونها تسح ، وقلبها يفيض شجنا ، وقدم عبد الرحمن عليها ومعه ابنا أخيه ، فلما رأتهما عائشة ضمتهما إلى صدرها فى حنان ، وجعلت تقبلهما فى وله وخانتها عيونها ، فلم تقدر على حبس دموعها فطفرت وانهمرت ، فتجددت أحزان عبد الرحمن فأحس العبرات تخنقه ، والحزن يجثم على صدره ويهصر قلبه هصرا .

وشاء عبد الرحمن أن يضم الصغيرين إلى عياله ولكن عائشة مانعت وقبضتهما إليها لتعوضهما حنان الأب الراحل ، فأغضب ذلك عبد الرحمن فترك الدار وقد عزم فى نفسه على ألا يعود بعدها إلى عائشة .

ومرت الأيام ، وعبق الجو برائحة شواء ، وملأت الرائحة أنف عائشة ، فتغيرت هيئتها واكفهر وجهها ، وأحست سكينا يقطع نياط قلبها ، فقد أعادت الرائحة إلى أعين خيالها المأساة المروعة ، فثارت ففطن من فى الدار إلى الباعث على هذه الثورة فعملوا على ألا يشوى شواء بعدها ، وعاشت عائشة لا ترى شواء ، ولا تذوق له طعما .

الفصل الثلاثون

مسرح الحياة

مرت الحوادث ، وكرت السنون ، فدالت دولة ، وقامت دولة ، واختفى من مسرح الحياة أناس لطالما اضطلعوا بدور البطولة ليحل مكانهم منافسوهم الذين طالما اشتهوا القيام بهذه الأدوار الحبيبة إلى النفوس ، والذين طالما دسوا لمنافسيهم وناوأوهم حتى أزالوهم من طريقهم ، ليقوموا وحدهم بتمثيل الرواية ، وما تبتدىء الرواية فى الانطلاق ، وما إن يأخذ كل ممثل فى تمثيل دوره حتى تثور فرقة أخرى وتدعى أنها أحق بتمثيل هذه الرواية ، فتبتدىء المناوشات بين الفرقتين ، ثم تشتد المناوشات فتصبح قتالا ، ثم ينجلى القتال عن انتصار فرقة ، فتحتل المسرح وتبتدىء فى التمثيل ، فتقوم فرقة جديدة ، أو فرقة مكونة من فلول المنهزمين ، وتدعى أحقيتها بالرواية فتتكرر الحوادث ، وتعاد الفعال ، وتأخذ عجلة الزمن فى الدوران لتطوى هؤلاء وهؤلاء ، وتنشر آخرين تبهرهم الرواية فيتوقون إليها ويتطلعون ، فينقسمون ويتناحرون ، فمن يفوز بالدور الأول يقتله خصمه أو يطويه عمره .

قتل على ، وارتدى معاوية ثياب الخلافة ، فراح يقسم الولايات على أنصاره وأعوانه ، فدالت دولة بنى هاشم وقامت دولة بنى أمية ، ولم يرض الهاشميون عن هذا ، فجعل الحسين بن على يرقب الحوادث ليثب على من سلبه سلطان أبيه ، ورأى ابن الزبير أنه أحق بمن يقوم بدور الخليفة ، وتمنت أسماء أن ترى ابنها يخطر على مسرح الحياة فى ثياب الخلافة ، فهو الفارس العابد وابن حوارى الرسول وحفيد الصديق ، فأخذت تحضه على طلبها ، فراح ابن الزبير ينتظر الفرصة المواتية ليضع العراقيل فى سبيل الخليفة الجديد ، وانطلقت الرواية فى طريقها التقليدى ، فولى معاوية عمرو بن العاص على مصر . فلما مات ولى ابنه عبد الله ، ولكن لما كان هناك فى مصر أناس ساعدوه على اغتصابها ينتظرون الأجر ، فقد عزل عبد الله

وولى معاوية بن حديج الذى ثار على محمد بن أبى بكر وقتله ، وحدث أن مر به عبد الرحمن بن أبى بكر وقد جاء من الاسكندرية فقال له :

— يا معاوية قد لعمرى أخذت من معاوية جزاءك ، قتلت محمد بن أبى بكر لأن تلى مصر فقد وليتها .

— ما قتلت محمد بن أبى بكر إلا بما صنع بعثمان .

— فلو كنت إنما تطلب بدم عثمان لم تشرك معاوية فيما صنع ، حيث صنع عمرو بن العاص بالأشعرى ما صنع ، فوثبت أول الناس فبايعته . وخرج عبدالرحمن وبقى ابن حديج فرحان بدوره الجديد الذى يمثله ، ولكنه لو درى أن دوره هذا أقصر مما يظن ، وأن معاوية عما قليل يعزله ليولى مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى عاونه أيضاً فى اغتصاب مصر وينتظر جزاءه ، لعلم أن فرحه سراب .

ونمت عائشة بنت طلحة وتفتحت فى بيت خالتها عائشة ، فكانت باهرة الحسن ، رائعة الجمال ، وقد أهلها جمالها لتبرز على مسرح الحياة لتكون قبلة العيون وأمنية النفوس ، إن شباب آل الصديق يتمنونها جميعا ، ترى من بها يفوز ؟

وجمع المسجد الحرام بين عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة ، فقال بعضهم :

— هلم فلنتمنه .

فأطرق عبد الله قليلا ، ولما كانت الخلافة هى شغله الشاغل ، وأمنية الليل والنهار ، فإنه رفع رأسه وقال :

— منيتى أن أملك الحرمين ، وأنال الخلافة .

وقال مصعب ، وهو فتى طموح يحب الدنيا ويحب الملك :

— منيتى أن أملك العراقين ، وأجمع بين عقيلتى قريش : سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة .

وقال عبد الملك ، وهو فتى بنى أمية ، المتطلع إلى ملك الآباء :

— منيتى أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية .

ولم يبق إلا عروة الزاهد فى الدنيا ، الطامع فيما عند الله فقال :

— لست فى شىء مما أنتم فيه ، منيتى الزهد فى الدنيا ، والفوز بالجنة فى الآخرة.

* * *

وجلست أم المؤمنين وقد جلس بجوارها القاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد وقد قويا على أنفسهما ، فتذكرت إعراض عبد الرحمن عنها منذ قبضتهما إليها ، ففكرت فى أن تدعو أخاها وتدفع بهما إليه ، فبعثت إلى عبد الرحمن فلما وافاها قالت :

— يا أخى ، إنى لم أزل أراك معرضاً عنى منذ قبضت البنين منك ، ووالله ما قبضتهما تطاولا عليك ، ولا تهمة لك فيهما ، ولا شىء تكرهه ، ولكن كنت رجلا ذا نساء ، وكانا صبيين لا يكفيان من أنفسهما شيئاً ، فخشيت أن يرى نساؤك منهما مايتقذرن به من قبيح أمر الصبيان ، فكنت ألطف لذلك وأحق لولايته ، فقد قويا على أنفسهما ، وشبا وعرفا ما يأتيان ، فهاهما هذان فضمهما إليك ، وكن لهما كجحية بن المضرب أخى كنده ، فإنه كان له أخ يقال له معدان فمات وترك صبية صغاراً فى حجر أخيه ، فكان أبر الناس بهم وأعطفهم عليهم ، وكان يؤثرهم على صبيانه فمكث بذلك ما شاء الله ، ثم أنه عرض له سفر ، لم يجد بداً من الخروج فيه ، فخرج وأوصى بهم امرأته ، وكانت إحدى بنات عمه ، وكان يقال لها زينب ، فقال لها : « اصنعى ببنى أخى ما كنت أصنع بهم » ثم مضى لوجهه ، فغاب شهراً ، ثم رجع وقد ساءت حال الصبيان وتغيرت ، فقال : « ويلك مالى أرى بنى معدان مهازيل ، وأرى بنى سمانا ؟ » قالت : « قد كنت أواسى بينهم ولكنهم كانوا يعبثون ويلعبون » . فخلا بالصبيان وقال : « كيف كانت زينب تفعل بكم ؟ » فقالوا : « سيئة ، ما كانت تعطينا من القوت إلا ملء هذا القدح من لبن » وأروه قدحاً صغيراً ، فغضب على امرأته غضباً شديدا ، وتركها حتى إذا راح راعياً إبله قال لهما : « فأنتما وإبلكما لبنى معدان » فغضبت من ذلك زينب وهجرته . وضربت بينه وبينها حجابا ، فقال لها : « والله لا تذوقين منها صبوحا ، ولا غبوقاً أبداً » وقال فى ذلك :

لججنا ولجت هذه فى التعصب ... ولط الحجاب بيننا والتجنب
وخطت بودى أثمد جفن عينها ... لتقتلنى وشد ماحب زينب
تلوم على مال شفانى مكانه ... فلومى حنانى ما بدا لك واغضبى
رحمت بنى معدان إذ قل ما لهم ... وحق لهم منى ورب المخضب
وكان اليتامى لايسد اختلالهم ... هدا بالهم فى كل قعب مشعب
فقلت لعبدينا أريحا عليهم ... ما جعل بيتى بيت آخر مغرب
وقلت خذوها واعلموا أن عمكم ... هو اليوم أولى منكم بالتكسب
عيالى أحق أن ينالوا خصاصة ... وأن يشربوا زنقاً إلى حين مكسب
أحابى بها منْ لو قصدت لما له ... حزيناً لآسانى على كل مركب
أخى والذى إن أدعه لعظيمة ... يجبنى وإن أغضب إلى السيف يغضب

فلما بلغ هذا الشعر زينب ، خرجت حتى أتت المدينة فأسلمت وذلك فى ولاية عمر بن الخطاب ، فقدم حجية المدينة ، فطلب زينب أن ترد عليه ، وكان نصرانيا ، فنزل بالزبير ، فأخبره بقصته ، فقال له : « إياك أن يبلغ هذا عنك عمر فتلقى منه أذى ، وانتشر خبر حجيه بالمدينة ، وعلم فيم كان مقدمه فبلغ ذلك عمر ، فقال للزبير : « قد بلغنى قصة ضيفك ، ولقد هممت به لولا تحرمه بالنزول عليك » فرجع الزبير إلى حجيه ، فأعلمه قول عمر ، فمدحه بأبيات ، ثم انصرف من عنده متوجهاً إلى بلده ، آيسا من زينب ، كئيباً حزينا ، وأنا والله يا أخى خشيت عليك من مثل ذلك ، لئلا يصيبك من نسائك ما أصاب حجية وزينب .

وصمتت عائشة قليلا والتفتت إلى ابنى محمد وقالت :

— أما الآن فقد كبرا فخذهما .

فأخذ عبد الرحمن القاسم وعبد الله ابنى أخيه وخرج وقد بان فى وجهه الرضا والسرور .

* * *

رأت أم المؤمنين عائشة نضوج عائشة بنت طلحة ونضارتها ، وحسنها الأخاذ ، فشاءت أن تقدم درة آل الصديق إلى فتى من البيت العريق ، فراحت تفكر لها

فى كفء من شباب الأسرة ، فوجدت أن عبد الله بن أخيها عبد الرحمن أحقهم بها ، فزوجت حفيد الصديق من حفيدة الصديق ، وكانت عائشة الصغيرة ذات دلال ، وكانت معجبة بجمالها ، فجعلت تعرض عن زوجها حينا ، وتضايقه أحيانا ، ولكن زوجها كان يغفر لها هناتها فقد كان يحبها ، وكان متيما بها ، وفى يوم من الأيام صارمت زوجها ، فخرجت من دارها غضبى ، وانطلقت إلى خالتها أم المؤمنين ، فمرت فى المسجد وعليها ملحفة ، فلما رآها الشيخ الفانى أبو هريرة أخذ ، وراعه جمالها فقال :

ــ سبحان الله ، كأنها من الحور العين .

وبقيت عائشة فى بيت أم المؤمنين أربعة أشهر ، وعبد الله غاضبا حانقا ، فقيل له طلقها ، فلم يطاوعه قلبه ، فإنه يهيم بها حباً وإن قست عليه ، وإن ضايقته بسوء خلقها فقال :

يقولون طلقها لأصبح ثاويا   مقيما على الهم أحلام نائم
وإن فراقى أهل بيت أحبهم   لهم زلفة عندى لإحدى العظائم

وصالح عبد الله عائشة ، وعاد إلى البيت ليعود الشقاق والنزاع ، ولينال عبد الله منها عنتاً كثيرا .

الفصل الحادى والثلاثون

هرقلية وكسروية

استتب الأمر لمعاوية ، وكانت فكرة استخلاف ابنه يزيد تراوده ، إنه أحب الناس إليه ، وإنه ليتمنى أن يخلفه ، ولكنه لا يستطيع أن يعلن رغبته ، وأن يكشف أمنيته ، فهناك من يتطلعون إلى الخلافة ، فإذا جهر بما يحب ألب القوم عليه ، فراح يذكر يزيد بالخير كلما واتته فرصة ليحببه إلى الناس ، وليهيئهم لقبوله خليفة عليهم ، وحدث أن قدم المغيرة بن شعبة على معاوية ، وكان المغيرة يعلم هواه فقال له :

— يا أمير المؤمنين قد علمت مالقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف ،وفى عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك علما يفزعون إليـــه ، واجعل ذلك يزيد ابنك .

ووافق هذا القول هوى فى نفس معاوية ، فعزم على أن يدعو إلى تولية ابنه من بعده ، إنه ليعلم أن الطريق شائك ، وأن الصعاب كثيرة ، ولكن كل المتاعب تهون فى سبيل الابن الحبيب ، وفكر معاوية وأمعن فى التفكير ، فهناك فى الحجاز من يفضلون يزيد ، ومن يطمعون فى الخلافة ، فكيف بهم إذا رفضوا البيعة ، وشقوا عصا الطاعة ، ورأى معاوية أن يبدأ محاولته فى الشأم حيث العزةوالأهل فإذا ما أخذ البيعة لابنه تفرغ للحجاز وأهله ولن تعييه الحيل ، ولن يقصردهاؤه عن أن يتفتق عما ينيله رغبته ، ويحقق أمنيته .

واجتمعت عند معاويةوفود الأمصار بدمشق ، فشاءأن يهتبل الفرصةالمواتية فدعا أحد أنصاره وقال له :

— إذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتى وكلامى فاستأذنى فى القيام ، فإذا أذنت لك فاحمد الله تعالى واذكر يزيد ، وقل فيه الذى يحق له عليك

من حسن الثناء عليه ، ثم ادعنى إلى توليته من بعدى ، فإنى قد رأيت وأجمعت على توليته ، فأسأل الله فى ذلك وفى غيره الخيرة وحسن القضاء .

ودعا معاوية آخرين فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ صاحبه وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد .

واعتلى معاوية المنبر ، وفرغ من بعض موعظته ، فقام الرجل فاستأذن فى الكلام ، فأذن له ، فجعل يعدد فضائل يزيد ثم التمس من أمير المؤمنين أن يعزم على مبايعته ، ولا يضيق به ذرعا ، فالله يجمع به الشمل ، ويعظم به الأجر ، ويحسن به الذخر ثم جلس ، فقام آخر ثم آخر ، فلما انتهى أعوان معاوية انشرح صدره فقد قالوا وأحسنوا ، ولكن لم تتم غبطة أمير المؤمنين ، فقد شاء أن يسمع رأى الأحنف من العراق ، فقال : « أين الأحنف ؟ » . فأجابه ، قال : « ألا تتكلم ؟ » فقام الأحنف فحمدالله وأثنى ثم قال :

— أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا فى منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتنف ، ويزيد بن أمير المؤمنين نعم الخلف وقد حلبت الدهر أشطره ، يا أمير المؤمنين فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثم اعص أمر من يأمرك ، لا يغررك من يشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظر للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حيا .

فقام من قام أولا يذب عن يزيد ، ثم قام آخر ، ثم قام معاوية لينذر ويتوعد ويبرق ويرعد لينفس عن الغيظ الذى نزل بصدره لما رأى أن هناك من لا تطيب نفوسهم لتولية ابنه غير هؤلاء النفر القابعين بالحجاز ، المتأهبين للوثوب. وأعرض معاوية عن ذكر البيعة ، ولم يكن إعراضه نهائيا ، بل راح يفكر ويتدبر . ويعمل على تدعيم مركز يزيد.

واستقر عزم معاوية على أن ينطلق إلى المدينة ليفاوض هؤلاء النفر الذين يأبون المبايعة ليزيد ، وليتوعدهم مرة وليعدهم مرارا ، لعله يستطيع أن يطويهم

بدهائه ، أو يشتريهم بماله ، وقدم المدينة فخرج الناس لاستقبال أمير المؤمنين ، فبش لهم وهش ، وراح يتملقهم لعله يكسبهم إلى جانبه فى معركة الخلافة القادمة .

ودخل منزله ، ولم يضيع كثير وقت ، فقد كانت رغبة استطلاع رأى هؤلاء النفر تقلقه فبعث إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب وإلى عبد الله بن عمر وإلى عبد الله بن الزبير ، فلما اكتمل عقدهم ، أمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، والتفت إليهم وقال :

ــ الحمد لله الذى أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيرا ، كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد . فإنى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى . وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيته لكم رضا ، وأنت عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسنا وحسينا إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيى فيها ، وشديد محبتى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيرا يرحمكم الله .

فتكلم عبد الله بن عباس .

ــ الحمد لله الذى ألهمنا أن نحمــده ، واستوجب علينا الشكر على آلائه وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إله الا الله وحدة لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله وصلى الله على محمد وآل محمد ، أما بعد فإنك قد تكلمت فأنصتنا ، وقلت فسمعنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه اختار محمدا صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه وشرفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أخصهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمدا بعلمه وهو العليم الخبير واستغفر الله لى ولكم .

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

ــ الحمد لله أهل الحمد ومنتهاة ، نحمده على إلهامنا حمده ، ونرغب إليه فى تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحدا صمدا ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم . أما بعــد ، فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها

بالقرآن فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبى بكر وعمر، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ، وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه ولأطيع ، وعصى الشيطان وما اختلف فى الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعيا ونحن رعية . فانظر لرعيتك إنك مسئول عنها غدا . وأما ما ذكرت من ابنى عمى وتركك أن تحضرهما . فوالله ما أصبت الحق ، ولايجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم ، فقل أودع ، وأستغفر الله لى ولكم .

ورأى حفيد الصديق أن كلا يطلبها لأهله ، وهو يتمناها ويطلبها لنفسه ، فقام وقال :

— الحمد لله الذى عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمده على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد ، فإن هذه الخلافة لقريش خاصة،تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وانصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلف حسنا وحسينا ، وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك .

وقام عبد الله بن عمر فقال :

— أما بعد ، فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء . ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبى ، فوالله ما أدخلنى مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليس شرطا مشروطا ، وإنما هى فى قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى . فإن كنت تريد الفتيان من قريش فلعمرى إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يغنى عنك من الله شيئا . فنظر معاوية إليهم وقال :

— قد قلت وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى أحب الى من

ابنائهم ، مع أن ابنى قاولتموه وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبنى عبد مناف لأنهم أهل رسول الله ، فلمـــا مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بنى عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يابن الزبير ، وانت يابن عمر منها ، فأما ابنا عمى هذان فليسا بخارجين من الرأى إن شاء الله .

وخرج معاوية إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، ولم يكن سكوته اقتناعه بأن هناك من هو أحق بها من يزيد ، بل كان يفكر ويدبر ، إن الحسن بن على حجر عثرة فى سبيل تولية يزيد ، وإن يزيد أحب إليه من العالمين ، فلو أن الحسن قضى لأصبح الأمر هينا لينا ، فراح معاوية ينتظر وهو يعلم أن الزمن من أعوانه .

ومرض الحسن فأسرع عامل المدينة وكتب إلى معاوية بشكايته ، فكتب إليه معاوية : « إن استطعت أن لايمضى يوم بى يمر إلا يأتينى فيه خبره فافعل » .

إن معاوية ليتعجل النهاية ، وإن الرسل لتفد على الشام كل يوم تحمل أنباء مرض الحسن ، وأقبل الرسول الأخير ، يحمل النبأ المرتقب : إن الحسن قد مات، ودخل على معاوية فى المسجد ودفع إليه بالكتاب ، فلما نشره وقرأه ، بان الفرح فى وجهه ، وأعلن النبأ فى ابتهاج وسجد وسجد من كان معه ، وبلغ ذلك عبد الله ابن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، وساءه ما فعل معاوية ، فدخل عليه وجلس وكان الغضب يأكل صدره ، ومرجل حنقه يكاد أن ينفجر ، والتفت معاوية إليه وقال فى هدوء :

ــ يابن عباس ، هلك الحسن بن على .

فقال ابن عباس فى حزن :

ــ نعم هلك . إنا لله وإنا إليه راجعون . . إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ماسد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك ، ولقد مات وهو خير منك . ولئن اصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيرا منه ؛ جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجبر الله مصيبته ، وخلف

علينا من بعده أحسن الخلافة .

ولم يستطع ابن عباس أن يستمر فى مقالته ، فقد تهدج صوته ، وخنقته عبراته ، فشهق وبكى ، وخيم على المكان وجوم ، ورفرف الحزن فبكى من حضر فى المجلس وبكى معاوية ، ترى أبكوا على الحسن أم بكوا على أنفسهم ؟ والتفت معاوية إلى ابن عباس وقال :

ــ بلغنى أنه ترك بنين صغارا .

ــ كلنا كان صغيرا فكبر .

ــ كم أتى له من العمر .

ــ أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده .

وسكت معاوية يسيرا ، وأطرق يفكر ، فرأى أن يفرق بين الأهل ، لعله يصل إلى أمنيته ، فرفع رأسه وقال :

ــ يابن العباس ، اصبحت سيد قومك من بعده .

ــ أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا .

فضاق صدر معاوية فقال :

ــ لله أبوك يابن عباس ، ما استنبأتك إلا وجدتك معدا .

مات الحسن ، وخلا الجو لمعاوية ، فبايع ليزيد بالشام ، وكتب بيعته إلى الآفاق ، وبلغ الكتاب مروان بن الحكم عامله على المدينة .

فقام فى الناس فقال :

ــ إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيد ، سنة أبى بكر وعمر .

فثار عبد الرحمن بن أبى بكر ، فإنه ليبغض معاوية أشد البغض بعد قتل أخيه محمد ، فقام وقال :

ــ بل سنة كسرى وقيصر ، إن أبا بكر وعمر لم يجعلاها فى أولادهما ، ولا فى أحد من أهل بيتهما .

فماج الناس ، وشاء مروان أن يقحم عبد الرحمن ، فقال له :

ــ اسكت فإنك أنت الذى أنزل الله فيك : « والذى قال لوالديه أف لكما

أتعداني أن أخرج »

وأبت قريش البيعة ليزيد ، وذهب عبد الرحمن إلى عائشة حزينا مكتئبا ، فلما سألته عما به ، أبلغها مقالة مروان ، فقالت عائشة .

— ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن ، إلا أنه أنزل عذرى .

وبعثت عائشة إلى مروان تعتب عليه أشد العتب ، ولما رأى مروان إحجام القوم عن البيعة لم يسؤه ذلك ، بل لعل امتناعهم هذا أرضاه بعض الرضا أو كل الرضا ، فقد كان مروان يطمع فى الخلافة وينتظر اختفاء معاوية ليبرز على مسرح الحياة فيمن يبرز للاصطراع على دور الخليفة ، فكتب إلى معاوية : « إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك فأرنى رأيك » فتضايق معاوية ، وظهر ضيقه فى رده فقد كتب إلى مروان يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص .

وتولى سعيد بن العاص المدينة ، وجاءه كتاب أمير المؤمنين يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ، ويكتب إليه بمن سارع ممن لم يسارع ، فراح سعيد يدعو الناس إلى البيعة ليزيد فلم يجبه أحد ، فأظهر الغلظة ، وأخذهم بالشدة ، وعلى الرغم من كل ذلك فلم يسارع الناس إلى تلبيته ، وراح ابن الزبير يدعو إلى عدم البيعة وينكر ذلك إنكارا شديدا أطار صواب سعيد بن العاص ، فلم يعد يدرى ما يفعل سوى أن يرفع الأمر إلى معاوية فكتب له : « أما بعد ، فإنك أمرتنى أن أدعو الناس لبيعة يزيد بن أمير المؤمنين ، وأن أكتب إليك بمن سارع ممن أبطأ ، وإنى أخبرك أن الناس عن ذلك بطاء ، لا سيما أهل البيت من بنى هاشم ، فإنه لم يجبنى منهم واحد ، وبلغنى عنهم ما أكره ، وأما الذى جاهر بعدوانه وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ، ولست أقوى عليهم إلا بالخيل والرجال أو تقدم بنفسك فترى رأيك فى ذلك والسلام » .

وشاء معاوية أن يتألف عبد الرحمن بن أبى بكر بعد رفضه البيعة ، وأن يكسبه إلى صفه فبعث إليه بمائة ألف درهم ، فلما بلغت عبد الرحمن ردها وقال :

— أبيع دينى بدنياى؟

وفكر معاوية فيما يفعل مع هؤلاء الذين وقفوا فى وجهه ، واعترضوا أمنيته العزيزة ، فرأى أن يكتب إليهم قبل أن يقدم عليهم ، فكتب إلى عبدالله بن عباس ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى عبدالله بن جعفر ، وإلى الحسين بن على كتبا ، وأمر سعيد بن العاص أن يوصلها إليهم ويبعث بجواباتها . وكتب إليه : « أما بعد ، فقد جاءنى كتابك ، وفهمت ما فيه من ابطاء الناس عن البيعة ، ولا سيما بنى هاشم وما ذكر ابن الزبير ، وقد كتب إلى رؤسائهم كتبا فسلها إليهم ، وتنجز جواباتها ، وابعث بها إلى حتى أرى فى ذلك رأيى ، ولتشد عزيمتك ، ولتصلب شكيمتك ، وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق ، وإياك والحزن ، فإن الرفق رشد والحزن نكد ، وانظر حسينا خاصة فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابة وحقا عظيما لا ينكره مسلم ولا مسلمة ، وهو ليث عرين ، ولست آمنك إن شاورته لا تقوى عليه ، فأما من يرد مع السباع إذا وردت ، ويكنس إذا كنست فذلك عبد الله بن الزبير فاحذره أشد الحذر ، ولا قوة إلا بالله ، وأناقادم عليك إن شاء الله والسلام .

وبلغت الكتب إلى سعيد بن العاص فبعث بها إلى أصحابها ، فلما بلغ كتاب أمير المؤمنين ابن الزبير قرأ :

رأيت كرام الناس إن كف عنهم ... بحلم رأوا فضلا لمن قد تحلما
ولا سيما إن كان عفوا بقدرة ... فذلك أحرى أن يجل ويعظما
ولست بذى لؤم فتعذر بالذى ... أتيته من أخلاق من كان ألوما
ولكن غشا لست تعرف غيره ... وقد غش قبل اليوم إبليس آدما
فما غش إلا نفسه فى فعاله ... فأصبح ملعونا وقد كان مكرما
وإنى لأخشى أن أنالك بالذى ... أردت فيجزى الله من كان أظلما

فلما انتهى ابن الزبير من قراءة كتاب معاوية ، كتب إليه :

ألا سمع الذى أن عبده ... فأخزى إله الناس من كان أظلما
أجرى على الله العظيم بحلمه ... وأسرعهم فى الموبقات تقحما
أغرك أن قالوا حليم بعزة ... وليس بذى حلم ولكن تحلما

ولو رمت ما إن قد عزمت وجدتني هزبر عرين يترك القرن أكتما
وأقسم لولا بيعة لك لم أكن لأنقضها لم تنج مني مسلما

وبلغت معاوية جوابات كتبه ، وكانت كلها تحديا ظاهرا ، وإمعانا فى الرفض وكراهية لبيعته ليزيد ، فأفلت منه زمام حلمه ، فكتب إلى عامله أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذا بغلظة وشدة ، ولايدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا ، وأمره ألا يحرك هؤلاء النفر ولا يهيجهم ، لاحباً لهم ولـكن خشية أن يندلع لهيب ثورة تقوض ملكه ، وتذهب بخلافته .

فأخذ سعيد بن العاص الناس بالبيعة أعنف مايكون من الأخذ وأغلظه ، ولـكن النـاس استمروا على موقفهم من يزيد ، فلا الوعد أمالهم ، ولا الوعيد هزهم . وضاقت الحيل بسعيد ، فكتب إلى معاوية : « إنه لم يبايعني أحد ، وإنما النـاس تبع لهؤلاء النفر ، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً ولم يتخلف عنك أحد » فكتب إليه معاوية يأمره ألا يحركهم إلى أن يقدم .

وذهب معاوية للحج ، وخرج فى خلق كثير من أهل الشأم حتى إذا ماظهرت له أرباض المدينة ، ألفى أناسا يستقبلونه بين راكب وماش فبش لهم وأظهر لهم الود ، وراح يصانعهم لعلهم يبايعون ليزيد فيستريح مما أهمه ، وترضى نفسه ، ولما تجمع النـاس حوله قال متكلفا الشوق :

— أهل المدينة ! مازلت أطوى الحزن من وعثاء السفر بالحب لمطالعتكم حتى انطوى البعيد ولان الخشن ، وحق لجار رسول الله أن يتاق إليه .

فرد عليه القوم :

— بنفسك ودارك ، ومهاجرك ، أما أن لك منهم كإشفاق الحميم البر والحفي .

وانطلق والناس حوله حتى إذا ما كان بالجرف لقيه الحسين بن علي ، وعبدالله ابن عباس ، فقال معاوية :

— مرحباً بابن بنت رسول الله ، وابن صنو أبيه .

والتفت إلى الناس وقال :

ــ هذان شيخا بنى عبد مناف :

وأقبل عليهما بوجهه وحديثه ، فرحب وقرب ، وجعل يواجه هذا مرة ، ويضاحك هذا أخرى ، فيالمعاوية ترىأحسب أنه سيطوىالحسين حفيد الرسول ، وابن عباس عالم النفوس ، أم ترى شاء أن يبهر الناس ؟ .

وفكر معاوية فى أن يذهب إلى عائشة فى بيت الرسول ، ولكنه قتل أخاها محمدا ، فبأى وجه ينطلق إلى البيت الذى نكبه فى زهرة من زهراته ، إنه ليعلم أنه سينكأ جرح قلب عائشة ، وإنه ليعلم أنها لن ترتاح للقائه ، ولكن رغبته فى تولية ابنه لشديدة ، وإنه ليقتحم الصعاب ، ويواجه المشكلات فى سبيل تحقيق هذه الأمنية العزيزة ، فلن يهدأ معاوية ، ولن يرتاح له بال حتىيبايع القوم ليزيد .

وأقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن عليها فأذنت له وحده ، ولم يدخل عليها معه أحد وعندها مولاها ذكوان ، فلما وقعت عيناها عليه أحست انقباضا ، وبان الأسى فىوجهها وقالت :

ــ يامعاوية ، أكنت تأمن أن أقعد لك رجلا فأقتلك كما قتلت أخى محمد ابن أبى بكر ؟

فتكلف معاوية الهدوء ، وقال :

ــ ما كنت لتفعلين ذلك .

ــ لم ؟

ــ لأنى فى بيت آمن ، بيت رسول الله .

فتحدثت عائشة وتدفقت ، فذكرت الرسول ، وأبا بكر وعمر ، وحضته على الاقتداء بهم والاتباع لأثرهم ، ثم صمتت ، فلم يجرؤ معاوية علىأن يخطب ، وخاف أن لايبلغ مابلغت ، فارتجل الحديث ارتجالا ، ثم قال :

ــ أنت والله يا أم المؤمنينالعالمة باللهوبرسوله ، دللتنا على الحق ، وحضضتنا

على حظ أنفسنا . وأنت أهل لأن يطاع أمرك ، ويسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكد الناس بيعتهم فى أعناقهم . وأعطوا عهودهم ومواثيقهم .

فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى على أمره ، فقالت :

ـــ أما ماذكرت من عهود ومواثيق ، فاتق الله فى هؤلاء الرهط ، ولا تعجل فيهم ، فلعلهم لايصنعون إلا ما أحببت .

ثم قام معاوية ثم خرج واتكأ على يد ذكوان وهو يمشى ويقول :

ـــ تالله إن رأيت كاليوم قط خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله .

ثم مضى حتى أتى منزله فأرسل إلى الحسين بن على ، فخلا به ، فقال له :

ـــ يابن أخى ، قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش ، أنت تقودهم يابن أخى ، فما إربك إلى الخلاف ؟

ـــ أرسل إليهم ، فإن بايعوك كنت رجلا منهم ، وإلا لكن عجلت على بأمر .

ـــ نعم .

فطلب منه معاوية ألا يخبر بحديثهما أحداً ، ولكن ابن الزبير كان يرقب معاوية ، فلما بعث إلى الحسين أقعد له رجلا بالطريق ، فلما خرج الحسين من عند معاوية ، تقدم الرجل منه وقال له :

ـــ يقول لك أخوك ابن الزبير ما كان ؟

فلم يتكلم الحسين ، فلم يزل الرجل به حتى استخرج منه شيئا ، فطار إلى ابن الزبير يخبره به .

وأرسل معاوية إلى ابن الزبير ، فخلا به فقال له :

ـــ قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم .

ـــ فأرسل إليهم ، فإن بايعوك كنت رجلا منهم .

ثم أرسل بعده إلى ابن عمر وقال له :

ـــ إنى كرهت أن أدع أمة محمد بعدى كالضأن ، لاراعى لها ، وقد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفرأنت تقودهم ، فما إربك إلى الخلاف ؟

ـــ هل لك فى أمر تحقن به الدماء ، وتدرك به حاجتك ؟

ـــ وددت ذلك .

ـــ تبرزسريرك ، ثم أجيئك فأبايعك على أنى أدخل فيما اجتمعت عليه الأمة ، فوالله لو أن الأمة اجتمعت على عبد حبشى لدخلت فيما تدخل فيه الأمة .

ـــ وتفعل ؟

ـــ نعم .

وأرسل إلى عبدالرحمن بن أبى بكر ، فدخل ابن الصديق على قاتل أخيه وفى نفسه شىء ، بل أشياء ، فلما خلا به تجاذبا أطراف حديث ما كان بحديث ود وحب ، بل كان حديث بغض وحقد ، وقال له معاوية فيما قال :

ـــ بأى يد أو رجل تقدم على معصيتى ؟

ـــ أرجو أن يكون ذلك خيراً لى .

ـــ والله لقد هممت أن أقتلك .

ـــ لو فعلت لاتبعك الله فى الدنيا ، ولأدخلك فى الآخرة النار .

ومر الليل على معاوية ، وهو يفكر فى هؤلاء النفر الذين كلما تألفهم ازدادوا نفورا ، فلما أصبح الصباح أمر بفراش ، فوضع له وسويت مقاعد الخاصة حوله ، ثم خرج وعليه حلة يمانية ، وعمامة دكناء ، وقد أسبل طرفها بين كتفيه ، وقد تغلف وتعطر ، وقعد على سريره . وأجلس كتابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس وإن قرب ، وأرسل إلى الحسين وعبد الله بن عباس ، وأخذ معاوية يذكر يزيد وسياسته لأمة محمد ، فعارضه ابن عباس ثم عارضه الحسين .

فالتفت إليهما معاوية وقال :

ـــ أعود الحلم التحلم ، وخيره التحلم من الأهل . انصرفا فى حفظ الله .

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ ياعبد الله بن عمر ، قد كنت تحدثنا أنك لا تحب أن تبيت ليلة وليس فى عنقك بيعة جماعة وأن لك الدنيا وما فيها ، وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين ، وتسعى فى تفريق ملئهم ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء ، وليس للعباد خيرة من أمرهم ، وقد وكد الناس بيعتهم فى أعناقهم ، وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم .

وسكت معاويه ، فقال عبد الله بن عمر :

ـــ يامعاوية ، لقد كانت قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ، ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يروا فى أبنائهم ما رأيت فى ابنك ، فلم يحابوا فى هذا الأمر أحدا ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيث علموهم ، وإن تحذرنى أن أشق عصا المسلمين وأفرق ملأهم ، وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله ولكن إن استقام الناس ، فسأدخل فى صالح ما تدخل فيه أمة محمد .

فالتفت إليه معاوية وقال فى اطمئنان ورضى :

ـــ يرحمك الله ليس عندك خلاف .

ولكن عبد الرحمن بن أبى بكر كدر صفوه ، وأقلق صدره ، فقد قال فى ثوره :

ـــ والذى نفسى بيده ، لتجعلنها شورى أو لأعيدها جذعه .

ثم قام ليخرج ، فتعلق معاوية بطرف ردائه ، ثم قال :

ـــ على رسلك ، اللهم اكفنيه بما شئت ، لا تظهر لأهل الشام ، فإنى أخشى عليك منهم .

والتفت معاوية إلى ابن الزبير فى غيظ ظاهر وقال .

ـــ أنت ثعلب رواغ كلما خرجت من جحر انجحرت فى آخر . أنت ألبت هذين الرجلين وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه .

فالتفت حفيد الصديق إليه وقال :

ـــ أتريد أن تبايع ليزيد ؟ أرأيت إن بايعناه أيكما نطيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ؟ إن كنت مللت الخلافة فاخرج منها وبايع ليزيد ، فنحن نبايعه .

واستمر الجذب والشد بينهما ، وأخيراً قال له معاوية مهدداً :

ـــ والله ما أراك إلا قاتلا نفسك ، ولكأنى بك قد تخبطت فى الحبالة .

وانصرف القوم ، وبقى معاوية ثلاثة أيام محتجباً عن الناس ، يفكر فى هذا الأمر الذى أهمه ، وأخيرا رأى أن يجابه القوم وليكن ما يكون ، وخرج فأمر المنادى أن ينادى فى الناس أن يجتمعوا لأمر جامع ، فاجتمع الناس فى المسجد وقعد المعارضون حول المنبر ، فحمد معاوية الله وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيد وفضله ، وقراءته القرآن ثم قال :

ـــ يا أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بعثت إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقلت بيضته وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة منهم من كان أجدر أن يصله ، ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له .

فقام الحسين فقال :

ـــ والله لقد تركت من هو خير منه أباً وأماً ونفساً .

ـــ كأنك تريد نفسك .

ـــ نعم أصلحك الله .

ـــ إذا أخبرك . أما قولك خير منه أما فلعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش لكان لنساء قريش فضلهن ، فكيف وهى ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم فاطمة فى دينها وسابقتها ، فأمك لعمر الله خير من أمه . وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله فقضى لأبيه على أبيك .

ـــ حسبك جهلك ، آثرت العاجل على الآجل .

ـــ وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيد والله خير لأمة محمد منـــك .

— هذا هو الإفك والزور ، يزيد شارب الخمر ، ومشترى اللهو خير منى ؟
— مهلا عن شتم ابن عمك ، فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك .
ثم التفت معاوية إلى الناس وقال :

— أيها الناس ، قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعة هدى ، فعمل بكتاب الله ، وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة ، رأى أن يستخلف عمر ، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة ، رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر مالم يصنعه رسول الله ، وصنع عمر مالم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين . فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف . ونظرا لهم بعين الإنصاف .

فقام ابن الزبير إلى معاوية فقال :

— إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أن يستخلف عمر ، وهو أقصر قريش منه نسبا ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنه عبد الله ، وهو خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم ، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم ، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر تختار رهطا من المسلمين وتزويها عن ابنك فافعل .

فنزل معاوية عن المنبر، وانصرف ذاهبا إلى منزله ، وأمر من حرسه وشرطته قوماً أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة ، لقد حاول معاوية اللين والدهاء فآب بالفشل . فلم يبق إلا الشدة والخداع ، وجاء الشرطة بالحسين بن على وعبدالله ابن عمر ، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عباس ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فالتفت معاوية إلى الشرطة فقال :

— إنى خارج العشية إلى أهل الشام فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا وسلموا فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدقنى أو يكذبنى فيه فلا ينقضى كلامه حتى يطير رأسه .

فلما كان العشى خرج معاوية وخرج معه هؤلاء النفر وهو يضاحكهم ويحدثهم وقد ألبسهم الحلل . فألبس ابن عمر حلة حمراء ، وألبس الحسين حلة صفراء ، وألبس عبد الله بن عباس حلة خضراء ، وألبس ابن الزبير حلة يمانية ، ثم خرج بينهم وأظهر لأهل الشام الرضا عنهم ، وأنهم بايعوا . قال :

— يا أهل الشام ، إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين ، فوجدهم واصلين مطيعين ، وقد بايعوا وسلموا.

واستمر القوم سكوتا ، لا تتحرك شفاههم ولا تنبس بكلمة ، فإنهم ليعلمون أن الموت يتأرجح فوق رءوسهم ، وعلى الرغم من صمتهم فقد وثب أناس من أهل الشام فقالوا :

— يا أمير المؤمنين ، إن كان رابك من ريب ، فخل بيننا وبينهم حتى نضرب أعنـــاقهم .

فقال لهم معاوية :

— سبحان الله ، ما أحل دماء قريش عندكم . يا أهل الشام لا أسمع لهم بسوء ، فإنهم قد بايعوا وسلموا وارتضونى فرضيت عنهم .

ثم ارتحل معاوية وقد أرضته بيعة الغش والخداع ، ولكن ابن الزبير لن يرضى هذا ، ولن يعترف ليزيد ببيعة آبداً .

الفصل الثانى والثلاثون

رقدة الموت

خرج عبد الرحمن بن أبى بكر من المدينة ، وانطلق ورفاقه إلى مكة ، وأخذ يفكر فى الطريق فيما يفعله فى غده ، وما يقوم به فى مسقط رأسه ، وأرض منبته ، ولو علم أن رحلته الدنيوية ستنقضى قبل انقضاء رحلته ، وأنه لن يدخل مكة على رجليه كما أعتاد أن يدخلها ، بل سيدخلها محمولا على أعناق الرجال ، ليغيب إلى الأبد فى أرض الآباء ، لما فكر فى أمر دنياه ، ولانتظر قضاء الله الذى سينقله إلى أخراه ، واستمر القوم فى سفرهم . فلما باتوا على مسيرة ستة أميال من مكة حطوا الرحال ، فقد أقبل الليل وكان حالك السواد ، وذهب كل لينام ، وذهب عبد الرحمن ليستسلم للذيذ الرقاد ، وتمدد فى الفراش ينتظر ملاك النوم ليطوف به وينقله إلى عالم الأحلام ، ولكن ملاك النوم طاف بالآخرين ، وتركه للموت يستأثر به ، فيقضى على الأحلام ، ويقوض الآمال ، ويذهب بالأوهام ، وانقضى الليل ، ولاح الصباح .

فاستيقظ النوام إلا عبد الرحمن ، فقد نام النومة الأخيرة ، وذهب تاركا وراءه دنيا الغرور ، وعالم الخيال .

وجهز الرفاق صديق الأمس ، وحملوه على الأعناق ، وانطلقوا به حتى أعلا مكة فقبروه وقد شف الحزن نفوسهم ، وسالت العبرات من مآقيهم ، وعادوا وقد تملكهم الأسى فقد فقدوا سيداً كريماً ، وابن سيد كريم . وبلغ عائشة موت عبد الرحمن فحزنت عليه ، فقد كان الشقيق وكان عميد أسرة الصديق ، وعلم معاوية بموته فتنفس حمدا فقد أراحه الله من خصم عنيد ، وخرجت عائشة إلى مكة ، وذهبت إلى قبر عبد الرحمن لزيارته ، فأطرقت قليلا ثم قالت :

— أما والله لو شهدتك لم أبك عليك ، ولو كنت عندك لم أنقلك من موضعك الذى كنت فيه ، ثم تمثلت بشعر متمم بن نويرة فى أخيه مالك :

وكنا كندمانى جذيمة برهة   من الدهر حتى قيل لا يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالك   لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

واكتمل الحول ، وأحست أم المؤمنين بالضعف يدب فى أوصالها ، وثقلت عليها وطأة المرض ، فجعل آل الصديق يعودونها ويخشون عليها الموت ، فهى عزهم ، وموضع فخرهم ، ودخل عليها عبد الله بن أخيها عبد الرحمن ، فألفى صدرها يعلو وينخفض وقد اضطرب نفسها فجلس عند رأسها ، وأقبل ذكوان حاجبها وقال :

— هذا عبد الله بن عباس يستأذن عليك .

فلم يظهر على عائشة أنها سمعت قول ذكوان ، فأكب عليها ابن أخيها فقال :

— هذا ابن عباس يستأذن عليك .

فقالت فى صوت خفيض .

— دعنى من ابن عباس ، فإنه لا حاجة لى به ولا بتزكيته .

— يا أماه ، إن ابن عباس من صالحى بنيك يسلم عليك ويودعك .

— فأذن له إن شئت .

فأذن عبد الله لابن عباس ، فلما دخل سلم وجلس ثم قال :

— أبشرى .

— بم ؟

— ما بينك وبين أن تلقى محمداً صلى الله عليه وسلم والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد . كنت أحب نساء رسول الله إلى رسول الله ، ولم يكن رسول الله يحب إلا طيبا ، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ليطلبها حين يصبح فى المنزل ، فأصبح الناس ليس معهم ماء ، فأنزل الله أن تيمموا صعيدا طيبا ، فكان ذلك من سببك وما أذن الله لهذه الأمة من الرخصة فأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه إلا هى تتلى فيه آناء الليل والنهار .

— دعنى منك يابن عباس ، فوالذى نفسى بيده لوددت أن كنت نسيا منسيا.

ووقع نظر عائشة على ذكوان فلم ينسها ما هى فيه أمر حاجبها الأمين فقالت :

— إذا كفنت وحنطت ثم دلانى ذكوان فى حفرتى وسواها على فهو حر .

وراحت عائشة تعالج سكرات الموت، وضاق نفسها حتى لكأنها تتنفس من ثقب إبرة ، وفاضت روحها بين دموع الأهل وحسرات القلوب ، وذاع نبأ موتها فى المدينة ، فخيم عليها الوجوم ، وبان الأسى فى وجوه الجميع ، فقد مضت من كانت تذكرهم دواما بالرسول .

وأقبل الليل ، وراح أهلها ينفذون أمرها بأن تدفن بالبقيع ، فأضيئت المشاعل ، وحمل عبد الله بن الزبير وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد بن أبى بكر وعبد الله بن محمد بن أبى بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الجسد الطاهر وفى قلوبهم لوعة ، وفى حلوقهم غصة ، وفى عيونهم دمع . فقد انطلقوا ليدفنوا عائشة أم المؤمنين أحب أهلهم إليهم ، وبلغوا البقيع فصلى على الجسد الطاهر أبو هريرة ، ثم حملت عائشة لتغيب إلى الأبد ، فنزل فى القبر عبد الله وعروة وابنا محمد بن أبى بكر وابن عبد الرحمن . ليلقوا على من شملتهم بحبها نظرة وداع ، وليذرفوا عليها الدمع السخين . وتم الدفن فعاد الناس إلى المدينة واجمين . فقد قبروا عائشة أم المؤمنين .

ودارت عجلة الزمن لتطوى من انتهى أجله ، وتنشر من بزغ نجمه ، فقد مرض معاوية وقربت نهايته ، وخرج ابنه يزيد وقد ابتدأت بدايته ، فعما قليل يصبح خليفة المسلمين ، واشتد المرض على معاوية فبعث إلى الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فلما دخلا عليه التفت إليهما وقال :

— بلغا يزيد وصيتى : انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فإن عزل عامل أحب إلى من أن أشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشأم ، فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن نابك شىء من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشأم إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير

بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ، وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك ، وأما الحسين بن على ، فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه ، وأخذل أخاه ، وإن له رحما ماسة ، وحقا عظيما ، وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه ، وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإذا هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربا إربا .

وهلك معاوية ، فذهب جد بنى أمية وبقى ملكهم .

الفصل الثالث والثلاثون

الوثوب

ظهر الهم على وجه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، فراح يقطع الغرفة جيئة وذهوباً ، وآى الاضطراب بادية عليه ، وجعل يعبث بأصابعه فى لحيته ، ويفكر فيما يفعل بعد أن تلقى رسالة يزيد بن معاوية بموت أمير المؤمنين ، وأخذ الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بالبيعة أخذاً شديداً ، إنه ولى المدينة من قبل معاوية ، وقد حدث بينه وبين مروان بن الحكم مشادة ومشاتمة ، فبمن يستعين وممن يلتمس الرأى السديد ، لم يصبح الأمر أمر يزيد ، بل صار الأمر أمر بنى أمية جميعاً ، فإنه لو سأل مروان العون لما تأخر مروان ، لقد عظم على الوليد هلاك معاوية وما أمر به من أخذ هؤلاء الرهط بالبيعة . فليفزع إلى مروان ، فبعث إليه يطلبه لأمر جليل ، فجاء مروان ، فلما دخل وجلس قرأ الوليد .

«بسم الله الرحمن الرحيم . من يزيد أمير المؤمنين ، إلى الوليد بن عتبة ، أما بعد فإن معاوية كان عبداً من عباد الله ، أكرمه الله واستخلفه وخوله . ومكن له ، فعاش بقدر ، ومات بأجل ، فرحمه الله ، فقد عاش محموداً ، ومات باراً نقياً والسلام » .

فاسترجع مروان ، وترحم عليه ، وقرأ الوليد كتاب يزيد الذى يأمره فيه بأخذ ابن الزبير والحسين وابن عمر بالبيعة ، ثم قال :

— كيف ترى أن نصنع ؟

فأطرق مروان برهة ثم قال :

— أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدخول فى الطاعة ، فإن فعلوا قبلت منهم ، وكففت عنهم ، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم ، قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إن علموا بموت معاوية وثب كل امرىء منهم فى جانب وأظهر الخلاف والمنابذة ودعا إلى نفسه ، أما ابن عمر فإنى لا أراه يرى القتال ، ولا يحب

أن يولى على الناس إلا أن يدفع إليه هذا الأمر عفواً .

فنادى الوليد بن عتبة عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث وطلب منه أن ينطلق إلى المسجد ليدعو الحسين وابن الزبير ، فخرج الغلام حتى أتى المسجد فألفاهما جالسين فأتاهما وقال :

— أجيبا الأمير يدعوكما .

فالتفت كل من الحسين وابن الزبير إلى الآخر ، وقد بان فى وجهه التساؤل فإن الغلام أتاهما فى ساعة ما كان الوليد يجلس فيها للناس ، ولا يأتيان فى مثلها ، فالتفت ابن الزبير إلى الغلام وقال :

— انصرف ، الآن نأتيه .

ثم أقبل أحدهما على الآخر فقال ابن الزبير للحسين :

— ظن فيما تراه بعث إلينا فى هذه الساعة التى لم يكن يجلس فيها ؟

— قد ظننت ، أرى طاغيتهم قد هلك ، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو فى الناس الخبر .

— وما أظن غيره .

وسكت ابن الزبير برهة وقال :

— فما تريد أن تصنع ؟

— أجمع فتيانى الساعة ، ثم أمشى إليه فإذا بلغت الباب احتبستهم عليه ، ثم دخلت عليه .

— فإنى أخافه عليك إذا دخلت .

فقال الحسين فى ثقة :

— لا آتيه إلا وأنا على الامتناع قادر .

وجمع الحسين إليه مواليه وأهل بيته ثم أقبل يمشى حتى انتهى إلى باب الوليد، وقال لأصحابه :

— إنى داخل ، فإن دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا فاقتحموا على بأجمعكم ، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم .

فدخل الحسين ، وتحصن ابن الزبير فى داره وجمع إليه أصحابه ينتظر الطلب .
دلف الحسين من الباب فألفى الوليد ومروان جالسين ، فتظاهر بأنه لم يفطن إلى موت معاوية ، وشاء أن يفهمها أنه يظن أنهما ما أرسلا إليـــه إلا ليصلح بينهما فقال :

ــ الصلة خير من القطيعه ، أصلح الله ذات بينكما .

فلم يجيباه فى هذا بشىء . وجاء حتى جلس ، فأقرأه الوليد الكتاب ، ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة فقال حسين :

ــ إنا لله وإنا إليـه راجعون ، ورحم الله معاوية وعظم لك الأجر ، وأما ماسألتنى من البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سراً ، ولا أراك تجتزىء بها منى سرا دون أن تظهرها على رءوس الناس علانية .

ــ أجل .

ــ فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمرا واحدا .

ــ فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس .

فلم يستطع مروان أن يكبت عواطفه ، وأن يدارى ما به فقال للوليد :

ــ والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبس الرجل ولايخرج من عندك حتى يبايع أوتضرب عنقه .

فوثب عند ذلك الحسين وقال :

ــ يابن الزرقاء ، أنت تقتلنى أم هو ؟كذبت والله وأثمت .

ثم خرج الحسين إلى أصحابه والتفت مروان إلى الوليد وقال فى غضب :

ــ عصيتنى . لا والله لا يمكنك من مثلها من نفسه أبدا .

ــ ويح غيرك يامروان ، إنك اخترت لى التى فيها هلاك دينى ، والله ما أحب أن لى ماطلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها ، وإنى قتلت حسينا . سبحان الله ، أقتل حسينا إن قال لا أبايع ، والله إنى لا أظن امرءا يحاسب بدم حسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة .

فقال مروان متهكما :

ـ فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت .

وبعث الوليد إلى ابن الزبير فألفاه مجتمعا فى أصحابه متحرزا ، فقال للرسول إنه آت ، ولكن ابن الزبير لم يذهب ، وكيف يذهب وهو يعلم أنه ماطلب إلا للبيعة وقد عزم على ألا يبايع وأن يدعو إلى نفسه ، فألح عليه الوليد بكثرة الرسل والرجال فى إثر الرجال ، فكان يقول لهم :

ـ لا تعجلونى آتيكم ، أمهلونى .

ونفد صبر الوليد ، فقد انقضت عشيتها تلك ، وأدبر أول الليل وابن الزبير فى داره لا يخرج ولا يجيب ، فبعث موالى له فشتموه وصاحوا به :

ـ يابن الكاهلية ، والله لتأتين الأمير أو ليقتلنك .

فقال لهم :

ـ الآن أجىء .

ولم يذهب ابن الزبير الى الأمير ، فبعث إليه آخرين ، فقال :

ـ والله لقد استربت بكثرة الإرسال ، وتتابع هذه الرجال ، فلا تعجلون حتى أبعث إلى الأمير من يأتينى برأيه وأمره .

وبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير ، فلما دخل جعفر على الوليد قال :

ـ رحماك الله ، كف عن عبد الله فإنك قد أفزعته وذعرته لكثرة رسلك ، وهو آتيك غداً إن شاء الله ، فمر برسلك فلينصرفوا عنا .

فأرسل الوليد إلى رسله يأمرهم بالانصراف ، وراح ينتظر الصباح الذى سيبايع الناس فيه ليزيد .

وانصرف الرسل ، وخيم السكون ، ونام الكون ، وفتح باب ابن الزبير ، وخرج منه شبحان يتلفتان ، وانطلقا تحت جنح الليل إلى طريق الفرع الموصلة إلى مكة ، وقد تجنبا الطريق الأعظم مخافة الطلب ، وتصرم الليل بأسراره ، وأشرق النهار الفضاح ، فبعث الوليد رسله إلى ابن الزبير فلم يجدوه ، فقد خرج إلى البلد الحرام الذى يأمن فيه الطير ، وعاد الرسل بالخبر فطأطأ الوليد رأسه فقال له مروان :

ــ والله إن اخطأ مكة فسرّح فى أثره الرجال .

فأرسل سرية من موالى بنى أمية فى ثمانين راكبا ليطلبوه ، لقد خرج حفيد الصديق فارا من المدنية إلى مكة ، كما خرج جده مهاجراً مع الرسول من مكة إلى المدينة ، وبعث أحماد أبى سفيان فى طلب الحفيد ، كما بعث الجد فى طلب الجد وقد قدر لأبى بكر أن يبلغ يثرب سالما ، وكذلك كتب لابن الزبير أن لايقدر عليه طالبوه ، وأن يدخل أم القرى ليدعو إلى نفسه ليصبح أميرا للمؤمنين .

انطلق عبد الله بن الزبير وأخوه جعفر فى طريق وعرة ، وبينا هما فى الطريق، ارتفع صوت جعفر :

وكل بنى أم سيمسون ليلة ولم يبق من أعقابهم غير واحد

فتطير ابن الزبير والتفت إلى جعفر وقال :

ــ سبحان الله ما أردت إلى ما أسمع يا أخى ؟

ــ والله يا أخى ما أردت به شيئاً مما تكره .

ــ فذاك والله أكره إلىّ أن يكون جاء على لسانك من غير تعمد .

ترى هل نطق الزمن على لسان جعفر بما يخبئه لابنى أسماء من قتل عبد الله وبقاء عروة ؟ ! .

وعادت السرية التى سرحت فى إثر ابن الزبير ولم تعثر عليه ، فبعث الوليد الرجال إلى الحسين فلم يجدوه ، فقد انتهز فرصة طلب القوم لابن الزبير وحمل أهله وخرج . فياليزيد ، لقد فر أسدان فليأخذ الحذر ، فعما قليل يثبان ليناوئاه ويقضا من مضجعه .

واستمر ابن الزبير والحسين بمكة ، وراسل الكوفيين الحسين للمسير إلى قبلهم، فخرج الحسين وبقى ابن الزبير لاينازعه منازع ، فأرسل يزيد إليه الرسل فى البيعة ، فرفض وأبى ، فثار يزيد وأقسم : لايؤتى به إلا مغلولا وإلا أرسل إليه ، وبلغ قسم يزيد عبد الله وقيل له :

ــ ألا نصنع لك غلا من فضة تلبس عليه الثوب وتبر قسمه ، فالصلح أجمل بك ؟

ــ لا أبر والله قسمه .

ثم قال :

والله لضربة بسيف فى عز أحب إلىّ من ضربة بسوط فى ذل .

وكان الحارث بن خالد المخزومى على الصلاة فمنعه ابن الزبير ، فثار يزيد وغضب من هذا التحدى وعزم على أن يرسل جيوشاً لقتال عبد الله ، فبعث إلى عامله على المدينة أن ابعث جيشاً إلى ابن الزبير ، فراح عامله يعجم الرجال ليرى أصلبها عوداً ليرمى به حفيد الصديق فلم يجد أصلح من عمرو بن الزبير ، فإنه ليعلم أن بين الأخوين إحنا وبغضاء ، وإنه ليعلم أن عمرا قد ضرب كل من يهوى هوى ابن الزبير ، فبعث إليه وقال له :

— من رجل نوجهه إلى أخيك ؟

فقال عمرو فى حقد :

— لا توجه إليه رجلا أبداً أنكأ له منى .

وتجهز عمرو بن الزبير لقتال عبد الله بن الزبير فعسكر بالجرف الذى طالما عسكرت به الجيوش الخارجة لقتال الروم والفرس ، وأقبل مروان وقابل والى المدينة وقال له :

— لا تغز مكة ، واتق الله ، ولا تحل حرمة البيت ، وخلوا ابن الزبير فقد كبر ، هذا له بضع وستون سنة ، وهو رجل لجوج ، والله لئن لم تقتلوه ليموتن .

فقال عمرو بن الزبير :

— والله لنقاتلنه ولنغزونه فى جوف الكعبة على رغم أنف من رغم .

فقال مروان :

— والله إن ذلك ليسوءنى .

وقال رجل :

— لا تغز مكة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما أذن الله لى فى القتال بمكة ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها .

فأبى عمرو أن يسمع قوله وقال :

— نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ .

وفصل جيش عمرو وسار إلى مكة حتى نزل بالأبطح فأرسل إلى أخيه عبدالله :

— بر يمين الخليفة ، واجعل فى عنقك جامعة من فضة لا ترى ، ولا يضرب الناس بعضهم بعضا ، واتق الله فإنك فى بلد حرام .

فبعث إليه عبد الله بن الزبير :

— موعدك المسجد .

فجاء عمرو بن الزبير المسجد ، وصلى بالناس وصلى خلفه عبد الله ولما قضيت الصلاة ، سار عمرو بن الزبير وعبد الله بن الزبير وقد شبك كل أصابعه فى أصابع أخيه ، وأخذا فى الحديث ، وقد يكون حديثهم ودياً ، ولكن ما فى القلب فى القلب ، فإن عمرا ليود أن يحمل أخاه إلى الخليفة ، وإن عبد الله ليود أن يقبض عليه ولكنه ينتظر فرصته .

وجلس عمرو بن الزبير فى المسجد وأقبل القرشيون عليه ، فلم يبق أحد من قريش إلا أتاه ، والتفت عمرو وقال :

— مالى لا أرى عبد الله بن صفوان ، أما والله لئن سرت إليه ليعلمن أن بنى جمح ومن ضوى إليه من غيرهم قليل .

فبلغت مقالة عمرو عبد الله بن صفوان فحركته ، فاتصل بعبد الله وقال له :

— إنى أراك كأنك تريد البقيا على أخيك .

— أنا أبقى عليه ؟ والله لو قدرت على عون الذر عليه لاستعنت بها عليه .

لقدواتت الفرصة ابن الزبير ، فهاهو سيد من سادات القوم يقدمَ له العون ، فاتفقا على قتال عمرو .

ودارت المعركة ، فانهزم جيش عمرو وتفرق عنه أصحابه ، وصار قاب قوسين أو أدنى من الموت فانطلق عبيدة بن الزبير إليه وقال :

— تعال ، أنا أجيرك .

وانطلق عبيدة إلى عبد الله وقال له :

ـــ قد أجرت عمراً، فأجره لى .

فقال عبد الله بن الزبير فى حزم :

ـــ أتجير من حقوق الناس ، هذا مالا يصلح .

وجىء بعمرو ، فضربه عبدالله بكل من ضرب بالمدينة ثم حبسه فى سجن عارم .

قتل الحسين ، وبقى ابن الزبير متحصنا فى مكة ، وأقبل أوان الحج ، لحج عبد الله بالناس ، وبلغه أن أهل المدينة وثبوا على عامل يزيد وأخرجوه . وأخرجوا بنى أمية معه ، وانقضت أيام وأقبل رجل من المدينة وجعل يقص على القوم ما حدث بين مسلم بن عقبة قائد يزيد وبين أهل المدينة ، فقال لهم : إن مسلم دعاهم فقال « ياأهل المدينة ، إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل . وإنى أكره هراقة دمائهم ، وإنى أؤجلكم ثلاثا ، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه ، وانصرفت عنكم ، وسرت إلى هذا الملحد الذى بمكة ، وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم» . فمضت الأيام الثلاثة ، فقال : « يا أهل المدينة . قد مضت الأيام الثلاثة ، فما تصنعون ؟ أتسالمون أم تحاربون ؟» فقالوا : « بل نحارب » فقال لهم : « لا تفعلوا بل ادخلوا فى الطاعة ، ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذى جمع إليه المراق والفساق من كل أوب » فقالوا لهم : « ياأعداء الله ، والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ما تركناكم حتى نقاتلكم ، نحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام ، وتخيفوا أهله ، وتلحدوا فيه ، وتستحلوا حرمته ؟ لا والله لا نفعل » . ودار القتال بين أهل الشام وأهل المدينة ، وانتصر أهل الشام فى وقعة الحرة ، فأباح المدينة ثلاثاً ، فنزل بأهلها كرب وبلاء . وانتهى الرجل من مقالته ، فبان على وجوه أهل مكة الهم ، فقد عرفوا أنه نازل بهم ، وسينالهم ما نال أهل المدينة من عذاب وقتل .

وبلغ الخوارج فى العراق أن ابن الزبير قد ثار بمكة فى وجه يزيد ، وكان ابن زياد يقاتلهم وقد ركب منهم ما ركب ، فتخايلت لهم فكرة الخروج إلى الأرض الحرام ، وجاءت الأنباء أن يزيد قد بعث مسلم بن عقبة لقتال أهل المدينة

فنكل بهم ، وقتل أهل الحرة ، وجلهم من خيرة صحاب الرسول ، فاجتمعوا يتشاورون ويتذاكرون ، فقال لهم نافع بن الأزرق :

— إن الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم فيه الجهاد ، واحتج عليكم فيه بالبيان ، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم ، وأولو العدى والغشم ، وهذا من ثار بمكة ، فاخرجوا بنا نأت البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو . وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك فى أمورنا .

فصادف كلام ابن الأزرق هوى فى النفوس ، فأخذوا الأهبة ، ولبسوا السلاح وانطلقوا إلى مكة للذود عن البيت العتيق .

وكان ابن زياد قد حبس المختار بن عبيد الله للدعوة لأهل البيت ، ومات الحسين والمختار فى سجنه ، وفى يوم بعث إلى رجل من أهل العراق يسأله الخروج إلى زوج أخته عبد الله بن عمر بالمدينة فيسأله أن يكتب له إلى يزيد بن معاوية فيكتب إلى عبد الله بن زياد بتخلية سبيله ، فركب الرجل إلى المدينة ، ودخل بيت عبد الله بن عمر وبلغ رسالة المختار ، فلما علمت صفية بحبس أخيها جزعت وبكت ، ورأى ابن عمر دموع زوجه وجزعها ، فكتب إلى يزيد بن معاوية : أما بعد ، فإن عبيد الله بن زياد حبس المختار صهرى ، وأنا أحب أن يعافى ، ويصلح من حاله ، فإن رأيت — رحمنا الله وإياك — أن تكتب إلى ابن زياد فتأمره بتخليته فعلت ، والسلام عليك .

وجاء كتاب يزيد إلى ابن زياد يأمره بتخلية سبيل المختار ، فدعا ابن زياد بالمختار فأخرجه ثم قال له :

— قد أجلتك ثلاثا ، فإن أدركتك بالكوفة بعدها قد برئت منك الذمة .

فخرج المختار إلى رحله ، وانطلق إلى الحجاز لينضم إلى ابن الزبير الثائر بمكة ، وفى الطريق قابل مولى لثقيف ، فأحسن الرجل استقبال المختار وعطف إليه ورحب به ، ونظر إلى وجهه فرأى عينه قد شترت ، فاسترجع وقال له :

— ما بال عينك صرف عنك السوء ؟

وكان ابن زياد قد ضربه بقضيب قبل أن يأمر بحبسه ، فقال المختار :

ـــ خبط عيني ابن الزانية بالقضيب خبطة صارت إلى ما ترى .

ـــ ماله شلت أنامله ؟

ـــ قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأباجله وأعضاءه إرباً إرباً .

فالتفت إليه الرجل وقال :

ـــ ماعلمك بذلك ، رحمك الله .

ـــ ما أقول لك فاحفظه عنى حتى ترى مصداقه . وما فعل عبد الله بن الزبير ؟

ـــ لجأ إلى البيت .

ـــ إنما أنا عائذ برب هذه البنية .

ـــ والناس يتحدثون بأنه يبايع سراً ، ولا أراه إلا لو قد اشتدت شوكته واستكثف من الرجال إلا سيظهر الخلاف .

ـــ أجل لاشك في ذلك ، أما أنه رجل العرب اليوم ، أما إنه إن يخطط في أثرى ، ويسمع قولي أكفه أمر الناس ، وإلا يفعـــل فوالله ما أنا بدون أحد من العرب ، يابن العراق إن الفتنة قد أرعدت وأبرقت ، وكأن قد انبعثت فوطئت في خطامها ، فإذا رأيت ذلك ، وسمعت به بمكان قد ظهرت فيه فقيل إن المختار في عصائبه من المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطف ســـيد المسلمين وابن سيدها الحسين بن علي ، فوربك لأقتلن بقتله عدة القتلى التي قتلت على دم يحيي بن زكريا عليه السلام .

ـــ سبحان الله ، وهذه أعجوبة مع الأحدوثة الأولى .

ـــ هو ما أقول لك فاحفظه عنى حتى ترى مصداقه .

وحرك المختار راحلته وهو يتمنى أن يقتل ابن زياد ، وأن يثأر للحسين من سافكي دمه الطاهر الزكي .

ودخل المختار مكة ، وانطلق إلى البيت ، فجاء إلى عبد الله بن الزبير ، فسلم عليه ، فرد عليه ابن الزبير ورحب به ، وأوسع له ثم قال :

ـ حدثنى عن حال الناس بالكوفة يا أبا إسحاق .

ـ هم لسلطانهم فى العلانية أولياء ، وفى السر أعداء .

ـ هذه صفة عبيدالسوء ، إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم ، فإذا غابوا عنهم شتموهم ولعنوهم .

ودار الحديث بينهما ، ثم مال إلى ابن الزبير وقال :

ـ ماتنتظر ؟ ابسط يدك أبايعك ، وأعطنا مايرضينا ، وثب على الحجاز فإن أهل الحجاز كلهم معك .

فلم يبسط ابن‌الزبير يده ، فإنه لم يشأ أن يرتبط معه بوعد ، فإن المختار ليطلب مايرضيه ، وإن ابن‌الزبير ليعلم هواه لآهل‌البيت ، فقام المختار وخرج ، وانقضت شهور ولم يظهر للمختار أثر ، فقد راح يجوس خلال البلاد يعمل على الدعوة لآهل البيت سراً ، وفى‌يوم جلس ابن الزبير وأحد أصحابه فى المسجد ، ولمحا المختار قادما ، فقال ابن الزبير :

ـ أين تظنه يهوى ؟

ـ أظنه يريد البيت .

فأتى البيت فاستقبل الحجر ، ثم طاف بالبيت سبعاً ، ثم صلى ركعتين عند الحجر، ثم جلس فما لبث أن مرَّ به رجال من معارفه من أهل‌الطائف وغيرهم من أهل‌الحجاز ، فجلسوا إليه ، واستبطأ ابن‌الزبير قيامه إليه ، فالتفت إلى صاحبه وقال:

ـ ما ترى شأنه لايأتينا ؟!

ـ لا أدرى وسأعلم لك علمه .

ـ ما شئت .

فقام صاحب ابن‌الزبير ، فمر بالمختار كأنه يريد الخروج من المسجد ، ثم‌التفت إليه وأقبل نحوه ، ثم سلم عليه وجلس إليه ، وأخذ بيده ثم قال :

ـ أين كنت ؟ أبالطائف كنت ؟

ـ كنت بالطائف وغير الطائف .

— مثلك يغيب عن مثل ماقد اجتمع عليه أهل الشرف وبيوتات العرب من قريش والأنصار وثقيف . لم يبق أهل بيت ولا قبيلة إلا وقد جاء زعيمهم وعميدهم فبايع هذا الرجل . فعجباً لك ولرأيك . ألا تكون أتيته فبايعته وأخذت بحظ من هذا الأمر ؟

— وما رأيتنى أتيته العام الماضى فأشرت عليه بالرأى فطوى أمره دونى ، وإنى لما رأيته استغنى عنى أحببت أن أريه أنى مستغن عنه ، إنه والله لهو أحوج إلى منى اليه .

— إنك كلمته بالذى كلمته وهو ظاهر فى المسجد ، وهذا الكلام لاينبغى أن يكون إلا والستور دونه مرخاة ، والأبواب دونه مغلقة ، القه الليلة إن شئت وأنا معك .

— فإنى فاعل ، إذا صلينا العتمة أتيناه ، واتعدنا الحجر .

وصليا العتمة ثم خرجا حتى أتيا منزل ابن الزبير ، فاستأذنا عليه فأذن لهما فلما دخلا قال صاحب ابن الزبير :

— أخليكما .

فقال ابن الزبير والمختار :

— لاسر دونك .

فجلس الرجل وابتدأ الحديث فسأل ابن الزبير المختار عن حاله وأهل بيته ، وسكتا جميعاً غير طويل فقال المختار :

— إنه لا خير فى الإكثار من المنطق ولا فى التقصير عن الحاجة ، إنى قد جئتك لأبايعك على ألا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون فى أول من تأذن له ، وإذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك .

لم يكن ابن الزبير ليقبل هذه المساومة ، إنه فى احتياج إلى من يشد أزره وينضم إليه لقتال أهل الشام الوافدين إلى مكة ، ولكنه لم يقبل هذه البيعة المشروطة فقال :

— أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

— وشر غلمانى أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مالى فى هذا الأمر من الحظ ماليس لأقصى الخلق منك ، لاوالله لاأبايعك أبداً إلا على هذه الخصال .

فالتقم الصديق أذن ابن الزبير وقال :

— اشتر منه دينه حتى ترى من رأيك .

فأطرق ابن الزبير قليلا ثم قال .

— فإن لك ماسألته .

فبسط يده فبايعه .

وفرغ مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة وإنهاب جنده أموالهم ثلاثا ، فشخص بمن معه لحرب ابن الزبير ، فسار حتى إذا ما انتهى إلى المشلل ، أحس الموت يدنو منه فبعث إلى حصين بن نمير السكونى ، فلما وافاه التفت إليه وقال :

— يا بن برذعة الحمار ، أما لو كان هذا الأمر إلىّ ما وليتك هذا الجند ، ولكن أمير المؤمنين ولاك بعدى ، وليس لأمر أمير المؤمنين مرد ، خذ عنى أربعا : أسرع السير ، وعجل الوقاع ، وعم الأخبار ، ولا تمكن قريشاً من أذنك.

ومات مسلم بن عقبة ، وسار الحصين إلى ابن الزبير ليقاتله فى الأرض الحرام .

وخرج أهل المدينة الذين شهدوا وقعة الحرة إلى مكة يمنعون البيت ، ودخل الخوارج أم القرى ، ومشوا إلى ابن الزبير ، فسر بمقدمهم ، وأعطاهم الرضا ، وتأهب الجميع للقاء جيش الشام .

واجتمع المنذر بن الزبير وشقيقه عبد الله ، وجعلا يتحدثان . فراح المنذر يقص مافعل أهل الشأم فى المدينة ، فقد كان المنذر ممن شهد الحرة ، فطأطأ ابن الزبير رأسه قليلا ، ثم قال :

— ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيرى وغيرك .

وتأهب أهل مكة والخوارج للذب عن البيت العتيق ، وزحف الحصين بجيشه ، حتى اقترب من مكة ، فوجد عبد الله ومن معه قد هبوا للنزال ، فتراموا بالنبال ،

ثم التقى الجمعان . وقعقعت السيوف ، ووثب الرجال على الرجال ، ووقف المختار يقاتل فأحسن القتال ، فكان من أحسن الناس بلاء ، وأعظمهم غناء ، وثبت جيش ابن الزبير ساعة من نهار ، ثم دعا رجل من أهل الشام المنذر بن الزبير إلى المبارزة ، وكان الشأمى على بغلة فخرج المنذر إليه ، فاعتورا الضربات ، وتبادلا الطعنات وثبتا ثبوت ليثين ، وقفزا قفز ظبيين ، فقد كانا خصمين عنيدين ، وجعل كل يدور حول خصمه يبغى ثغرة ينفذ منها سيفه فيقضى عليه ، ورفع كل منهما سيفه وهوى به على صاحبه فخر صاحبه لها ميتاً ، فصار البطلان كأمس الذاهب .
ورأى ابن الزبير مقتل أخيه ، فثارت ثورته ، ولكن أهل الشأم شدوا على أصحابه شدة نكراء ، فانكشف أصحابه انكشافة ، وعثرت بغلته ، فقال :

— تعساً .

ثم نزل وصاح بأصحابه :

— إلىّ .

فأقبل الناس إليه : وراح يقاتل وهم يقاتلون دونه ، وثبت المختار وجعل يصيح :

— إلىّ إلىّ ، أنا ابن أبى عبيد بن مسعود ، وأنا ابن الكرار لا الفرار ، أنا ابن المقدمين غير المحجمين ، إلى يا أهل الحفاظ ، وحماة الأوتار . فحمى النار .
واستمرت المعركة شديدة ، وبقى ابن الزبير يجالد القوم حتى أقبل الليل . ولف المكان بردائه الأسود ، فانصرف الناس عنه ، وأخذ ابن الزبير يتأهب لاستئناف القتال مع الغد .

واستمر القتال ، وطال الحصار ، فنصب الحصين المجانيق على جبل أبى قبيس وعلى قيقعان ، وأخذ يقذف مكة بالمجانيق ، وكان قد فرض على أصحابه عشرة آلاف صخرة فى كل يوم يرمونها بها ، فراحت الصخرات تسقط على أول بيت بنى للناس ، فلم يقدر أحد أن يطوف بالبيت . فجلب ابن الزبير ألواحاً من الساج وأسندها الى البيت ، وألقى عليها القطائف والفرش . فكان اذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت ، وضرب فسطاطاً فى ناحية من المسجد ، فكلما جرح أحد من أصحابه ، أدخله ذلك الفسطاط .

وراح ابن الزبير وأصحابه يطوفون بالبيت ، وراحت الأحجار تتساقط على الفرش ، وانبعثت أصوات الأحجار ، فكان كلما سقط حجر وارتفع له صوت ، كبر ابن الزبير وأصحابه الذين يطوفون تحت الساج ، وتذكر الناس ما فعل الله بأصحاب الفيل الذين جاءوا لينتهكوا حرمة بيته ، وما أنزل عليهم من صارم العقاب ، فجال برءوسهم خاطر أن ينزل الله غضبه على الحصين ومن معه ، فقالوا :

— نظروه لئلا يصيبه ما أصاب أصحاب الفيل .

فقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكان يطوف معهم :

— لا نظن ذلك ، لو كان كافرا بمكة لعوقب دونها ، فأما إذا كان مؤمنا بها فسيبتلى فيها .

واستمر الحصار شهوراً . وأوقد أصحاب ابن الزبير النار حول الكعبة ، وشاء رجل أن يأخذ فى طرف رمحه ناراً ليستعملها فى الفسطاط فوقعت النار على الكعبة ، فاحترق الخشب ، وانصدع الركن ، واحترقت الأستار وتساقطت إلى الأرض ، فهب أعوان ابن الزبير لإطفائها ، وخمدت النار ، وجاس أهل مكة فى ناحية الحجر ، واستمر أهل الشأم يرمونهم بالنبل ، ويضيقون عليهم الحصار ، ووقعت نبلة بين يدى ابن الزبير ، كان فيها الفرج ، فقد تناولها فوجد بها مكتوباً : « مات يزيد بن معاوية يوم الخميس رابع عشر ليلة خلت من ربيع » فشت الراحة فى صدر ابن الزبير ، وتهللت أساريره ، فقد حبس الله القوم المعتدين عن بيته ، وقرأ النبأ على أصحابه فهزهم السرور ، واستولى عليهم الرضا ، وهب ابن الزبير ودنا من ناحية أهل الشأم وصاح :

— يا أهل الشام ، يا محرقى بيت الله . يا مستحلى حرم الله ، علام تقاتلون وقد مات طاغيتكم يزيد بن معاوية ؟ !

فلم يصدق الحصين ذلك ، وحسب أنها خدعة من خدع الحرب ، فاستمر يرمى ابن الزبير وصحابه بالنبل ، ويضيق عليهم الخناق حتى قدم عليه رجل من أصحابه يثق فيه فسأله :

— ما وراءك ؟

ـ هلك يزيد .

فطأطأ الحصين رأسه ، وأعمل فكره ، فرأى مصالحة ابن الزبير فهو أحق الناس بالخلافة ، فبعث إليه :

ـ موعد مابيننا وبينك الليلة الأبطح .

وأقبل الليل فخرج ابن الزبير بأصحابه ، وخرج الحصين بأصحابه إلى البطحاء فتنحى كل واحد منهما عن صاحبه ، وانفردا وتناجيا فقال الحصين لابن الزبير :

ـ يا أبا بكر ، قد علمت أني سيد أهل الشأم لا أدافع عن ذلك ، وأن أعنة خيلهم بيدى . فإذا أهل الحجاز قد رضوا بك فأبايعك الساعة على أن تهدر كل شيء أصبناه يوم الحرة ، وتخرج معى إلى الشأم ، فإني لا أحب أن يكون الملك فى الحجاز .

لم يستطع ابن الزبير أن ينسى مافعل أهل الشأم بأهل المدينة ، فقال :

ـ لا والله لا أفعل ، لا أؤمن من أخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، وانتهك حرمة الله .

ـ بلى فافعل ، على أن لايختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس ، وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك ، والتى كانت بيننا وبين أهل الحرة .

فقال ابن الزبير فى إصرار :

ـ لا . أنا أهدر تلك الدماء ! أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجـــل منهم عشرة .

وحاول الحصين أن يلين قناة ابن الزبير ، وأن يفتله عن عزمه ، فجعل يكلمه سرا ، واستمر ابن الزبير يرفض ويصيح بين وقت وآخر : « لا والله لا أفعل » فضاق صدر الحصين ، وبلغ به الغضب منتهاه ، فصاح فى ابن الزبير :

ـ قبح الله من يعدك بعد هذه داهيا قط أو أديبا ، قد كنت أظن أن لك رأيا ، ألا أرانى أكلمك سرا وتكلمنى جهرا ، وأدعوك إلى الخلافة ، وتعدنى القتلة والهلكة !

وتركه الحصين ، وأدار عنه جواده ، واتجه إلى أصحابه ثم قال لهم :

ـــ اركبوا يا أهل الشام .

فركب أهل الشأم ، وانطلقوا فثار النقع ، وتطاير الغبار ، وأخـــذ الغبار المتطاير يعود ليستقر على الأرض ، وليظهر ما حجب ، فبان ابن الزبير مطأطىء البصر ، فقد كان يفكر فيما عرض عليه الحصين . لقد عرض عليه الملك ،وعرض هو عليه القتل ، لقد اشتد ابن الزبير كثيرا ، ولم يعرف كيف يستغل الفرصة المواتية ، فضاعت الفرصة ، وانقضى الأمل الذى لاح ، واستمر ابن الزبير يندم ، فلو أنه والله سار معهم إلى الشأم حتى يدخل الشأم لما اختلف عليه منهم اثنان ، ولـكن ما سطر فى لوح القدر كان .

وعاد ابن الزبير وأصحابه إلى مكة ، وقد استقر له الأمر ، ففرحت بظهوره أمه أسماء ، وإن كانت جروح حزنها على ابنها المنذر الذى قتل وهو يذب عن البيت لم تندمل بعد ، وإن أسماء لترجو أن تبايع الأمصار جميعاً لابنهـا الحبيب . ولـكن أخشى ماتخشاه عليه أهل الشأم ، فلو بايعوه لاستتب له الأمر ، ولن تتم هذه البيعة على ماتشتهى وتحب ، فإن جد بنى أمية معاوية بن أبى سفيان ، قد وطد لذريته الأركان . وأقام الدعائم ، فشيد لهم ملـكا شامخ البنيان . مات يزيد فبويع ابنه معاوية من بعده ، وكان معاوية شابا تقيا يخشى الله ، ويخشى أن يأمر على الناس ، فأمر بعد أن تمت له البيعة أن ينادى :

« الصلاة جامعة » فاجتمع الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ أما بعد ، فإنى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لـكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليـه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لـكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم .

ثم دخل منزله ، وقد أغضب بنى أمية ، فإنه ليعمل على ضياع الملك من أيديهم ولـكن لم يطل عمره طويلا . فقد مات معاوية بن يزيد ، وذاعت إذاعة أن معاوية قد دس إليه فسقى سما .

رفع الحصار عن مكة ، وبقى المختار بن عبيد مع ابن الزبير ينتظر أن يوليه عملا من أعماله ، وعاد الخوارج يطوفون بالبيت بعد أن زال الخطر المحدق به ،

فلقى بعضهم بعضاً ، فجعلوا يتذاكرون ويتحادثون فقالوا :

— إن الذى صنعتم أمس بغير رأى ولا وصواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ينادى : يالثارات عثمان . فقال أناس منهم :

— ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده ، فإن قدم أبا بكر وعمر ، وبرىء من عثمان وعلى ، وكفر بأبيه وطلحة بايعناه ، وإن تكن الأخرى ظهر لنا ماعنده وتشاغلنا بما يجدى علينا .

فاجتمع جمعهم ، ومشوا إلى ابن الزبير ، فلما اجتمعوا به قالوا له :

— أيها الإنسان ، إنا قد قاتلنا معك ، ولم نفتشك عن رأيك حتى نعلم أمنا أنت أم من عدونا ، ما تقول فى الشيخين ؟

— خيراً .

— فما تقول فى عثمان الذى حمى الحمى ، وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، وأوطأ آل بنى معيط رقاب الناس ، وآثرهم بفىء المسلمين ، وفى الذى بعده الذى حكم فى دين الله الرجال ، وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفى أبيك وصاحبه ، وقد بايعا علياً ، وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر ، ثم انتكثا بيعته ، وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن فى بيوتهن ، وكان لك فى ذلك مايدعوك إلى التوبة ، فإن أنت فعلت كل مانقول لك فلك الزلفى عند الله ، والنصر على أيدينا ، إن شاء الله ، ونسأل الله لك التوفيق ، وإن أبيت خذلك الله وانتصر منك بأيدينا .

فنظر ابن الزبير فإذا من حوله من أصحابه قليل ، فلم يشأ أن يذكر رأيه صراحة ، بل شاء أن يدور ويتملص حتى يجد له مخرجا فقال فى لين :

— إن الله أمر ، وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين ، وأعتى العاتين ، بأرق من هذا القول ، فقال لموسى وأخيه صلى الله عليهما : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى » فنهى عمر سب أبى جهل

من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو رسول الله ، والمقيم على الشرك والجاد فى محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها وكفى بالشرك ذنباً ، وقد كان يغنيكم عن هـذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ، فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى بسب أبى وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن فى أبويه : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » . وقال : « وقولوا للناس حسنا » . وهـذا الذى دعوتم إليه أمر له ما بعده ، وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصريح ، ولعمرى إن ذلك أجرى بقطع الحجج ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل صاحبه من عدوه ، فروحوا إلى من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى .

فانصرف الخوارج على أن يعودوا إليه فى العشى ، وبعث ابن الزبير إلى أصحابه فلما وافوه قال لهم :

— البسوا السلاح ، واحضرونى بأجمعكم فى العشية .

وغابت الشمس ، وأقبل الليل ، وأخـــذ أصحاب ابن الزبير يفدون فى عدة القتال ، والتفوا به ، وقامت جماعة منهم عظيمة على رأسه بأيديهم الأعمدة ، وأقبل الخوارج فى الموعد المضروب ، فلما رأوا أصحاب ابن الزبير على أهبة ، التفت ابن الأزرق إلى إخوانه وقال :

— خشى الرجل غائلتكم ، وقد أزمع بخلافكم ، واستعد لكم . ودنا من ابن الزبير وقال :

— اتق الله ربك ، وابغض الخائن المستأثر ، وعاد أول من سن الضلالة ، وأحدث الأحداث ، وخالف حكم الكتاب ، فإنك إن تفعل ذلك ترض ربك ، وتنج من العذاب الأليم نفسك ، وإن تركت ذلك ، فأنت من الذين استمتعوا بخلاقهم ، وأذهبوا فى الحياة الدنيا طيباتهم .

ثم التفت الى أحد أصحابه وقال :

ـ يا عبيدة بن هلال ، صف لهذا الإنسان ومن معه أمرنا الذى نحن عليه والذى ندعو الناس اليه .

فتقدم عبيدة وقال :

ـ أما بعد ، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى عبادة الله وإخلاص الدين ، فدعا إلى ذلك فأجابه المسلمون ، فعمل فيهم بكتاب الله أمره حتى قبضه الله اليه ، صلى الله عليه ، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلاهما عملا بالكتاب وسنة رسول الله ، فالحمد لله رب العالمين ، ثم إن الناس استخلفوا عثمان بن عفان ، فحمى الأحماء ، فآثر القربى ، واستعمل الفتى ، ورفع الدرة ، ووضع السوط ، ومزق الكتاب ، وحقر المسلم ، وضرب منكرى الجور ، وآوى طريد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضرب السابقين بالفضل ، وحرمهم ، ثم أخذ فىء الله الذى أفاءه عليهم ، فقسمه بين فساق قريش ، ومجان العرب ، فسار اليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته ، لا يبالون فى الله لومة لائم ، فقتلوه ، فنحن لهم أولياء ، ومن ابن عفان وأوليائه برآء ، فما تقول يا بن الزبير ؟ .

فقال عبد الله بعد أن حمد الله وأثنى على نبيه :

ـ أما بعد ، فقد فهمت الذى ذكرتم ، وذكرت به النبى صلى الله عليه وسلم فهو ، كما قلت ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفوق ما وصفته ، فهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر ، وفهمت ماذكرت بهعثمان بن عفان رحمة الله عليه ، وإنى لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره منى ، كنت معه حيث نقم القوم عليه ، واستعتبوه فلم يدع شيئاً استعتبه القوم فيه إلا أعتبهم عنه ، ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم يأمر فيه بقتلهم ، فقال لهم : ما كتبته ، فإن شئتم فهاتوا ببينتكم ، فإن لم تكن حلفت لكم ، فوالله ما جاءوا ببينة ، ولا استحلفوه ، ولو ثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعت ما عبته به فليس كذلك ، بل هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضرنى أنى ولى لابن عفان فى الدنيا والآخرة ، وولى أوليائه ، وعدو أعدائه .

فظهر الغضب فى وجوه الخوارج وقالوا فى حنق :

— نبرىء الله منك يا عدو الله .

— نبرىء الله منكم يا أعداء الله .

وابتدأ القوم فى الانصراف وقد عزموا على الرجوع الى البصرة .

« * »

بايع أهل الحجاز وأهل مصر وأهل العراق لعبد الله بن الزبير ، وبايع أهل الشأم له إلا أهل الأردن ، واختلف بنو أمية فيما بينهم ، إنه لما يسوؤهم أن تخرج الخلافة من الشأم لتعود الى الحجاز ، وإنه لما يثير حنقهم أن تفلت الخلافة من أيديهم ، ولكن كبيرهم مروان بن الحكم يرى أن يخرج إلى ابن الزبير ليبايعه ، وتأهب مروان للخروج ، وقبل أن ينطلق الى مكة ، قدم جيش الشأم الذى كان يقاتل ابن الزبير ، وقابل حصين بن نمير مروان بن الحكم ، فأخبره أنه دعا ابن الزبير إلى البيعة فأبى ، ولما علم عزم مروان على الخروج قال له :

— نحن نراكم فى اختلاط شديد ، فأقيموا أمركم قبل أن يدخل عليكم شأنكم فتكون فتنة عمياء صماء .

وتريث مروان يفكر ، وقدم من الكوفة عبد الله بن زياد الذى كان والياً عليها ، فلما بلغه ما يريد مروان ، انطلق إليه وقال له :

— استحييت لك ماتريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنعه .

فأطرق مروان قليلا ، إنهم يعرضون عليه الخلافة ، وإنه ليتمناها لنفسه ولبنى أمية ، فرفع رأسه وقال :

— ما فات شيء بعد .

لقد قر رأى مروان على أن يدعو لنفسه وينابذ ابن الزبير بعد أن كان قد تأهب للخروج لمبايعة حفيد الصديق .

واجتمع مالك بن هبيرة السكونى ، وكان يهوى هوى بنى يزيد بن معاوية ، ويحب أن تكون الخلافة فيهم ، وحصين بن نمير وكان يهوى أن تكون الخلافة لمروان . وشاء مالك أن يبايع لخالد بن يزيد ، فقال الحصين :

— هلم فلنبايع لهذا الغلام الذى نحن ولدنا أباه ، وهو ابن أختنا ، فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه ، فانه يحملنا على رقاب العرب غداً .

فقال الحصين :

— لا لعمر الله ، لا تأتينا العرب بشيخ ، ونأتيهم بصبى .

— والله لئن استخلفت مروان ، وآل مروان ، ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك ، وظل شجرة تستظل بها ، إن مروان أبو عشيرة ، وأخو عشيرة فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم ، ولكن عليكم بابن أختكم خالد .

فطأطأ الحصين رأسه ثم قال :

— إنى رأيت فى المنام قنديلا معلقاً من السماء ، وإن من يمد عنقه إلى الخلافة تناوله فلم ينله ، وتناوله مروان فناله ، والله لنستخلفنه .

واجتمع أمر بنى أمية على المبايعة لمروان ، وكان أهل الشأم ينكرون فضل ابن عمر وابن الزبير . فقام خطيب بنى أمية فقال :

— أيها الناس : إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدمه فى الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ، وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير ، ويدعون اليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون بأنه لابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن اسماء ابنة أبى بكر الصديق ذات النطاقين . وهو بعد كما تذكرون فى قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفتين يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين ، وليس صاحب أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم المنافق ، وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان فى الإسلام صدع قط إلا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع ، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذى قاتل على بن أبى طالب يوم الجمل ، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ، ويستشبوا الصغير .

ونزل خطيب القوم بعد أن حض القوم على مبايعة مروان ثم خالد بن يزيد من بعده وبويع لمروان بالشام ، وكان الضحاك بن قيس والى الشام من قبل ابن الزبير وكان بدمشق ، فخرج الى مرج راهط لملاقاة مروان ، فهزم الضحاك واستشهد وأصبحت الشام لمروان ، لاينازعه فيها منازع .

الفصل الرابع والثلاثين

معارك

بويع لمروان بالشام على أن يتولى الأمر من بعده خالد بن يزيد ، ولكن لما استقر الأمر لمروان شاء أن يبايع لابنيه عبد الملك ثم لعبد العزيز من بعده ،ولكن خالدا يقف حجر عثرة فى سبيله ، فقيل لمروان :

— تزوج أم خالد حتى تصغر من شأنه فلا يطلب الخلافة .

فأعجبت الفكرة مروان فنفذها ، ثم دعا أحد أعوانه وأسر إليه أمنيته : إنه ليود مبايعة ولديه . فلما اجتمع الناس عند مروان عشياً قام الرجل فقال :

— إنه قد بلغنا أن رجالا يتمنون أمانى ، قوموا فبايعوا لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده.

فقام الناس فبايعوا وما تخلف منهم أحد .

وفى يوم من الأيام ، دخل خالد على مروان وعنده جماعة كثيرة ، وهو يمشى بين الصفين ، فشاء مروان أن يسقطه من أعين أهل الشأم ، فقال :

— إنه والله ما علمت لأحمق ، تعال يا بن الرطبة الإست .

فغضب خالد ، ولكنه كتمها ، وجاس ونار الغضب تأكل صدره ، ثم قام فرجع إلى أمه ، ودخل عليها مغموما محنقاً ، وأفضى إليها بما أثار غضبته ، فالتفتت إليه أمه تطيب من خاطره فقالت :

— لا يعرفن ذلك منك واسكت فانى أكفيكه .

وأقبل الليل ، فدخل عليها مروان ، فوجدها متغيرة قليلا على الرغم مما بذلت من جهد لتبدو هادئة ، فالتفت إليها وقال :

— هل قال لك خالد فىّ شيئا ؟

— وخالد يقول فيك شيئاً ، خالد أشد لك إعظاما من أن يقول فيك شيئا .

ومرت أيام ، واطمأن مروان ، ونسى إساءته لخالد ، ولكن أم خالد لم تنسها ،

لقد سماب مروان ابنها ملكا ، ولم يكتف بذلك بل راح يسبها فى المجالس جهارا .
وأقبل مروان لينام عندها ، فدخلت أم خالد لتتظاهر بالنوم ، فلما راح مروان فى سبات عميق ، هبت أم خالد وقد ارتسم فى وجهها العزم والمقت ، وتناولت وسادة فغطته بها ، وجعلت تضغط عليها حتى كتمت أنفاسه .

وبويع لعبد الملك بن مروان بالخلافة ، لتبدأ المعارك بينه وبين ابن الزبير . ولتدور رحى القتال بين الصديقين الحميمين .

* * *

بقى المختار مع ابن الزبير بمكة ينتظر أن يوليه ابن الزبير ولاية ولكن ابن الزبير لم يفعل ، فغضب المختار . وفى يوم خرج ابن الزبير وبعض أصحابه ، وراحوا يطوفون بالبيت ، ونظر ابن الزبير فإذا هو بالمختار ، فقال لأحد أصحابه .

ـ انظر إليه ، فوالله لهو أحذر من ذئب قد أطافت به السباع .

ومضى ابن الزبير ومضى أصحابه معه ، وبقى منهم واحد ، فاقترب المختار منه وقال :

ـ ما الذى ذكرنى به ابن الزبير ؟

فكتمه الرجل وقال :

ـ لم يذكرك إلا بخير .

فقام المختار :

ـ بلى ورب هذه البنية إن كنت لمن شأنكما ، أما والله ليخطن فى أثرى أو لأقدنها عليه سعرا .

وراح المختار يتأهب للوثوب على ابن الزبير ، فاتصل بابن الحنفية بن الإمام على ، وقد عزم على أن يدعو له ويلف الناس حوله ، وجعل لا يقدم عليه أحد من الكوفة إلا سأله عن حال الناس وهيئتهم ، وقد رحل من الكوفة من يريد عمرة رمضان ، فقابله المختار وسأله عن حاله وحال الناس بالكوفة ، فأخبره عنهم بصلاح ، واتساق على طاعة ابن الزبير ، إلا أن طائفة من الناس إليهم عدد أهل مصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما .

فأطرق المختار قليلا ثم قال :

ـ أنا أبو اسحاق ، أنا والله لهم ، أنا أجمعهم على مرّ الحق ، وأنفى بهم ركبان الباطل ، وأقتل بهم كل جبار عنيد .

ـ ويحك يابن أبى عبيد ، إن استطعت ألا توضع فى الضلال ليكن صاحبهم غيرك ، فإن صاحب الفتنة أقرب شىء أجلا ، وأسوأ الناس عملا .

ـ إنى لاأدعو إلى الفتنة ، إنما أدعو إلى الهدى والجماعة .

وتجهز المختار للخروج ، وترك ابن الزبير الذى لم يطمئن إليه ولم يستعمله ، ليعلن هواه إلى أهل البيت ، وركب رواحله وانطلق حتى إذا مااقترب من الكوفة قابل ناسكا يعرفه فتصالحا وتساءلا فخبره المختار خبر الحجاز ، ثم التفت إلى الناسك وقال :

ـ حدثنى عن الناس بالكوفة .

ـ هم كغنم ضل راعيها .

ـ أنا الذى أحسن رعايتها وأبلغ نهايتها .

ـ اتق الله واعلم أنك ميت ومبعوث ومحاسب ومجزى بعملك ، إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر .

فتركه المختار وقد عزم على أن يؤلب الناس ، وأن يدعو لأهل البيت حتى إذا ماانتهى إلى بحر الحيرة نزل فاغتسل فيه وأدهن ، ولبس ثيابه واعتم وتقلد سيفه وانطلق .

سار المختار وكان لايمر بمجلس إلا سلم على أهله وقال :

ـ أبشروا بالنصر والفلج ، أتاكم ماتحبون .

ومر برجل شجاع اشتهر بشدة حبه لعلى فسلم عليه وقال :

ـ أبشر بالنصر واليسر والفلج ، إنك على رأى حسن ، لن يدع الله لك معه مأثما إلا غفره ، ولاذنباً إلا ستره .

فأشرق وجه الرجل وقال :

ـ بشرك الله بخير ، إنك قد بشرتنا ، فهل أنت مفسر لنا .

— نعم ، فالقنى فى الرحل الليلة ، وبلغ أهل مسجدكم هذا عنى ، إنهم قوم أخذالله ميثاقهم على طاعته ، يقتلون المحلين ، ويطلبون بدماء أولاد النبيين ، ويهديهم للنور المبين .

واستمر المختار يطوف على الناس وهو فى ثياب السفر يدعوهم إلى لقائه الليلة، ثم دخل داره .

وخيم الظلام ، وخرج الناس وأتوه من الليل ، فلما دخلوا عليه وجلسوا سألهم عن أمر الناس وعن حال الشيعة فقالوا له :

— إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صرد الخزاعى . وإنه لن يلبث إلا يسيرا حتى يخرج .

فحمد المختار الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

— أما بعد ، فإن المهدى ابن الوصى محمد بن على بعثنى إليكم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً وأمرنى بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته والدفع عن الضعفاء .

وراح المختار يستميل الشيعة ويقول لهم :

— إنى قد جئتكم من قبل ولى الأمر ، ومعدن الفضل ، ووصى الوصى والإمام المهدى ، بأمر فيه الشفاء ، وكشف الغطاء ، وقتل الأعداء ، وتمام النعماء ، إن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه عشمة من العشم ، وخشى بال ليس بذى تجربة للأمور ، ولا له علم بالحروب إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم ، إنى إنما على مثال قد مثل لى ، وأمر قد بين لى فيه عز وليكم ، وقتل عدوكم ، وشفاء صدوركم . فاسمعوا منى قولى ، وأطيعوا أمرى ، ثم أبشروا وتباشروا ، فإنى لكم بكل ماتأملون خير زعيم .

واستطاع المختار أن يستميل طائفة من الشيعة ، وخرج سليمان بن صرد لقتال أهل الشام والثأر للحسين ، وبقى المختار بالكوفة يرقب مايصير إليه أمر سليمان ، ويتمنى له الزوال رجاء أن يستجمع له أمر الشيعة ، فيكون أقوى له على درك مايطلب .

وفكر عمال ابن الزبير فى أمر المختار فوجدوه أخطر من سليمان ، فإن سليمان ليخرج لقتال أهل الشام ، وإن المختار ليمكث بالكوفة لايخرج ، حتى يشتد ساعده

فينكل بهم ، فتفكروا وأمعنوا التفكير ، فخرجوا إليه فى الناس ، فما شعر بشىء ، حتى أحاطوا به وبداره فاستخرجوه ، فلما رأى جماعتهم قال :

ــ ما بالكم ، فوالله بعد ماظفرت أكفكم .

فالتفت عامل ابن الزبير إلى أحد أعوانه وقال :

ــ شده كتافا . ومشه حافياً .

فقال الرجل :

ــ سبحان الله ! ما كنت لأمشيه ، ولا لأحفيه ، ولا كنت لأفعل هذا برجل لم يظهر لنا عداوة ، ولا حربا ، وإنما أخذناه على الظن .

فقال عامل ابن الزبير المختار .

ــ ما أنت وما يبلغنا عنك يابن أبى عبيد ؟ .

ــ ما الذى بلغك عنى إلا باطل .

وأتى المختار ببغلة دهماء يركبها ، فقال عامل ابن الزبير للرجل الذى كان يحادثه .

ــ ألا نشد عليه القيود ؟

فقال الرجل فى هدوء :

ــ كفى له بالسجن قيداً .

وألقى المختار فى السجن ، وراح يقول :

ــ أما ورب البحار والنخيل ، والأشجار والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ، ومهند بتار ، فى جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار ، ولا بعزل أشرار ، حتى إذا أقمت عمود الدين ، ورأبت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، ولم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى :

وخرج التوابون ، وشخصوا إلى عبيد الله بن زياد للطلب بدم الحسين بن على ، ودارت المعارك ، واستشهد الناس ورأى ابن الزبير فى مكة أن الكعبة قد مال حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق ، فهدم البيت حتى سواه بالأرض وحفر أساسه ، ثم أعاد بناءه ، وأعاد ما كان فيه من حلى ، وما وجد فيه من ثياب أو طيب وراح يطوف مع الطائفين بالبيت العتيق .

الفصل الخامس والثلاثون

تحقق الأمانى

تمنى ابن الزبير يوم جمع المسجد الحرام بينه وبين أخويه مصعب وعروة وعبد الملك بن مروان أن يملك الحرمين وينال الخلافة . فتحققت منيته ، ونال رغبته ، فقرت عينه ، وفرحت أسماء بمبايعة الناس لابنها ، فقد نال خيراً ، وصار للناس أميراً ، ولم يفرح عروة أخوه ولم يبتئس ، فما كان ليفرح إذا ماأقبلت الدنيا عليهم ، وما كان ليحزن إذا ماأدبرت عنهم ، فما تمنى يوم تمنى الصحاب إلا الزهد فى الدنيا والفوز بالجنة فى الآخرة ، إن الدنيا فى عينى عروة عرض زائل ، ومتاع قليل ، لاتستأهل تشاحناً وتقاتلا ، فعلام التشاحن والتقاتل إذا كان كل إلى الزوال سائر . أما عبد الملك بن مروان فقد تمنى أن يملك الأرض كلها ويخلف معاوية ، وقد ورث ملك بنى أمية لخلف معاوية ، ولكن هناك ابن الزبير يقاسمه الأرض وحكم البلاد ، فلم تتحقق منيته كلها ، إنه ليود أن تكون الأرض كلها له وحده لاينازعه فيها منازع ، فليعبىء الجيوش وليرسلها لقتال منافسيه ليتحقق حلمه الذى يتراءى له دواماً والذى يتخايل أمام عينيه فى اليقظة والمنام . أما المصعب فقد تمنى أن يملك العراقين وأن يجمع بين عقيلتى قريش ، سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة . إن المصعب فتى جميل ، تتدفق فى عروقه الدماء الحارة تدفقاً فيرى الدنيا أملا باسماً وحلماً لذيذاً ، ولكن لم تتحقق بعد منيته ، فقد تزوج عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر من ابنة خالته عائشة ، وبقيت تحته تسقية من الصد كئوساً ، وتريه من الدلال ألواناً . فإنها لتثق كل الثقة بجمالها ، وإنها لتعلم علم اليقين هوى زوجها وشغفه بها ، إنه هيمان ، وإنه لمما يسرها أن تصده دلالا ، لترى توله ، ولتحس حبه وغرامه .

وراح عبدالله بن الزبير يوزع عماله ، فبعث عبدالله بن عبدالرحمن على بعض أعمال اليمن ، لحمل عائشة وخرج بها ، فلما استقر بعمله أخذ يعطى أعطية سنية ،

وترامت أنباء ذلك إلى قريش ، وبلغها كرم عبدالله فخرجوا إليه ، إنهم ليشتاقون إلى العطايا ، فإن ابن الزبير قد حرمهم إياها ، فما كان ممن يجزل العطاء ، أو يبذل أموال المسلمين لاسترضاء الناس وتأليفهم ، فجعل عبدالله بن عبدالرحمن يبث فى قريش منها أشياء جزيلة ، فأثنت علية قريش ، وكثر وفودهم إلى اليمن ، فبلغ ذلك ابن الزبير فحسده وعزله ، وبعث إبرهيم بن سعد بن أبى وقاص مكانه ، فلما قدم إبرهيم أراد أن يحاسبه ، فقال له ابن عبد الرحمن :

— مالك عندى حساب ، ولا بينى وبينك عمل .

وخرج عبدالله بن عبدالرحمن إلى مكة ، وبلغ قريش عزله وقدومه ، فخافت ابن الزبير عليه أن يفتشه ويكشفه ، فلبست السلاح ، وخرجت إليه لتمنعه ، وأقبل عبدالرحمن ، فنزلت إليه قريش فسلمت عليه ، وبسطت له أرديتها ، وتلقته إماؤهم وولائدهم بمجامر الألوّة والعود والمندلى يبخرون بين يديه حتى انتهى إلى المسجد ، وطاف بالبيت ، ثم جاء إلى ابن الزبير وهم معه مطبقون به ، فسلم عليه ، ونظر ابن الزبير إلى قريش وقد لبست السلاح ، فعلم أنه لاسبيل له إليه ، ورأى أنه من الحكمة ألا يفاتحه فى الأمر ، فأعرض ولا صرح له بشىء ، وعاد عبدالله بن عبدالرحمن إلى بيته ، ولم يلبث بمكة طويلا فقد سار إلى المدينة ، ونزل بها ، وحام الموت حوله فلم ينقض كثير وقت حتى اختطفه ، فرحل عبد الله بن عبدالرحمن ، وقد ترك عائشة بنت طلحه حرة ، فأحيى ذلك موات الأمل فى قلب المصعب .

أصبحت عائشه بنت طلحة فارغة بعد موت زوجها ، فصارت قبلة الأنظار ومنية النفوس ، فإن المصعب يتمناها ، وإن الحارث ابن خالد المخزومى يحلم بوصالها ، ولم يضيع المصعب الفرصة السانحة ، بل رأى أن يأتى عزة الميلاد ، وهى امرأة حسناء ، يألفها الاشراف وأهلهم ، وكانت من أظرف نساء أهل المدينة ، وأعلمهن بأمور النساء ، ليسألها عن عائشة ، فخرج حتى إذا ما أتى دارها استأذن فأذن له ، فلما دخل وسلم قال :

— إنا خطبنا فانظرى لنا .

فقالت عزة .

— يابن أبى عبدالله ومن خطبت ؟

— عائشة بنت طلحة .

— انتظر .

ونادت جاريتها وقالت لها :

— هاتى منقلى (خفىّ)

فاحضرتهما الجارية ، فلبستهما عزة ، وخرجت معها خادم لها ، وسارا إلى بيت عائشة بنت طلحة ، فلما دخلت عزة عليها وجلست قالت لها :

— فديتك ، كنا فى مأدبة أو مأتم لقريش فتذاكروا جمال النساء وخلقهن فذكروك . فلم أدر كيف أصفك ، فديتك فالقى ثيابك .

ولما كانت عائشة يسرها أن يتحدث الناس عن جمالها ، فقد قامت وألقت ثيابها ، فأقبلت وأدبرت وعزة تتفحصها ، فارتج كل شىء منها . فقالت لها عزة :

— خذى ثوبك فديتك .

فارتدت عائشة ثوبها ، ثم جلست إلى عزة وقالت لها :

— قد قضيت حاجتك وبقيت حاجتى .

— وما هى بنفسى أنت ؟

— تغنى صوتا .

فاندفعت عزة تغنى لحنا ، فأطربت عائشة وأشجتها . فلما انتهت قامت إليها عائشة فقبلت مابين عينيها ، ودعت لها بعشرة أثواب وبطرائف من أنواع الفضة . فأخذت عزة الهدايا ثم دفعتها إلى خادمها ، ثم خرجت إلى المصعب المنتظر أوبتها .

دخلت عزة على المصعب ، فقام إليها وقال ملهوفا :

— ماوراءك ؟

— يابن أبى عبدالله ، أما عائشة فلا والله إن رأيت مثلها مقبلة مدبرة ، محطوطة المتنين ، عظيمة العجيزة ، ممتلئة الترائب ، نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر ، لفاء الفخذين ، ممتلئة الصدر ، خميصة البطن ذات عكن ضخمة السرة ،

مسرولة الساق يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها ، وفيها عيبان : أما أحدهما فيواريه الخمار ، وأما الآخر فيواريه الخف : عظم القدم والأذن.

وراح المصعب يحمل الهدايا إلى دار عائشة فبلغ ماحمل خمسمائة ألف درهم ، وأمهرها خمسمائة ألف أخرى ، ثم حملها إلى داره وبنى بها ، وجعل ينعم بقربها ويحظى بعطفها ، وشاءت عائشة أن تدعو نسوة من قريش ، فجعلت تعد الدار ، فهيأت مجلسا قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب والمجمر ودعت عزة الميلاد ، وأقبلت النسوة ، وأقبل المصعب وصحبه . فأسدلت الستور بين مجلس الرجال والنساء ، والتفتت عائشة إلى عزة وقالت لها :

— هاتى ياعزة فغنينا .

فابتدأت عزة تغنى فى شعر أمرؤ القيس

وثغر أعز شنيب النبات لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظن به وبالظن يقضى عليك الحكم

فطرب مصعب ، فقام فانتقل حتى دنا منهن والستور مسبلة فصاح :

— ياهذه إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت ، فبارك الله فيك ياعزة

وهزه الطرب فبعث إلى عائشة فوافته فقال لها وقد رنا إليها فى وله :

— أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك ، وأما عزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا الصوت ، ثم تعد إليك .

فأذنت عائشة لها فخرجت وجلست بين الرجال ، وراحت تغنى هذا الصوت فكلما جاءت عليه استعادها المصعب حتى انتشى من الطرب ، فالتفت إليها وقال :

— ياعزة إنك لتحسنين القول والوصف .

الفصل السادس والثلاثون

المختار بن أبى عبيد

حبس عبد الله بن يزيد ، وإبرهيم بن محمد بن طلحة عاملا ابن الزبير المختار بن عبيد الله ، لما أوجسا منه خيفة ، وراح المختار يفكر فى أمر حبسه ويتحايل على الخروج لينفذ ماعزم عليه من مناوأة ابن الزبير ، وشق عصا الطاعة ، والدعوة لأهل البيت ، فتذكر مافعله أيام يزيد يوم حبس لدعوته لأهل البيت وإرساله لابن عمر فشفع له عند يزيد فأطلق سراحه ، فرأى أن يعيد الكرة ، وأن يبعث إلى ابن عمر كتابا مع غلام ، فكتب : « أما بعد ، فإنى قد حبست مظلوما ، وظن بى الولاة ظنوناً كاذبة ، فاكتب فىّ يرحمك الله إلى هذين الظالمين كتابا لطيفاً ، عسى الله أن يخلصنى من أيديهما بلطفك وبركتك ويمنك والسلام عليك » ، ودفع بالكتاب إلى غلام ، فخرج به قاصداً أرض الحجاز .

وعاد إلى الكوفة فلول جيش الشيعة الذى خرج للأخذ بثأر الحسين بعد أن قتل كبيرهم سليمان بن صرد ، فكتب المختار وهو فى السجن إليهم :

— فرحباً بالعصب الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضى انصرافهم حين قفلوا ، أما ورب البنية التى بنى ، ما خطا خاط منكم خطوة ، ولا رتا رتوة إلا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا ، إن سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الانبياء والصديقين ، والشهداء والصالحين ، ولم يكن بصاحبكم الذى به تنصرون ، إنى أنا الامير المأمور ، والامين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين ، والمقيد من الاوتار ، فأعدوا واستعدوا ، وأبشروا واستبشروا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلى الطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، وجهاد المحلين والسلام .

وأعطى الكتاب لرجل يثق فيه ، فأدخله فى قلنسوته فيما بين الظهارة والبطانة ، وخرج حتى إذا ماأتى رؤساء الشيعة أخرج الكتاب ، ودفع به إليهم ، فلما قرأوه

وأداروا قداح الرأى بينهم رأوا أن المختار رجلهم، فأرسلوا إليه رجلا منهم، فانطلق حتى دخل عليه فى سجنه وقال له :

— قد قرأنا الكتاب، ونحن حيث يسرك، فإن شئت أن نأتيك حتى نخرجك فعلنا.

فتهللت أسارير المختار، وبان فى وجهه الرضا، فقد سر باجتماع الشيعة له، ولم يوافق على أن يأتوه حتى يخرجوه، فإنه ليرى أن أوان رسالة ابن عمر قد آن، ولا يبعد أن يكون الغلام الذى بعثه يقطع القفار الآن إلى الكوفة بالكتاب المنتظر، فالتفت إلى الرجل وقال :

— لا تزيدوا هذا، فإنى أخرج فى أيامى هذه.

وقدم الغلام يحمل رسالة ابن عمر، فدخل بها على إبرهيم بن محمد بن طلحة وعبد الله بن يزيد، فقرآ :

— أما بعد، فقد علمتما الذى بينى وبين المختار بن أبى عبيد من الصهر، والذى بينى وبينكما من الود فأقسمت عليكما بحق ما بينى وبينكما لما خليتما سبيله حين تنظران فى كتابى هذا، والسلام عليكما ورحمة الله.

فأرسلا فى طلب المختار، فلما جىء به من سجنه، دعوا له بكفلاء يضمنونه بنفسه، فأتاه أناس من أصحابه كثير، فالتفت إبرهيم إلى عبد الله بن يزيد وفى نظره تساؤل، فما يفعل بكل هؤلاء الناس، فقال رجل وكأنما درى ما يدور فى ذهن إبرهيم :

— ما تصنع بضمان هؤلاء كلهم، ضمنه عشرة منهم أشرافاً معروفين، ودع سائرهم.

فأعجبت الفكرة إبرهيم، فأشاعها بين الضامنين، فتقدم عشرة من خيار الناس وضمنوا المختار، ودعا به عبد الله بن يزيد وإبرهيم بن محمد بن طلحة فحلفاه بالله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم لا يبغيهما غائلة، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة، ومماليكه كلهم ذكرهم وأنثاهم أحرار، فحلف لهما بذلك ثم خرج وانطلق إلى داره

وقد أخذت تراوده أفكاره ، وانقضت أيام واجتمع رؤساء الشيعة عنده ، وراحوا يتذاكرون ما يفعلون ، وسأله أحدهم عن قسمه الذى حلفه فقال وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة هزء وسخرية :

— قاتلهم الله ، ما أحمقهم حين يرون أنى أفى لهم بأيمانهم هذه ، أما حلفى لهم بالله ، فإنه ينبغى لى إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدع ماحلفت عليه وآتى الذىهو خير وأكفر يمينى ، وخروجى عليهم خيرمن كفى عنهم وأكفر يمينى ، وأما هدى ألف بدنه فهو أهون علىمن بصقة ، وما ثمن ألف بدنهفيهولنى ، وأما عتق مماليكى فوالله لوددت أنه قد استتب لى أمرى ثم لم أملك مملوكا أبداً .

وراح أمر المختار يقوى ، ولم يزل أصحابه يكثرون ، وبلغ ابن الزبير اشتداد شوكة المختار ، فعزل عبد الله بن يزيد ، وإبرهيم بن محمد بن طلحة وبعث عبد الله ابن مطيع على عملهما بالكوفة .

تأهب عبد الله بن مطيع للخروج ، فقابله رجل وقال له :

— ياهذا إن القمر الليلة بالناطح فلا تسر .

فابتسم ابن مطيع وقال :

— وهل نطلب إلا النطح .

وخرج حتى دخل الكوفة ، وسار إلى المسجد فصعد المنبر ، فاجتمع الناس يسمعون قول الأمير الجديد فقال :

— أما بعد ، فإنأمير المؤمنين عبد الله بنالزبير بعثنى على مصركم ، وثغوركم ، وأمرنى بجباية فيئكم ، وأن لا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضى منكم ووصية عمر ابن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته ، وبسيرة عثمان بن عفان التى سار فى المسلمين . فاتقوا الله واستقيموا ، ولاتختلفوا ، وخذوا علىأيدى سفهائكم ، وإلا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلومونى لأوقعن بالسقيم العاصى ، ولأقيمن درأ الأصعر المرتاب .

فقام إليه رجل فقال :

— أما أمر ابن الزبير إياك ألا تحمل فيئنا عنا إلا برضانا ، فإنا نشهدك أنا

لانرضى أن تحمل فضل فيئنا عنا ، وأن لا يقسم إلا فينا ، وأن لايسار فينا إلا بسيرة على بن أبى طالب التى سار بها فى بلادنا هذه حتى هلك رحمة الله عليه ، ولا حاجة لنا فى سيرة عثمان فى فيئنا ولا فى أنفسنا ، فإنها كانت أثرة وهوى ، ولا فى سيرة عمر بن الخطاب فى فيئنا ، وإن كانت أهون السيرتين علينا ضراً ، وقد كان لا يألو الناس خيراً .

فارتفع صوت فى المسجد :

— صدق وبر ، رأينا مثل رأيه ، وقولنا مثل قوله .

فرأى ابن مطيع أن يهادن القوم وأن يكسبهم فقال فى هدوء :

— نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهويتموها .

ونزل ابن مطيع وجاءه رجل قال له :

— إن من تكلم من رءوس أصحاب المختار ، ولست آمن المختار ، فابعث إليه فليأتك ، فإذا جاءك فاحبسه فى سجنك حتى يستقيم أمر الناس ، فإن عيونى قد اتتنى فخبرتنى أن أمره قد استجمع له ، وكأنه قد وثب بالمصر .

فدعا رجلين وأمرهما أن يأتياه ، فانطلقا إلى دار المختار ، فلما دخلا عليه قالا :

— أجب الأمير .

فدعا بثيابه وأمر بإسراج دابته ، وتأهب للذهاب معهما ، فلما رأى أحد الرجلين ذلك ، وكان يميل إلى المختار ، وكان يعلم أن السجن مأواه ، قرأ قوله الله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ، ويمكر الله والله خير الماكرين » ففهمها المختار فجلس ، ثم ألقى ثيابه عنه ثم قال :

— القوا على القطيفة ، ما أرانى إلا قد وعكت ، إنى لأجد قفقفة شديدة .

ارجعا إلى ابن مطيع فأعلماه الحال التى أنا عليها .

فقال الرجل الذى قرأ القرآن :

— أما أنا ففاعل

فالتفت المختار إلى الرجل الآخر وقال :

— وأنت يا أخا همدان فاعذرنى عنده فإنه خير لك .

فقال الرجل فى نفسه : « والله إن أنا لم أبلغ عن هذا ما يرضيه ما أنا بآمن من أن يظهر غدا فيهلكنى » فقال :

— نعم ، أنا أصنع عند ابن مطيع عذرك وأبلغه كل ما تحب .

فخرج الرجلان من عنده ، فإذا أصحابه على بابه ، وفى دلوه منهم جماعة كثيرة ، فأقبلا نحو ابن مطيع ، والتفت أحدهما إلى الآخر وقال :

— أما إنى فهمت قولك حين قرأت تلك الآية ، وعلمت ما أردت بها ، وعلمت أنها هى ثبطته عن الخروج معنا بعد ما كان قد لبس ثيابه ، وأسرج دابته .

فجاحده الرجل الآخر أن يكون أراد شيئا من ذلك ، فقال له صاحبه :

— لا تحلف ، فوالله ما كنت لأبلغ عنك ولا عنه شيئا تكرهانه ، ولقد علمت أنك مشفق عليه ، تجد له ما يجد المرء لابن عمه .

ودخلا على ابن مطيع فأخبراه بعلته وشكواه فصدقها وما درى أنهما غشاه ، وأن هذا الغش سيكلفه كثيرا .

وبايع رءوس الشيعة للمختار ، واجتمعوا يوما فى دار أحدهم وراحوا يتشاورون فى أمر المختار فقال أحدهم :

— إن المختار يريد أن يخرج بنا وقد بايعناه ، ولا ندرى أرسله إلينا ابن الحنفية أم لا . فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية ، فلنخبره بما قدم علينا به ، وبما دعا إليه ، فإن رخص لنا اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغى أن يكون شىء من أمر الدنيا آثر عندنا من سلامة ديننا .

— أرشدك الله ، فقد أصبت ووفقت ، أخرج بنا إذا شئت .

واتفق الجميع على الخروج ، فتجهزوا فخرجوا فلحقوا بابن الحنفية ، وبلغ المختار خروج ناس من الشيعة إلى إمامهم يسألونه فى أمره ، فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يخذل الشيعة عنه ، فشاء أن ينهض بالناس قبل رجوع الخارجين فلم يتهيأ ذلك له ، فراح يقول لأنصاره :

ـــ إن نفيرا منكم ارتابوا وتخيروا وخابوا ، فإن هم أصابوا أقبلوا وأنابوا ، وإن هم كبوا وهابوا ، واعترضوا وانجابوا فقد ثبروا وخابوا .

ودخل الشيعة على ابن الحنفية فسلموا عليه ، وسألهم عن حال الناس فخبروه عن حالهم وماهم عليه ، ثم قالوا :

ـــ إن لنا إليك حاجة .

ـــ فسر هى أم علانية ؟

ـــ لابل سر .

ـــ فرويدا إذا .

فمكث قليلا ، ثم تنحى جانبا . فدعا القوم ، فقاموا إليه وقال أحدهم :

ـــ أما بعد ، فإنكم أهل بيت خصكم الله بالفضيلة ، وشرفكم بالنبوة وعظم حقكم على هذه الأمة ، فلا يجهل حقكم إلا مغبون الرأى ، مخسوس النصيب ، قدأصبتم بحسين رحمة الله عليه ، عظمت مصيبته ، ماقدخصكم بها فقدعم بها المسلمون ، وقد قدم علينا المختار بن أبى عبيد يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، فبايعناه على ذلك ، ثم إنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك مادعانا إليه ، وندبنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه .

ثم تكلموا واحداً واحداً حتى إذا فرغوا تكلم محمد بن الحنفية :

ـــ أما بعد ، فأما ماذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، فلله الحمد . وأما ماذكرتم من مصيبتنا بحسين فإن ذلك كان فى الذكر الحكيم ، وهى ملحمة كتبت عليه وكرامة أهداها الله له ، رفع بما كان منها درجات قوم عنده ، ووضع بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولا ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً . وأما ماذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وخرج القوم من عنده ، وراحوا يقولون :

ــ قد أذن لنا ، قد قال لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، ولو كره لقال لا تفعلوا .

وخرج القوم إلى الكوفة ودخلوا على المختار قبل دخولهم إلى رحالهم ، فقال لهم المختار فى لهفة :

ــ ما وراءكم ، فقد فتنتم وارتبتم ؟

ــ قد أمرنا بنصرتك .

فتهللت أسارير المختار وهتف :

ــ الله أكبر ، أنا أبو اسحاق ، اجمعوا إلىّ الشيعة .

فخرج الناس لجمع الشيعة ، فجمع له منهم من كان منه قريباً ، فقال المختار فى ثقة واطمئنان :

ــ يا معشر الشيعة ، إن نفراً منكم أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت به ، فرحلوا إلى إمام الهدى ، والنجيب المرتضى ، ابن خير من طشى ومشى ، حاشا النبى المجتبى ، فسألوه عما قدمت به عليكم فنبأهم أنى وزيره وظهيره ، ورسوله وخليله ، وأمركم باتباعى وطاعتى فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين . وقام رئيس القوم الذين خرجوا إلى ابن الحنفية وقال :

ــ أما بعد ، يامعشر الشيعة ، فإنا قد كنا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ولجميع إخواننا عامة ، فقدمنا على المهدى بن على فسألناه عن حربنا هذه ، وعلى ما دعانا إليه المختار منها فأمرنا بمظاهرته ومؤازرته ، وإجابته إلى مادعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا ، منشرحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشك والغل والريب ، واستقامت لنا بصيرتنا فى قتال عدونا ، فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا .

وراح أمر المختار يقوى ويشتد ، وفى ليلة ليلاء خرج أنصاره للقائه فاعترض بعضهم أحد أنصار ابن الزبير فحملوا عليه ، فخلى لهم الطريق ، وترك لهم السكة وأقبل حتى لقى ابن مطيع فقال له :

ــ ابعث إلى أمراء الجبابين فمرهم فليأتوك ، فاجمع إليك جميع الناس ثم انهد

إلى هؤلاء القوم فقاتلهم ، وابعث إليهم من تثق به فليكفك قتالهم ، فإن أمر القوم قد قوى ، وقد خرج المختار وظهر ، واجتمع له أمره .

فبعث ابن مطيع إلى الأمراء ، وخرج أنصار المختار إلى السكك ونادوا :

— يا لثأرات الحسين ، يامنصور أمت ، يأيها الحى المهتدون ، ألا إن أمير آل محمد ووزيرهم قد خرج فنزل دير هند ، وبعثنى إليكم داعياً ومبشراً ، فاخرجوا إليه رحمكم الله .

وما صكت النداءات آذان القوم حتى خرجوا من الدور خفافاً يتداعون :

— يالثأرات الحسين .

وراحوا يضاربون أنصار ابن الزبير الذين يعترضونهم فى الطريق ، وينطلقون كالسيل الجارف فى ظلمة الليل حتى أقبلوا إلى المختار ، وما انفجر الفجر حتى فرغ المختار من تعبئته وتأهب للقتال .

وتأهب أنصار ابن الزبير ، وخرج ابن مطيع للقتال ، وأرسل الجيوش إلى الجيوش ، والتقى الرجال بالرجال ، ودار القتال ، يوم للمختار ، ويوم لابن مطيع ، ومشت الهزيمة فى ركاب أنصار ابن الزبير ، وظهر المختار ، وحصر ابن مطيع فى قصره ومعه أشراف القوم ، فلما اشتد الحصار قام رجل من الأشراف وقال لابن مطيع :

— أصلح الله الأمير ، أنظر لنفسك ولمن معك ، فوالله ما عندهم غناء عنك ولا عن أنفسهم .

— هاتوا ، أشيروا على برأيكم .

— الرأى أن تأخذ لنفسك من هذا الرجل أمانا لنا ، وتخرج ولا تهلك نفسك ومن معك .

— والله إنى لأكره أن آخذ منه أمانا والأمور مستقيمة لأمير المؤمنين بالحجاز كله وأرض البصرة .

— فتخرج لا يشعر بك أحد حتى تنزل منزلا بالكوفة عند من تستنصحه وتثق به ، ولا يعلم بمكانك حتى تخرج فتلحق بصاحبك .

فالتفت ابن مطيع إلى الآخرين وقال :

— ما ترون فى هذا الرأى الذى أشار به علىَّ ؟

— ما نرى الرأى إلا ما أشار به عليك .

— فرويداً حتى أمسى .

وأقبل الليل وتأهب ابن مطيع للانفلات ، فجمع من فى القصر وقال لهم :

— أما بعد ، فقد علمت الذين صنعوا هذا منكم من هم ، وقد علمت إنما هم أراذلكم وسفهاؤكم وطغامكم وأخساؤكم ما عدا الرجل أو الرجلين ، وإن أشرافكم وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مبلغ ذلك صاحبي ومُعلمه طاعتكم وجهادكم عدوه حتى كان الله الغالب على أمره . وقد كان من رأيكم وما أشرتم به على ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة .

فالتفت إليه أحد الأشراف وقال :

— جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عففت عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذى عليك ، والله ما كنا لنفارقك أبداً إلا ونحن معك فى إذن .

— جزاكم الله خيراً .

وخرج ابن مطيع وترك القصر متستراً بالليل ، يسير على حذر ويغذ فى السير وهو يتلفت فى مشيته قاصداً دار من يطمئن إليه ، ومر الوقت ولما اطمأن الأشراف على أميرهم ، فتحوا باب القصر وخرجوا لمبايعة المختار .

ودخل المختار القصر وأقبل الناس يبايعونه ، وأقبل أحد أنصار المختار وقال له :

— أعلمت أن ابن مطيع فى دار أبى موسى .

فلم يجبه بشىء فأعادها عليه ثلاث مرات فلم يجبه ، ففطن الرجل أن ذلك لا يوافقه ، وتذكر أن ابن مطيع كان قبل المختار صديقاً فسكت ، فلما أتى المساء ، ولف الليل الكون ، بعث المختار إلى ابن مطيع بمائة ألف درهم وقال له :

— تجهز بهذه واخرج ، فإنى قد شعرت بمكانك وقد ظننت أنه لم يمنعك من الخروج إلا أنه ليس فى يديك ما يقويك على الخروج .

وتجهز ابن مطيع وخرج إلى ابن الزبير ، ترى هل فكر المختار فى استمالة ابن الزبير إليه بعمله هذا ؟ .

استتب الأمر فى الكوفة للمختار ، فوثب بمن كان بها من قتلة الحسين والمشايعين على قتله ، وأخذ يعمل فيهم القتل ، وشاء المختار أن يأمن جانب ابن الزبير ، وأن يظهر له الولاء حتى يستتب له الأمر ، فراح يخادع ابن الزبير ويكتب إليه : « أما بعد ، فقد عرفت مناصحتى إياك ، وجهدى على أهل عداوتك ، وما كنت أعطيتنى إذا أنا فعلت ذلك من نفسك ، فلما وفيت لك وقضيت الذى كان لك على ، خست بى ولم تف بما عاهدتنى عليه ، ورأيت منى ما قد رأيت ، فإن ترد مراجعتى أراجعك ، وإن ترد مناصحتى أنصح لك » .

وشاء ابن الزبير أن يعلم أسلم هو أم حرب ، فدعا عمر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومى ، فقال له :

— تجهز إلى الكوفة فقد وليناكها .

— كيف . وبها المختار ؟

— إنه يزعم أنه سامع مطيع .

فتجهز عمر بما بين الثلاثين الألف درهم إلى الأربعين ألفا ، ثم خرج مقبلا إلى الكوفة . وجاء النبأ من مكة إلى المختار ، ففكر وتدبر ، وانطلق عمر ابن عبد الرحمن ، وقبل أن يدخل الكوفة قابله فى المفاوز رسول المختار وعرض عليه سبعين ألف درهم وقال له :

— خذ هذه النفقة ، فإنها ضعف نفقتك ، فإنه قد بلغنا أنك تجهزت وتكلفت قدر ذلك ، فكرهنا أن تغرم ، فخذها وانصرف .

فقال الرجل :

— إن أمير المؤمنين قد ولانى الكوفة ، ولابد من إنفاذ أمره .

وحاول رسول المختار أن يقتل الرجل فلم يفلح ، فدعا بالخيل فظهر خمسمائة فارس دارع رامح عليهم البيض ، فلما رآها قد أقبلت قال :

— هذا الآن أعذر لى ، وأجمل بى ، هات المال .

فدفع رسول المختار المال اليه وهو يقول :

ــ أما إنه لم يبعث به إليك إلا لما بينك وبينه .

وأخذ عامل ابن الزبير المال ثم مضى راجعاً نحو البصرة .

* * *

لم يبايع محمد بن الحنفية لعبدالله بن الزبير ، فلما ابتدأت الدعوة له فى الكوفة ، عندئذ ، فكر ابن الزبير فى إرغامه على المبايعة ، فأرسل اليه يتوعده ، فهرب ابن الحنفية ومن معه من أهل بيته وسبعة عشر رجلا من وجوه أهل الكوفة إلى الحرم ، وكرهوا البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة ، فحبسهم بزمزم ، وتوعدهم بالقتل والإحراق ، وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به ، وضرب لهم فى ذلك أجلا ، وراح ابن الحنفية يفكر فيما يفعل ، فإما البيعة وإما القتل ، وإنه ليأبى البيعة أشد الإباء ، وفيما هو يفكر أشار بعض من كان معه عليه أن يبعث إلى المختار وإلى من بالكوفة رسولا يعلمهم حالهم وحال من معهم وما توعدهم به ابن الزبير ، فأعجب ابن الحنفية بالرأى واختار ثلاثة نفر من أهل الكوفة ليوجههم إلى من قام يدعو له ، فلما نام الحرس على باب زمزم وهدأت الرجل ، ولف السكون كل شىء ، خرج الرجال الثلاثة فى هجعة الليل ، وجعلوا يتزودون للرحلة فى حذر ، ثم انطلقوا قبل أن يزيل النهار فحمة الليل ، فينكشف أمرهم ، ويفشل تدبيرهم .

ودخل الرجال الثلاثة الكوفة ، فتوجهوا إلى المختار ، ودفعوا إليه بكتاب ابن الحنفية ، فما انتهى من قراءته حتى خرج ونادى فى الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقد التمس منهم فيه ألا يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بيته ، فلما فرغ المختار قال :

ــ هذا كتاب مهديكم ، وصريخ أهل بيت نبيكم ، وقد تركوا محظوراً عليهم كما يحظر على الغنم . ينتظرون القتل والتحريق بالنار فى آناء الليل وتارات النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزراً ، وإن لم أسرب اليهم الخيل فى إثر الخيل ، كالسيل يتلوه السيل ، حتى يحل بابن الكاهلية الويل .

لم يبق على انقضاء الأجل المضروب إلا يومان ، ولا زال ابن الحنفية مصراً

على عدم البيعة ، فأعد ابن الزبير الحطب ليحرقه ومن معه ، وبات ابن الحنفية مؤرجحا بين اليأس والأمل ، وراحت الساعات تنصرم فيدنو الأجل ، وأخذ ابن الحنفية يقطع سجنه صاعداً هابطا ، وقد ظهر فى وجهه القلق ، فما بال الذين بعث بهم إلى أنصاره لا يقدمون ، نهار ينقضى ثم نهار يقدم ، فينفذ ابن الزبير وعيده ، فينتهى كل شىء . وفيما هو فى قلقه ، إذ سرى صوت خفيض إلى أذنيه فلم يصدق ، إنه الوهم يصور له مايتمنى ، ولكن الصوت اتضح ، وتردد فى جنبات المسجد الحرام ، إن جموعا تهتف : يا لثارات الحسين ، وما هذه الجموع الا أنصاره ، جاءوا ليخرجوه من سجنه ، ولينصروه نصرا مؤزرا .

وسار أهل الكوفة حتى انتهوا إلى زمزم ، فطردوا الحرس ، وكسروا أعواد زمزم ، ودخلوا على ابن الحنفية ، وأخرجوه ، وأقبل ابن الزبير فى نفر من أصحابه فقال أهل الكوفة لابن الحنفية :

ــ خل بيننا وبين عدوالله ابن الزبير .

ــ إنى لا أستحل القتال فى حرم الله .

وأقبل ابن الزبير إليهم وقال :

ــ أتحسبون أنى مخل سبيلهم دون أن يبايع ويبايعوا .

فقال أحد رءوس الكوفة : « أى ورب الركن والمقام . ورب الحل والحرام لتخلين سبيله ، أو لنجالدنك أسيافنا جلادا يرتاب منه المبطلون .

فقال ابن الزبير فى استخفاف :

ــ والله ما هؤلاء إلا أكلة رأس ، والله لو أذنت لأصحابى ما مضت ساعة حتى تقطف رءوسهم .

فقال له آخر :

ــ أما والله إنى لأرجو إن رمت ذلك أن يوصل اليك قبل أن ترى فينا ما تحب .

فكف ابن الحنفية أصحابه وحذرهم الفتنة ، وأقبل مدد آخر من الكوفة ودخل المسجد الحرام ، ونادوا : يا لثارات الحسين ، فلما رأى ابن الزبير الرجال تتوافد خافهم ، فترك محمد بن الحنفية ينصرف وأنصاره فى أمان إلى شعب على وهم يسبون ابن الزبير ، ويستأذنون ابن الحنفية فيه فيأبى عليهم .

الفصل السابع والثلاثون

المصعب والمختار

بعث ابن الزبير أخاه المصعب على البصره لما رأى المختار يظهر بالكوفة ويداوره ويخادعه ، يظهر الولاء له ، وإن أبطن الغدر ، ينتظر الفرصة المواتية ليضرب ضربته ، ويعلن كلمته . وراح أمير المدينة يستعد للخروج إلى البصرة ، فحمل عائشة زوجه ، وخرج رهط المصعب بن الزبير إلى الولاية الجديدة ، وأخذ الركب ينفصل عن المدينة وينطلق نحو الأفق البعيد حتى ابتلعه وغيبه عن عيون المودعين ، وكان بينهم عاشق قد هصر الحب قلبه لخروج من يهوى ، إنه ليحب عائشة بنت طلحة ، وإنه كان يمنى النفس بالتزوج منها ولكن المصعب قد سبقه ، فلما اختفى هودج عائشة ، طأطأ الحارث بن المخزومى رأسه واحتلت صدره قبضة . فشاء أن ينفس عن أحاسيسه فراح ينشد :

ظعن الأمير بأحسن الخلق	وغدا بليلك مطلع الشرق
فى البيت ذى الحسب الرفيع ومن	أهل التقى والبر والصدق
فظللت كالمقهور مهجته	هذا الجنون وليس بالعشق
أترجة عبق العبير بها	عبق الدهان بجانب الحق
ماصبحت أحداً برؤيتها	إلا غدا بكواكب الطلق .

وانقضت أيام ، وأناخ رجل متلثم على باب مسجد البصره ، ثم صار بخطا ثابتة وئيدة . ودخل المسجد مرفوع الرأس ، ويمم صوب المنبر ، فالتفت الناس إليه يتهامسون ، فصعد المنبر ثابت القدم ، فسكت الناس قليلا ، وسيطر على المكان وجوم ، ثم انطلقت الألسن فهتفت :

— أمير . . أمير .

فرفع الرجل يده ، وأزاح لثامه ، فظهر وجهه المشرق الجميل ، فعرفه الجميع ، وهتفوا :

— مصعب بن الزبير . . . مصعب بن الزبير

وظل المصعب فى جلسته برهه حتى عاد إلى المكان الهدوء ، ثم قام فتعلقت به العيون ، وقد احتبست الأصوات ، وأرهفت الآذان ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— بسم الله الرحمن الرحيم (طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . — وأشار بيده نحو الشأم ورتل — إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين . — وصمت قليلا ثم أشار بيده نحو الحجاز ورتل — ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض — وأشار بيده نحو الشأم وهو يرتل — ونرى فرعون وهمن وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

وصمت قليلا ثم قال :

— يا أهل البصرة ، بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم ، وقد سميت نفسى الجزار ونزل عن المنبر ، وقد عقدت الألسنة دهشة ، فما تعودوا أن يسمعوا خطابا وجيزا كهذا من أمير ، وانطلق المصعب إلى دار الإماره لينظر فى حوائج الناس .

راح المختار يقتل الامويين ويحرق عليهم القرى والدور ، وأخبر أن أهل الشأم قد أقبلوا نحو العراق ، فعرف أنه به يبدأ ، فخشى أن يأتيه أهل الشأم من قبل المغرب . ويأتيه مصعب بن الزبير من قبل البصرة ، فهادن عبد الله ابن الزبير ، وجعل يظهر له الولاء ، فلما بلغه أن عبد الملك بن مروان قد بعث جيشا لقتال ابن الزبير ، بعث من فوره إلية رسالة ليأمن جانب المصعب ، جاء فيها : « أما بعد ، فقد بلغنى أن عبد الملك بن مروان قد بعث إليك جيشا ، فإن أحببت أن أمدك بمدد أمددتك » فكتب إليه ابن الزبير : « أما بعد ، فإن كنت على طاعتى فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادى ، وتبايع لى الناس قبلك ، فإذا أتتنى بيعتك صدقت مقالتك ، وكففت عن بلادك ، عجل على بتسريح الجيش الذى أنت باعثه ، ومرهم فليسيروا إلى من بوادى القرى من جند ابن مروان

فليقاتلوهم والسلام .

ودعا المختار رجلا ممن يثق فيهم فسرحه فى ثلاثة آلاف أكثرهم من الموالى ليس فيهم من العرب إلا سبعمائة رجل ، فقال له :

ـــ سر حتى تدخل المدينة فإذا دخلتها فاكتب إلى بذلك يأتيك أمرى .

وأحس ابن الزبير أن المختار إنما يكيده ، وأنه يبغى أن يحصره فى مكة ، فبعث من مكة إلى المدينة ألفين من رجاله وقال لقائدهم :

ـــ استنفر الأعراب ، وإن رأيت القوم فى طاعتى ، فأقبل منهم وإلا فكايدهم حتى تهلكهم .

وفصل جيش ابن الزبير ، والتقى بجيش المختار فى الرقيم ، فألفاه على تعبئة للحرب ، فسار قائد جيش ابن الزبير إلى قائد جيش المختار فسلم عليه وقال له :

ـــ أخل معى ههنا .

فخلا به فقال له :

ـــ يرحمك الله ، ألست فى طاعة ابن الزبير ؟

ـــ بلى .

ـــ فسر بنا إلى عدوه هذا الذى بوادى القرى ، فإن ابن الزبير حدثنى أنه إنما أشخصكم صاحبكم إليهم .

ـــ ما أمرت بطاعتك ، إنما أمرت أن أسير حتى آتى المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيى

ـــ فإن كنت فى طاعة ابن الزبير ، فقد أمرنى أن أسير بك وبأصحابك إلى عدونا الذى بوادى القرى

فلما رأى قائد ابن الزبير لجاجة قائد المختار عرف خلافه : ولم يشأ أن يعلمه أنه قد فطن إليه فقال له متكلفا الاقناع :

ـــ فرأيك أفضل ، اعمل بما بدالك ، فأما أنا فإنى سائر إلى وادى القرى .

وانصرف قائد ابن الزبير وهو يدبر أمرا ، فلما رأى رجال المختار قد هلكوا جوعا بعث إليهم بجزائر وبدقيق وغنم مسلخة ، فاشتغلوا بالطعام ، واختلطوا

على الماء ، وترك أصحاب المختار تعبئتهم ، فلما رأى رجل ابن الزبير ما هم فيه من الشغل ، جمع من أصحابه نحوا من ألف رجل شداد ، ثم أقبل نحو فسطاط قائد المختار ، فلما رآهم مقبلين إليه نادى فى أصحابه ، فلم يتواف إليه مائة رجل حتى انتهى إليه قائد ابن الزبير وهو يقول :

ـ يا شرطة الله ، إلى إلى قاتلوا المحلين ، أولياء الشيطان الرجيم ، فإنكم على الحق والهدى ، وقد غدروا وفجروا .

وما اقتتلوا إلا شيئا ليس بشىء حتى قتل قائد المختار فى سبعين من أهل الحفاظ ، ورفعت راية آمان فأتوها جميعا إلا نحو من ثلثمائة رجل انصرفوا ، فلما وقع بعضهم فى أيدى أصحاب ابن الزبير قتلوا ، وفر من نجا إلى المختار يجر أذيال الهزيمة ، ونبأ النكبة الكبرى ، ومكر المختار ، ومكر ابن الزبير ، وكان مكر ابن للزبير شديدا .

وأتى فلول الفارين المختار ، فأنبأوه النبأ الأليم ، فظهر الغضب فى وجهه ، وقام فى الناس خطيبا فقال :

ـ ألا إن الفجار الأشرار قتلوا الأبرار الأخيار ، ألا إنه كان أمرا مأتيا ، وقضاء مقضيا .

انكشفت نوايا المختار ، فلم يعد فى مقدوره أن يداور ابن الزبير ، فأصبحت العداوة سافرة ، ينتظر كل منهما الفرصة المواتية ليبطش بصاحبه ، إن المختار ليود ان يقضى على جيش أهل الشأم الذى خرج لقتاله ليتفرغ لابن الزبير ، وإن عبد الله ليود أن يبعث إلى المختار جيوشا لتعود العراق كلها إلى سلطانه ، ولتدخل جميعها فى طاعته ، ولم يبق للمختار إلا سند واحد هو محمد بن الحنفية ، فسارع بالكتابة إليه : « أما بعد ، فإنى كنت بعثت إليك جندا ليذلوا لك الأعداء ، وليحوزوا لك البلاد ، فساروا إليك حتى إذا أظلوا على طيبة لقيهم جند الملحد فخدعوهم بالله ، وغروهم بعهد الله ، فلما اطمأنوا إليهم ووثقوا بذلك منهم وثبوا عليهم فقتلوهم ، فإن رأيت أن أبعث إلى أهل المدينة من قبلى جيشا كثيفا ، وتبعث إليهم من قبلك رسلا حتى يعلم أهل المدينة أنى فى طاعتك ، وإنما بعثت

الجند اليهم عن أمرك فافعل ، فإنك ستجد عظمهم بحقكم أعرف ، وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير الظلمة الملحدين ، والسلام عليك».

فأخذ الرسول الرسالة وانطلق بها إلى محمد بن أبى طالب فلما بلغه دفعها إليه فقرأها ، فلما انتهى منها كتب : «أما بعد ، فإن كتابك لما بلغنى قرأته ، وفهمت تعظيمك لحق ، وما تنوى به من سرورى ، وإن أحب الامور كلها إلى ما أطيع الله فيه . فأطع الله ما استطعت فيما أعلنت وأسررت ، واعلم أنى لو أردت القتال لوجدت الناس إلى سراعا ، والأعوان لى كثيرا ، ولكنى اعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » .

فأقبل الرسول إلى ابن الحنفية ، فودعه وسلم عليه وأعطاه الكتاب وقال له :

— قل للمختار فليتق الله وليكفف عن الدماء .

ولكن المختار لم يكفف عن الدماء بل ولغ فيها ، وجعل يقاتل أهل الشأم وينكل بهم حتى قتل ابن زياد ، واستمرت الكوفه كأتون من نار ، فثار الموالى والعبيد على الأشراف ، فلم يجد الأشراف لهم ملجأ يلوذون به إلا المصعب ، فخرجوا إلى البصرة .

جلس مصعب فى داره ، فجاءه من يقول له :

— إن بالباب رجلا ينادى : يا غوثاه . يا غوثاه . . مشقوق القباء ، تحته بغلة له . قد قطع ذنبها ، وقطع طرف أذنها

— نعم هذا شبث بن ربعى لم يكن ليفعل هذا غيره ، فادخلوه .

ودخل شبث ، وجعل يقص على المصعب ما فعل المختار بهم ، وجاء أشراف الناس من أهل الكوفة فأخبروه بما اجتمعوا له ، وبما أصيبوا به ، ووثوب عبيدهم ومواليهم عليهم ، وسأله النصر لهم ، والمسير الى المختار معهم ، ولكن المصعب تثاقل عن الخروج وإن أكرم وفادتهم ، وأكثر الناس عليه . وجعلوا يستحثونه بالخروج ، فقال لهم :

— إنى لا أسير حتى يأتينى المهلب بن أبى صفره

فكتب المصعب إلى المهلب وهو عامله على فارس : « أقبل الينا لتشهد أمرنا فإنا نريد المسير إلى الكوفة » .

وانتظر المصعب وفود المهلب ، ولكنه أبطأ عليه ، واعتل بشيء من الخراج لكراهة الخروج ، فأمر مصعب محمد بن الأشعث وكان من الأشراف الذين فروا إليه أن يأتى المهلب يستحثه ويقبل به ، وأعلمه أنه لايشخص دون أن يأتى المهلب فذهب محمد بن الأشعث بكتاب المصعب ، فلما قرأه المهلب قال له :

ـــ مثلك يا محمد يأتيني بريدا ، أما وجد المصعب بريدا غيرك !

ـــ إنى والله ما أنا بريد أحد . غير أن نساءنا وأبناءنا وحرمنا غلبنا عليهم عبداننا وموالينا .

فتأهب المهلب ، وجمع جموعا كثيرة ، وحمل أموالا عظيمة ، وخرج بجيش كالبحر الزاخر ، واندفع صوب البصرة ، فعسكر بها ، وسار المهلب إلى المصعب فلما أتى داره وشاء أن يدخل حجبه الحاجب وهو لايعرفه ، فرفع المهلب يده فكسر أنفه ، فدخل إلى المصعب وأنفه يسيل دما ، فقال له :

ـــ مالك ؟

ـــ ضربنى رجل ما أعرفه

وكان المهلب قد دخل ، فلما رآه الحاجب قال .

ـــ هو ذا .

فقال له المصعب :

ـــ عد إلى مكانك .

وانتدب المصعب الناس للخروج ، وأمرهم بالمعسكر عند الجسر الأكبر ، وأرسل بعض أعوانه إلى الكوفة ليدعو الناس إليه سرا ، وليفت فى عضد أعوانه ولما تجهز المصعب خرج فى جيش لجب لقتال المختار ، وبلغ المختار خروج مصعب إليه فقام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

ـــ ياأهل العراق ياأهل الدين وأعوان الحق وأنصار الضعيف وشيعة الرسول وآل الرسول ، إن فراركم الذين بغوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين ، فاستنفروهم

عليكم ليصح الحق وينتعش الباطل، ويقتل أولياء الله، والله لو تهلكون ما عبد الله فى الأرض إلا بالفرى على الله، واللعن لأهل بيت نبيه. انتدبوا مع أحمر بن شميط فإنكم لو قد لقيتموهم لتقتلوهم إن شاء الله قتل عاد وإرم. وخرج أهل الكوفة وهم يتمنون النصر، فما وعدهم المختار شيئاً إلا نالوه، ومشى ابن شميط والموالى بين يديه وبين يدى رايته، وجاء مصعب بن الزبير وقد جعل عباد بن الحصين على الخيل، فجاء عباد حتى دنا من ابن شميط وأصحابه فقال :

ــ إنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله وإلى بيعة الأمير المختار، وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى فى آل الرسول، فمن زعم من الناس أن أحداً ينبغى له أن يتولى عليهم برئنا منه وجاهدناه.

فانصرف عباد إلى المصعب فأخبره. فقال له :

ــ ارحل فاحمل عليهم.

وحمل جيش المصعب على جيش المختار، فلم يصبر أهل الكوفة إلا ساعة من نهار ثم ولوا منهزمين، فبعث المصعب عباد بن الحصين على الخيل فقال.

ــ أيما أسير أخذته فاضرب عنقه.

وسرح محمد بن الأشعث فى خيل عظيمة من خيل أهل الكوفة ممن كان المختار طردهم فقال :

ــ دونكم ثأركم.

فكانوا حيث انهزموا أشد عليهم من أهل البصرة ، لا يدركون منهزما إلا قتلوه. ولا يأخذون أسيرا فيعفون عنه، فلم ينج من جيش المختار إلا طائفة من أهل الخيل. وأما رجالتهم فأبيدوا إلا قليلا ، لقد مناهم المختار النصر، ولكن كذب المختار وفاتهم ما كانوا يتمنون.

جلس المختار فى عصابة من أصحابه ينتظر أخبار القتال، فدخل عليه رجل منهوك القوى، وقد انبهرت أنفاسه، وبان فى وجهه الذعر والفزع فقال :

ــ قتلت والله العبيد قتلة ما سمعت بمثلها قط. وقتل ابن شميط وابن كامل وقواد الناس.

فقال أحد الجالسين :

ــ فهذه والله مصيبة .

فأطرق المختار قليلا ثم رفع رأسه وقال :

ــ ما من الموت بد ، وما من ميته أموتها أحب إلى من مثل ميتة ابن شميط ، حبذا مصارع الكرام .

وبلغ المختار أن المصعب قد أقبل إليه فى البحر وعلى الظهر ، فسار بمن معه ليحول بين المصعب والكوفة . والتقى الجمعان ونشب القتال ، فراح المختار يحض أصحابه على القتال والاستبسال ، فشدوا على بعض أصحاب المصعب فكشفوهم حتى انتهوا إلى المصعب ، لجثا المصعب على ركبتيه ، ولم يكن فراراً ، فرمى بأسهمه ونزل الناس عنده ، فقاتلوا ساعة ثم تحاجزوا ، وبعث المصعب إلى المهلب :

ــ لا أبالك ماتنتظر أن تحمل على القوم ؟

فالتفت المهلب إلى أصحابه وكانوا جامين وقال لهم :

ــ قاتل الناس منذ اليوم وأنتم وقوف ، وقد بقى ماعليكم . احملوا واستعينوا بالله واصبروا .

فحمل المهلب على من بليه حملة منكرة فحطموا أصحاب المختار حطمة منكرة فكشفوهم ، واستمرت المعركة دائرة حتى انقصف أصحاب المختار انقصافة شديدة كأنهم أجمة فيها حريق .

وانهزم أصحاب المختار عنه ، وبقى وأصحابه يقاتل ، ولكن ما يفعل المختار وقد تفرق الناس عنه ، فالتفت إليه أحد أصحابه وقال :

ــ أيها الأمير قد ذهب القوم ، فانصرف إلى منزلك ، إلى القصر .

ــ أما والله ما نزلت وأنا أريد أن آتى القصر ، فأما إذا انصرفوا ، فاركبوا بنا على اسم الله .

وانطلق المختار وصحبه إلى القصر ، فتحصنوا به .

وأسفر الصبح ، فخرج المصعب بمن معه من أهل البصرة ومن خرج إليه من أهل الكوفة ، فمر بالمهلب ، فقال له المهلب :

ــ يا له فتحا ما أهنأه لو لم يكن محمد بن الأشعث قتل .

— صدقت ، فرحم الله محمدا .

وسار المهلب والمصعب قليلا ، ثم قال المصعب :

— يا مهلب .

— لبيك أيها الأمير .

— هل علمت أن عبيد الله بن على بن أبى طالب قد قتل .

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

— أما إنه كان ممن أحب أن يرى هذا الفتح ، ثم لا نجعل أنفسنا أحق بشيء مما نحن فيه منه ، أتدرى من قتله ؟

— لا .

— إنما قتله من يزعم أنه لأبيه شيعة ، أما إنهم قد قتلوه وهم يعرفونه .

ومضى المصعب حتى قطع عن المختار وصحبه الماء والمادة ، فكان المختار وصحبه يعطون السقاء والسقاءين الذين يتسللون إليهم خفية بالراوية الدينار والدينارين لما أصابهم من الجهد . وخرج المختار وصحبه فقاتلوا قتالا ضعيفاً ، فرميت خيله بالحجارة من فوق البيوت ، وصب الماء القذر عليه وعلى أصحابه ، واشتد بهم الكرب ، فأخذ نساؤهم يخرجن من منازلهن معهن الطعام والماء قد التحفن عليه ، فيخرجن كأنما يردن المسجد الأعظم للصلاة ، فإذا اقترين من القصر ، فتح لهن فدخلن على أزواجهن بطعامهم وشرابهم ، وقد بلغ ذلك المصعب وأصحابه . فقال المهلب :

— اجعل عليهم دروباً حتى تمنع من يأتيهم من أهليهم وأبنائهم وتدعهم فى حصنهم حتى يموتوا فيه .

فأمر المصعب أصحابه أن يقتربوا من القصر ، فزحفوا حتى أصبحوا على مرمى سهم منه ، ولمح أحدهم امرأة تدنو فى حذر فاقترب منها وقال :

— من أنت . ومن أين جئت . وما تريدون .

فأخذت المرأة ، ولم تدر ما تقول ، فأرسلت إلى المصعب ، فوجدها زوجة أحد المحصورين والطعام معها ، فأطرق المصعب قليلا ، ثم ردها ولم يعرض لها .

اشتد على المختار وصحبة الحصار ، فالتفت إليهم وقال :

ــ ويحكم ، إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفاً ، انزلوا بنا فلنقاتل حتى نقتل كراماً إن نحن قتلنا ، والله ما أنا بآيس إن صدقتموهم أن ينصركم الله .

فظهر الضعف فى وجوههم ، وبان عليهم العجز والجزع ، وأحجموا عن النزول ، فكيف ينزلون إلى هذه الجموع المنتصرة ليقاتلوهم ، فلما رأى إحجامهم قال:

ــ أما أنا فوالله لا أعطى بيدى ، ولا أحكمهم فى نفسى .

وعزم المختار على خوض غمار القتال حين رأى من أصحابه الضعف ، ورأى ما بأصحابه من فشل ، فأرسل إلى امرأته يطلب طيبا ، فبعثت له بطيب كثير ، فاغتسل وتحنط ، ثم وضع ذلك الطيب على رأسه ولحيته ، ثم خرج فى تسعة عشر رجلا ، والتفت إلى رجل بجواره وقال :

ــ ماذا ترى ؟

ــ الرأى لك . فماذا ترى ؟

ــ أنا أرى أم الله يرى ؟

ــ بل الله يرى .

ــ ويحك أحمق أنت ، إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز ، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ، ومروان على الشأم فلم أكن دون أحد من رجال العرب ، فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم إلا أنى قد طلبت بثأر أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم إذ نامت عنه العرب ، فقتلت من شرك فى دمائهم وبالغت فى ذلك إلى يومى هذا .

وبعث المختار إلى أصحاب المصعب :

ــ أتؤمنون وأخرج إليكم؟

ــ لا إلا على الحكم .

ــ لا أحكمكم فى نفسى أبدا .

وخرج وقد امتشق سيفه ، وراح يضارب الناس حتى قتل ، وبلغ نبأ مقتله من فى القصر فى صبيحة اليوم الثانى ، فقام رجل منهم وقال لهم :

— يا قوم ، قد كان صاحبكم أمس أشار عليكم بالرأى ، لو أطعتموه ياقوم. إنكم إن نزلتم على حكم القوم ذبحتم كما تذبح الغنم ، اخرجوا بأسيافكم فقاتلوا حتى تموتوا كراما .

فعصوه وقالوا :

— لقد أمرنا بهذا من كان أطوع عندنا وأنصح لنا منك فعصيناه ، أفنحن نطيعك !

لقد تشبثوا بالحياة ، ولكن الحياة لفظتهم ، نزلوا على الحكم فبعث إليهم المصعب من يخرجهم مكتفين ، وسيقوا إلى المصعب ، فتقدم منه أحدهم وقال :

— الحمد لله الذى ابتلانا بالإسار وابتلاك بأن تعفو عنا ، وهما منزلتان أحدهما رضا الله ، والأخرى سخطه ، من عفا عفا الله عنه وزاده عزاً ، ومن عاقب لم يأمن القصاص ، يابن الزبير ، نحن أهل قبلتكم وعلى ملتكم ، ولسنا تركا ولا ديلما ، فإن خالفنا إخواننا من أهل مصرنا ، فإما نكون أصبنا وأخطأوا ، وإما أن نكون أخطأنا وأصابوا . فاقتتلنا كما اقتتل أهل الشام بينهم ، فقد اختلفوا واقتتلوا ، ثم اجتمعوا ، وكما اقتتل أهل البصرة بينهم فقد اختلفوا واقتتلوا ثم اصطلحوا واجتمعوا . وقد ملكتم فاسمحوا ، وقد قدرتم فاعفوا .

فرق مصعب لهم ، ورق الناس لهم ، وشاء المصعب أن يخلى سبيلهم ، فقام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . الذى لم يجف دم أبيه المقتول بعد ، وقد ثارت ثائرته : إن الأمير ليود أن يعفو عن قاتل أبيه وصحبه ، فقال فى حدة :

— تخلى سبيلهم ! اخترنا يابن الزبير أو اخترهم .

ووثب رجل من همذان فقال :

— قتل أبى وخمسمائة من همدان ، وأشراف العشيرة وأهل المصر ثم تخلى سبيلهم ، ودماؤنا ترقرق فى أجوافهم ، اخترنا أواخترهم .

وصاح أهل الكوفة الذين شاركوا المصعب فى قتاله :

— اخترنا أو اخترهم .

فلم يعد هناك من اختيار ، قد أصبح المصعب أمام أمر واحد لا ثانى له إذا شاء ألا يثيرها فتنة ليس لها من قرار ، ليس أمامه إلا أن يأمر بقتلهم حتى لايثير ثائرة أنصاره ، فأمر بالقتل ، فارتفعت أصوات الأسارى تتوسل إليه فى ضراعة .

— يا بن الزبير : لا تقتلنا ، اجعلنا مقدمتك إلى أهل الشام غدا ، فوالله ما بك ولا أصحابك عنا غداً غنى إذا لقيتم عدوكم ، فإن قتلنا لم نقتل نرقهم لكم وإن ظفرنا بهم كان ذلك لك ولمن معك .

وتبع المصعب رضا العامة ، فلم يبقهم ليقاتل بهم أهل الشأم ، بل أمر بقتلهم ، فتقدم منه ذلك الرجل الذى طلب بالأمس من أصحابه أن يقاتلوا حتى الموت فرفضوا طاعته فقال :

— إن حاجتى إليك ألا أقتل مع هؤلاء ، إنى أمرتهم أن يخرجوا بأسيافهم فيقاتلوا بأسيافهم حتى يموتوا كراما فعصونى .

فقدم الرجل فقتل . وصاح آخر :

— يابن الزبير، ما تقول لله إذا قدمت عليه وقد قتلت أمة من المسلمين صبرا ، حكموك فى دمائهم فكان الحق فى دمائهم أن لاتقتل نفساً مسلمة بغير نفس مسلمة ، فإن كنا قد قتلنا عدة رجال منكم فاقتلوا عدة من قتلنا منكم ، وخلوا سبيل بقيتنا وفينا الآن رجال كثير لم يشهدوا موطنا من حربنا وحربكم يوما واحداً ، كانوا فى الجبال والسواد يجبون الخراج ، ويؤمنون السبيل .

فلم يستمع المصعب له فقد عزم على أن يرضى العامة ، فأطيحت سبعة آلاف رأس فى غداة واحدة ، وسالت الدماء لتروى أرض الكوفة .

الفصل الثامن والثلاثون

المصعب وعائشـــة

ابتـدأ مولد الصباح ، فتحرك الكون النائم ، وانساب الناس من دورهم إلى المسجد ، وخرج مصعب بن الزبير ليصلى بأهل الكوفة ، فلما قضيت الصلاة جلس والناس حوله ، ودخل الشعبي فقيه أهل العراق وجلس مع القوم . ومر الوقت وأراد الشعبي الانصراف ، فالتفت إليه مصعب وقال :

ـــ ادن .

فدنا منه حتى وضع يده على المخدة التي يتكئ عليها بمرفقه . فأدار مصعب إليه رأسه وقال :

ـــ إذا أنا قمت فاتبعني .

وجلس المصعب قليلا ثم نهض فتوجه نحو دار موسى بن طلحة فتبعه الشعبي فلما أمعن فى الدار التفت إليه وقال :

ـــ ادخل .

فدخل معه ، ومضى مصعب إلى حجرته والشعبي فى أثره ، فالتفت إليه وقال

ـــ ادخل .

فدخل معه فإذا قبة ، فطرحت للشعبي وسادة فجلس عليها ، واستأذن المصعب ودخل ، وما انقضى قليل وقت حتى رفع سجف القبة فإذا هي مزينة بالثياب والأسرة والستور ، وإذا المصعب على سريره وعلى السرير الآخر أجمل وجه رآه الشعبي قط ، فظر الشعبي مأخوذاً وبان الإعجاب فى وجهه فغمغم : ما أجملهما من زوجين !

وأقبل المصعب نحو الشعبي ، وقال وهو يبتسم :

ـــ يا شعبي ، أتعرف هذه ؟

ــ نعم . هذه سيدة نساء العــــالمين ، عائشة بنت طلحة .

فقال المصعب فى سرور:

ــ هذه ليلى ، ثم تمثل :

وما زلت من ليلى لدن طر شاربى   إلى اليوم أخفى حبها وأداجن
وأحمل فى ليلى لقوم ضغينة   وتحمل فى ليلى على الضغائن

ولبث المصعب والشعبي قليلا ، ثم قال المصعب :

ــ إذا شئت ياشعبي فقم .

فخرج الشعبي . فلما كان العشى ، راح إلى المسجد ، فإذا مصعب بمكانه ، وبجواره كاتبه عبد الله بن أبى فروة ، فانطلق إليهما وجلس ، فالتفت إليه مصعب وقال :

ــ ادن .

فدنا منه فقال :

ــ هل رأيت مثل ذلك الإنسان قط ؟

ــ لا .

ــ أتدرى لم أدخلناك ؟

ــ لا .

ــ لتحدث بما رأيت .

ثم التفت إلى ابن أبى فروة فقال :

ــ أعطه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا .

وانصرف الشعبي بما لم ينصرف أحد بمثله : بعشرة آلاف درهم ، ونظرة إلى عائشة .

وراحت عائشة تظهر سافرة لا تستر وجهها من أحد ، فساء ذلك مصعبا ، إنه ليحب أن يتحدث الناس عن جمال زوجه ، ولكنه يحس غيرة إذا ما رأى العيون تتطلع نهمة إليها ، وعزم على أن يحدثها فى ذلك فدخل عليها فقال :

ــ ياعائشة ، ألا تسترين وجهك !

ـ إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم الجمال ، أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، والله مافى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد .

ـ ولكنى أود أن لا أراك سافرة .

ـ ما كنت لأستره .

فثار مصعب وصاح بها :

ـ ياعائشة ، هذا أمرى . . .

فقالت عائشة مغضبة :

ـ إنك علىّ كظهر أمى .

وتركته ، وذهبت إلى غرفة من غرف القصر ، وراحت تعدها وتهيىء فيها ما يصلحها ، ثم أغلقتها عليها . وخرج المصعب لينفس عن صدره مايكربه .

وأقبل الليل ، وعاد إلى المصعب هدوؤه ، وصفت نفسه ، فعاد إلى القصر ، وبحث عن عائشة فألفاها فى غرفتها وقد أغلقت الباب دونه ، فنادى .

ـ عائشة . . . عائشة .

فلم يسمع لندائه جوابا ، فراح يسير أمام الباب جيئة وذهوبا ، ثم يطرقه طرقات فما من مجيب ، فيعيد التوسل والنداء :

ـ عائشة ، أنا مصعب . . . افتحى .

وجهد مصعب أن تكلمه فأبت ، وانقضى الليـــل ومصعب قلق أرق ، إنه لايطيق غضب عائشة ، فإنه يهواها ويرجو رضاها ، فلما أصبح الصباح اتجه إلى باب غرفتها يتوسل إليها أن تكلمه ولكنها ظلت على صمتها لا تجيب نداءه ، فخرج المصعب منقبضا ، وقد غشى وجهه الجميل سحابة خفيفة من الهم ، وجلس فى المسجد وقد ظهر الضيق عليه ولم يستطع أن يمكث طويلا فقد عاد إلى القصر يتوسل إلى عائشة أن تكلمه .

وانقضت أيام وعائشة فى غرفتها لاتبرحها ، ومصعب يتودد ويتوسل وفم عائشة مطبق لاتخرج منه كلمة تعيد إلى قلب الوله طمأنينته المسلوبة . وتريح الفؤاد

المشغول ، وترك مصعب الدار وقدفاضت شجونه ، وقلقت نفسه ، فرأى أن تمشى السفارة بينه وبينها ، فبعث إليها ابن قيس الرقيات ليسألها كلامه ، فسار إليها حتى إذا ماقدم على الباب المغلق طرقه وقال :

— افتحى ، أنا ابن قيس الرقيات .

ففتحت له عائشة ، فدخل وأشارت له أن يجلس فجلس فقال :

— بعثنى الأمير . . .

— وما يريد الأمير ؟

— رضاك .

— وكيف بيمينى ؟

— ههنا الشعبى فقيه أهل العراق فاستفتيه .

— علىّ به .

وخرج ابن قيس الرقيات ليدعو الشعبى ، وقد بهره جمال عائشة فقال :

خبيثـــة برزت لتقتلنـــا مطليـــة الأقراب بالمسك

وأقبل الشعبى ودخل عليها فقالت عائشة :

— أقسمت على المصعب أنه علىّ كظهر أمى .

— ليس هذا بشىء .

— أتحلنى وتخرج خائبا .

فنادت خادمها وأمرت له بأربعة آلاف درهم ، فأخذها وانصرف ، وجاء المصعب وأقبل عليها ، يشع البشر من مقلتيه ، وقد أشرق وجهه ، وضمها إليه فى وله ، وانقضى الوقت السعيد مريعا ، فانصرم الليل ، وأقبل النهار يتهادى فى رفق ، فترك المصعب سريره ، وخرج إلى السوق ليشترى لحبيبة القلب التى رضيت عنه هدية .

وجاس المصعب خلال الأسواق ينقب عن هدية يترضى بها عائشة ، فكان كلما رأى هدية نادرة يهم بشرائها ثم يتركها ليبحث عن أنفس منها حتى وقع على ثمان لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار ، فأخذها وانطلق إلى القصر ، وراح

يغذ فى السير ؛ إن هذة اللؤلؤات لقمينة بأن تدخل السرور على نفس عائشة ، وإن كل منيته أن يدخل البهجة عليها . ودخل القصر وراح يسير بخطا واسعة يخترق الحجر حتى بلغ حجرتها فألفاها نائمة متصبحة فناداها فى حنان :

— عائشة . . . عائشة .

ثم مد يده وهزها فى رفق فأنبهها ، فقامت تتمطى . فنثر اللؤلؤ فى حجرها ، فنظرت إليه وقالت وهى تتثاءب :

— نومتى كانت أحب إلى من هذا اللؤلؤ .

الفصل التاسع والثلاثون

أربعة ألوية

شاء عبد الله بن الزبير أن يولى ابنه حمزة ليفاخر به بنى أمية ، فلما وفد إليه أخوه مصعب عزله عن البصرة وولى حمزة ، وقال للمصعب يعتذر إليه .

— والله إنى لأعلم أنك أحرى وأكفى من حمزة ، ولكنى رأيت فيه رأى عثمان فى عبدالله بن عامر حين عزل أبا موسى الأشعرى وولاه .

وتأهب حمزة وخرج إلى البصرة ، فكان جوادا سخياً مخلطا ، يجود أحيانا حتى لايدع شيئاً يملكه ، ويمنع أحيانا مالايمنع مثله ، فظهرت منه بالبصرة خفة وضعف .

واستقرّ أمر الكوفة لمصعب وأراد أن يستكفى أمر الخوارج . فشاور الناس فيمن يبعثه لهم فقال قوم :

— ول عبد الله بن أبى بكرة .

وقال قوم :

— ليس لهم إلا المهلب فاردده إليهم .

وبلغت المشورة الخوارج ، فأداروا الأمر بينهم ، فقال زعيمهم :

— إن جاءكم عبيد الله بن أبى بكرة أتاكم سيد سمح جواد كريم مطيع لعسكره ، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله أتاكم شجاع ، بطل فارس ، جاء يقاتل لدينه وملكه وبطبيعة لم أر مثلها لأحد ، فقد شهدته فى مواقع فا نودى فى القوم لحرب إلا كان أول فارس يطلع حتى يشتد على قرنه فيضربه ، وإن رد المهلب فهو من عرفتموه ، إن أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر ، يمده إذا أرسلتموه ، ويرسله إذا رددتموه ، لايبدؤكم إلا أن تبدأوه ، إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبز ، والثعلب الرواغ ، والبلاء المقيم .

فولى المصعب عمر بن عبيد الله فارس والخوارج ، فقال المهلب :

— رماهم بفارس العرب وفتاها .

وشخص عمر بن عبيد الله إلى الخوارج ، وسار حتى اقترب منهم ، فقال له أحد أعوانه :

— إن المهلب كان يذكى العيون ، ويخاف البيان ، ويرتقب الغفلة وهو على أبعد من هذه المسافة منهم .

فقال عمر بن عبيد الله فى حزم :

— اسكت خلع الله قلبك ، أتراك تموت قبل أجلك .

ومكث فى مكانه ، فلما جن الليل هجم عليه الخوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح ، فلم يظفروا منه بشىء ، فأقبل على الرجل الذى نصحه وقال :

— كيف رأيت ؟ .

— سلم الله عز وجل ، ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها .

— أما إنكم لو ناصحتمونى مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفى هذا العدو، ولكنكم تقولون : قرشى حجازى ، بعيد الدار ، خيره لغيرنا فتقاتلون معى تعذيراً .

ثم زحف عمر بن عبيد الله من غد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى ألجأهم إلى قنطرة فتكاثف الناس عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها ثم عبروا وتقدم القوم ابنه عبيد الله بن عمر وراح يقاتل العدو حتى قتل ، وعبرت جيوش عمر فالتفت إلى رفيق ابنه النعمان بن عباد فصاح به :

— يانعمان أين ابنى ؟ .

فأطرق النعمان قليلا ثم قال :

— احتسبته ، فقد استشهد رحمه الله صابراً مقبلا غير مدبر .

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم حمل على الناس حملة لم ير مثلها ، وحمل أصحابه بحملته فتمزق شمل الخوارج ، وكتب إلى مصعب : أما بعد ، فإنى قد لقيت الأزارقة ، فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ، ووهب له السعادة ، ورزقناه عليهم الظفر ، فتفرقوا شذر مذر ، وبلغتنى عنهم عودة ، فيممتهم وبالله أستعين وعليه أتوكل .

واستدارت السنة وآن أوان الحج ، فوافت عرفات أربعة ألوية ، ابن الحنفية

فى أصحابه فى لواء قام عند جبل المشاة ، وابن الزبير فى لواء فقام مقام الإمام ، وبنى أمية فى لواء ، وخشى الناس الفتنة ، فمشى رجل إليهم جميعاً ، فجاء محمد بن على ابن أبى طالب فى الشعب فقال له :

— ياأباالقاسم ، اتق الله فإنا فى مشعرحرام وبلد حرام ، والناس وفد الله إلى هذا البيت ، فلا تفسد عليهم حجهم .

— والله ماأريد ذلك، وماأحول بين أحد وبين هذا البيت ، ولا يؤتى أحد من الحاج من قبلى ، ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير ومايروم منى ، وما أطلب هذا الأمر إلا أن لايختلف على فيه اثنان ، ولكن ائت ابن الزبير فكلمه ، وعليك بنجدة .

فانطلق الرجل إلى ابن الزبير يكلمه فقال ابن الزبير :

— أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعونى، وهؤلاء أهل خلاف .

— أرى خيراً لك الكف .

— أفعل .

ثم انطلق الرجل إلى نجده يحدثه فوجده فى أصحابه ، ووجد عكرمة غلام ابن عباس عنده فقال له :

— استأذن لى على صاحبك .

فدخل فلم ينشب أن أذن له ، فدخل فعظم عليه وكلمه كما كلم الرجلين فقال نجدة :

— أما أن أبتدىء أحدا بقتال فلا ، ولكن من بدأ بقتال قاتلته .

— فإنى رأيت الرجلين لايريدان قتالك .

وخرج الرجل إلى شيعة بنى أمية ، فكلمهم بنحو ما كلم به القوم فقالوا :

— نحن على أن لانقاتل أحداً إلا أن يقاتلنا .

وانتهى الحج ، فانفض أول ما انفض لواء ابن الحنفية ثم لواء نجدة ثم لواء بنى أمية ثم لواء ابن الزبير واتبعه الناس ، وانفض الموسم فى سلام .

وبعث حمزة بن عبد الله بن الزبير إلى أحد عماله يستحثه بالخراج فأبطأ به ، فقام إليه بسيفه فضربه فقتله ، فقال له الأحنف : ماأحد سيف الأمير !

واستمر حمزة فى خرقه حتى بعث الأحنف إلى عبد الله بن الزبير يسأله أن يعيد مصعبا ، فعزل ابنه وأعاد مصعبا ، وقبل أن يخرج حمزة من البصرة احتمل مالا كثيراً من مال البصرة ، وشخص بالمال . فترك أباه وأتى المدينة ، فأودع ذلك المال رجالا فذهبوا به : إلا يهوديا كان أودعه فوفى له ، وترامى نبأ هذا إلى ابن الأمير فقال فى حسرة :

— أبعده الله ، أردت أن أباهى به بنى مروان فنكص .

الفصل الأربعون

ترويض النمرة

جلس مصعب فى المسجد وقد شفه الحزن ، ولفه الوجد فقد خاصمته عائشة وطالت مخاصمتها ، وما كان المصعب ليطيق خصامها ، ويصبر على بعادها ، فهى بهجة نفسه ، وبلسم قلبه ، ومتعة ناظريه ، إنها لتخاصمه فلا يزيده ذلك إلا تعلقاً بها ، وحباً لها ، وشغفاً وحنيناً إليها ، فقد سرى حب عائشة فى نفسه مسرى الدم ، فصارت لحياته ضرورة . فما كان يطيق أن يتصور نفسه بعيداً عنها ، محجوبا بينه وبينها ، فما باله وقد انقضت ليالى يداعب صوتها أذنيه ، ولم تهنأ برؤيتها مقلتاه ، ولم تسعد بملامستها يداه ، ولم يضمها إليه بذراعيه ، إن كل حاسة من حواسه تبغيها حتى أنفاسه التى تتردد بين جنبيه .

وأقبل ابن أبى عتيق فسلم عليه ، فرد مصعب السلام ثم شرد بفكره وقد ظلل وجهه سحابة من حزن ، وغشيه كآبة واحتله وجوم . ومر الوقت وقد ساد السكون ، ففطن ابن أبى عتيق إلى حزن مصعب فقال مستفسراً :

— ما بال الأمير ؟
— عائشة .
— مالها ؟
— طالت مصارمتها لى .
— مالى إن رضيت ؟
— حكمك .
— عشرة آلاف درهم .
— هى لك .

فنهض ابن أبى عتيق وانصرف ، وانتظار مصعب سفارته قلقا ، إنه يخشى أن

يخفق فيطول الخصام وقد نفد مافى طوقه من احتمال الهجر والصد ، وانطلق ابن أبى عتيق حتى أتى عائشة فاستأذن فأذن له ، فلما دخل سلم ثم جلس ، فقالت عائشة :

ــ خيراً !

ــ جعلت فداك ، قد علمت حبى لك ، وميلى قديماً وحديثاً إليك من غير منالة ولا فائدة ، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقى ، وترتهنين بها شكرى .

ــ وما هناك ؟

ــ قد جعل لى الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيت عنه .

ــ ويحك ! لايمكننى ذلك .

ــ بأبى أنت فارضى عنه حتى يعطينى ثم عودى إلى ماعودك من سوء الخلق . فضحكت منه وقالت :

ــ رضيت .

وعاد مصعب وقد هدأت نفسه ، واطمأن فؤاده ، وعبق القصر بالسعادة والصفاء ، ولكن لم يدم هذا الصفاء طويلا فسرعان ما عادت عائشة إلى ماعودها من خصام . فصدت وهجرت وطال الصد والهجران ، وبيت مصعب النية على ألا يبدأها بالكلام ، وإن تحمل فى سبيل ذلك برحاء الهوى المكبوت ، ولسعات الحب المذخور الذى لايجد لهيبه منفسا ، فيحرق نفسه ، ويعذب صاحبه .

وسرى فى أرجاء القصر نبأ تأهب المصعب للخروج للقتال ، فراحت عائشة تتزين فقد حان أوان الصلح . فما كان المصعب ليخرج دون أن يتزود ، كانت لثمات عائشة له خير زاد ، وتسرب الوقت ولم يقدم مصعب ، فمشى القلق إلى عائشة ، ولم تدر لقلقها من داع ، إنها لعلى يقين من إقباله عليها ، وضمها إليه وتقضية ليلته هذه عندها قبل أن ينطلق مع الصباح إلى حومة الوغى ، وميدان القتال ، وتأخر المصعب فى عودته فعللت ذلك بانشغاله بإعداد العدة للقاء الأعداء ، وجعلت تطمئن نفسها الهائجة ، وتحاول قمع ثورتها الناشبه فى صدرها ، وما انصرم الثلث الأخير من الليل حتى كاد مرجل غضبها ينفجر ، فقد انقضى الليل وما عاد .

وأصبح الصباح ، وكان صباحاً مشرقاً جميلا ، وهب النسيم ، وكان نسيماً منعشاً عليلا ، وخرجت عائشة إلى أرجاء القصر تسأل عن الأمير وما لفت نظرها إشراق الصباح ، وما أحست النسيم الهفهاف فقد كانت نفسها منقبضة ، وما كانت لتحسن إلا وخزات الآلم التى كانت تخز روحها ، وأقبلت مولاة لها فسألتها :

— أين الأمير ؟

— خرج .

— متى ؟

— مع الفجر .

فأحست عائشة غصة فى حلقها ، وعلا وجهها وجوم ، وماتت الكلمات على شفتيها ، وشعرت بالدموع تطفو إلى مقلتيها فلم تشأ أن تبكى وتنتحب أمام جاريتها ، فأدارت لها ظهرها ثم ولت إلى حجرتها وأغلقتها خلفها ، وارتمت على الفراش الذى أعدته للمصعب ، تبكى وتنتحب .

ومرت الأيام ، وترامت الأنباء بانتصارات مصعب ، ثم جاء البشير بوصول الأمير ، فعاد إلى عائشة بعض إشراقها . وإن لم يعد إليها كل طمأنينتها فإنها لتخاف أن يستمر على هجره ومصارمته ، وجعلت تصلح من شأنها وتتجمل ، وقد ظهر عليها الاضطراب ففطنت مولاة لها إلى حركاتها الوجلة المضطربة ، فقالت لها فى رفق :

— مال مولاتى اليوم ؟

— أقبل الأمير .

فابتسمت الجارية فى خبث وقالت :

— فرحة اللقاء !

فقالت عائشة فى نبرات مرتعشة :

— بل خشية الصد ، إنى أخاف ألا يقبل .

— يصلح أن تخرجى إليه .

وفكرت عائشة قليلا فوجدت أنه من الأجدر أن تخرج للقائه ، فسوت من

هندامها ثم خرجت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة فاتنة عذبة ، وسارت إليه وقد خفق قلبها ، فلما لمحها أشرق وجهه ، ودنت منه ، وهنأته بالفتح ثم راحت تمسح التراب عن وجهه فى حنان فقال لها مصعب :

— إنى أشفق عليك من رائحة الحديد .

فرنت إليه وقد التمعت عيناها وقالت فى همس :

— والله إنه عندى أطيب من ريح المسك الأذفر.

ورفرف على القصر الوفاق ، وطال نزول الهناء به ، وكأنما ساء عائشة دوام هذا الهناء ، فجعلت تعمل على مناوشة مصعب وإغضابه حتى غضب وهجر ، فطار الوفاق ، ورحل الهناء ، وابتدأ الشقاق ، فنال مصعب منها عنتاً كثيرا ، وفى يوم جلس وكاتبه ابن أبى فروة يتحادثان ، فراح مصعب يشكو ما ناله . فلما أتم حديثه قال له ابن أبى فروة :

— أنا أكفيك هذا إن أذنت لى .

— نعم . افعل ماشئت فإنها أفضل شىء نلته من هذه الدنيا .

فلما أرخى الليل سدوله ، انطلق ابن أبى فروة ومعه أسودان إلى دار عائشة فاستأذن عليها فقالت له :

— أفى مثل هذه الساعة !

فقال فى اصرار :

— نعم .

فأمرت بإدخاله ، وسار والأسودان معه حتى إذا مابلغ صحن الدار التفت إلى الأسودين وقال :

— احفرا هاهنا بئرا .

فنظرت جاريتها إليه فى عجب وقالت :

— وما تصنع بالبئر ؟

فقال ابن أبى فروة وقد تصنع الإشفاق :

— شؤم مولاتك ، أمرنى هذا الفاجر أن أدفنها حية ، وهو أسفك خاق الله لدم حرام.

ومابلغ هذا الخبر أذن الجارية حتى هرولت إلى مولاتها لتبلغها النبأ الفاجع ، فأقبلت عائشة وقد زاغت منها النظرات ، وسيطر عليها رعب وفزع ، وقالت فى ضراعة وتوسل :

— فانظرنى أذهب إليه .

فقال فى حزم :

— هيهات ، لاسبيل إلى ذلك .

وأدارظهره لها وقال للأسودين فى شدة .

— احفرا .

وابتدأ الرجلان يعملان وعائشة تنظر إلى قبرها يحفر أمام عينها ، فبكت وأجهشت بالبكاء ، وسالت دموعها غزيرة ، فإنها عما قريب ستقبر ، وجعلت المعاول تضرب الأرض . فكانت عائشة تحس ضرباتها فى صدرها تمزق قلبها ، وقالت له وقد خنقتها عبراتها :

— يابن أبى فروة ، إنك لقاتلى مامنه بد ؟ !

— نعم ، وإنى لأعلم أن الله سيجزيه بعدك ، ولكنه قد غضب ، وهو كافر الغضب .

فقالت فى ذلة :

— فى أى شىء غضبه ؟

— فى امتناعك عنه وقد ظن أنك تبغضينه وتتطلعين إلى غيره ، فقد جن .

— أنشدك الله إلا عاودته ؟

— إنى أخاف أن يقتلنى .

فمشى اليأس إلى قلبها فانخرطت فى بكاء مرير ، وراحت جواريها يذرفن الدمع السخين ، فأظهر ابن أبى فروة التأثر وقال لها :

— قد رققت لك .

فرفعت عائشة رأسها ونظرت إليه بعيون ملأتها العبرات وقالت :

ـ حقا ؟

ـ سأكلمه وإن كان فى ذلك حتفى .

وصمت قليلا ثم قال لها :

ـ وما أقول ؟

ـ تضمن عنى أن لا أعود أبداً .

ـ فمالى عندك ؟

ـ قيام بحقك ماعشت .

ـ فأعطنى المواثيق .

فأقسمت له ، فالتفت إلى الأسودين وقال :

ـ مكانكما .

وخرج ابن أبى فروة إلى مصعب ، وصار وهو يبتسم ، يغالب قهقهة تود أن تنطلق .

الفصل الحادى والأربعون

يا لمصعب !

خرج الشاعر عبد الله بن الزبير الأسدى على ناقته، وما انطلقت به قليلا حتى ألفاها لا تقوى على السير، فأناخها وفحص خفها فوجد به رقة وتقب، فتركها وراح يفكر فى أمره. فرأى أن يأتى ابن الزبير يسأله، فسار حتى دخل المسجد ويمم شطره فلما اقترب منه سلم ثم قال :

— يا أمير المؤمنين إن بينى وبينك رحماً.

— نعم، هذا كما ذكرت، وإن فكرت فى هذا أصبحت الناس بأسرهم يرجعون إلى أب واحد وأم واحدة.

— يا أمير المؤمنين نفقتى نفدت.

— ما كنت ضمنت لأهلك أنها تكفيك إلى أن ترجع إليهم.

— يا أمير المؤمنين ناقتى قد تقب.

— انجد بها تبرد خفها، وارقعها بسبت (جلد البقر المدبوغ) واخصفها بهلب (شعر الخنزير).

فظهر الضيق فى وجه الأسدى، وجعل ابن الزبير يسرد له ما يفعله فى خف ناقته الذى رق وتقب، فزاد حنق الرجل، ولم يستطع أن يكتم خيبة أمله فقال :

— يا أمير المؤمنين، إنما جئتك مستوصلا ولم آتك مستوصفا، فلا حملت ناقة حملتنى إليك.

فقال ابن الزبير فى هدوء :

— نعم وصاحبها.

وجاء موسم الحج، فشخص إلى مكة مصعب ومعه وجوه أهل العراق،

فقدمها بأموال عظيمة ، وقدم بدواب كثيرة وظهر وأثقـال ، ودخل على أخيه عبد الله وقال :

ــ يا أمير المؤمنين ، قد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم ، كل مطاع فى قومه ، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك ، وقاموا بإحياء دعوتك ، ونابذوا أهـل معصيتك ، وسعوا فى قطع عدوك ، فأعطهم من هذا المال .

فالتفت إليه ابن الزبير وقال :

ــ جئتنى بعبيد أهل العراق وتأمرنى أن أعطيهم مال الله ! والله لا أفعل .

ودخل وفد الكوفة عليه ، وأخذوا مجالسهم ، ودار الحديث بينهم وبين عبدالله ففهم منهم أنهم يرجون عطاءه ، ويطمعون فيما عنده ، فقال لهم :

ــ يا أهل الكوفة ، وددت والله أن لى بكم من أهل الشام صرف الدينـار والدرهم ، بل لكل عشرة رجلا .

فتغيرت وجوه القوم ، وقال عبيد الله بن ظبيان :

ــ أتدرى يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك ؟

ــ وما ذلك ؟

ــ فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام ، كما قال أعشى بكر بن وائل :

علقتها عرضا وعلقت رجـــلا غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

أحببناك نحن ، وأحببت أنت أهل الشام ، وأحب أهل الشام عبد الملك .

ثم انصرف القوم من عنده خائبين ، لا يرجون رفده ، ولا يطمعون فيما عنده وقد تغيرت قلوبهم ، وراح مصعب ينحر بدنا كثيرة ، ويبعث إلى عبد الله ابن صفوان وجبير بن شيبة وعبد الله بن مطيع أموالا كثيرة فزاد ذلك فى حنق القوم ، فإنهم ليرون الأموال تحمل وتقسم وهم ينظرون لا يصيبهم منها شيئاً ، فأجمعوا أمرهم على أن ينفروا الناس عن ابن الزبير فى عودتهم :

ورأى مصعب عبد الله بن عمر ، فذهب اليه وسلم عليه وقال :

ــ أنا ابن أخيك مصعب .

فقال الشيخ فى نبرات تأنيب :

ـــ نعم أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة عش ما استطعت.

ـــ إنهم كانوا كفرة سحرة .

ـــ والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا .

وانفض موسم الحج وعاد مصعب ووجوه أهل العراق إلى الكوفة وراح عبيد الله بن ظبيان ينشر بين الناس رأى ابن الزبير فيهم ، وينفر القوم عنه ، ويدعوهم إلى خلعه حتى استمال بعض نفر إليه فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا .

وتأهب عبد الملك للخروج ولكنه كره أن يخرج ويترك عمرو بن سعيد ويدع له أهل الشام يستميلهم ويفسدهم عليه ، وقد اتفق وعمرو على أنه الخليفة من بعده . فبعث إلى عمرو نصف الليل فلما وافاه غدر به وأمر بقتله ، فاستراح عبدالملك ، وأجمع بالمسير إلى مصعب وقد صفت له الشام وأهلها . وخطب الناس وأمرهم بالتهيؤ إلى مصعب فاختلف عليه رؤساء أهل الشام من غير خلاف لما يريد ، فقد شاء أن يخرج على الجيوش المعبأة فقالوا له :

ـــ يا أمير المؤمنين لو أقمت مكانك وبعثت على هؤلاء الجيوش رجلا من أهل بيتك ثم سرحته الى مصعب .

فقال عبد الملك فى عزم :

ـــ إنه لايقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى ، ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له ، وإنى أجد فى نفسى أنى بصير بالحرب ، شجاع بالسيف إن ألجئت إلى ذلك ، ومصعب فى بيت شجاعة ؛ أبوه أشجع قريش وهو شجاع ولا علم له بالحرب يحب الخفض ، ومعه من يخالفه، ومعه من ينصح لى .

وسار عبد الملك ومعه الحجاج بن يوسف الثقفى إلى العراق ، وخرج مصعب ابن الزبير بأهل البصرة والكوفة ، فالتقيا بين الشام والعراق ، وكان عبد الملك ومصعب صديقين متحابين ، فبعث عبد الملك إلى مصعب :

ـــ ادن منى أكلمك .

فدنا كل واحد من صاحبه ، وتنحى الناس عنهما ، فسلم عبدالملك عليه وقال له :
— يا مصعب ، قد علمت ماأجرى الله بيني وبينك منذ ثلاثين سنة ، وماعتقدته من إخائي وصحبتي ، والله أنا خير لك من عبد الله ، وأنفع منه لدينك ودنياك ، فثق بذلك مني ، وانصرف إلى وجوه هؤلاء القوم وخذ لى بيعة هذين المصرين ، والأمر أمرك لاتعصى ولاتخالف ، وإن شئت اتخذتك صاحبا لاتخفى ، ووزيرا لاتعصى .

— أما ماذكرت فىّ من ثقتى بك ومودتى وإخائى فذلك كما ذكرته . ولكنه بعد قتل عمرو بن سعيد لايطمأن إليك ، وهو أقرب رحماً مني إليك وأولى بما عندك ، فقتلته غدراً ، ووالله لو قتلته فى ضرب ومحاربة لمسك عاره ، ولما سلمت من إثمه . وأما ماذكرت من أنك خير لى من أخى فدع عنك أبا بكر وإياك وإياه لاتتعرض له ، واتركه ماتركك ، وارج عاجل عاقبته ، وارج الله فى السلامة من عافية .

— لاتخوفني به ، فوالله إنى لأعلم منه مثل ما تعلم ، إن فيه لثلاث خصال لايسود بها أبداً : عجب قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه فلا يسود بها أبداً .

وحاول عبد الملك أن يكسب مصعباً ولكن مصعباً ظل على رأيه يخوف عبدالملك ويحذره نفسه ، فلما أيس منه بعد انصرافه ، كتب إلى أناس من رؤساء أهل العراق يدعوهم إلى نفسه ، ويجعل لهم أموالا عامة ، وشروطاً وعهوداً ومواثيق ، فأقبل إبرهيم بن الأشتر بكتاب عبد الملك مختوما لم يقرأه ، وكان إبرهيم من قواد المصعب المقربين ، فدفعه إلى مصعب فقال :

— مافيه ؟

— ماقرأته .

ففض مصعب ختمه ونشره وقرأه ، فإذا هو يدعو إبرهيم إلى نفسه ، ويجعل له ولاية العراق ، فالتفت ابن الأشتر إلى مصعب وقال .

— إنه والله ماكان من أحد آيس منه منى ، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلىّ ، فأطعنى فيهم ، فاضرب أعناقهم .

فقال مصعب :

— إذا لاتناصحنا عشائرهم .

— فأوقرهم حديداً ، وابعث بهم إلى أبيض كسرى واحبسهم هنالك .

فأبى مصعب ، وسار بجيشه ، والتقى جيش العراق بجيش الشأم ، فما هو إلا أن التقوا فحولوا برءوسهم ومالوا إلى عبد الملك ، وبقى مصعب فى شرذمة قليلة ، فراح يقاتل ومن معه ، وبقى ابنه عيسى يقاتل دونه ، فالتفت مصعب إليه وقال :

— يابنى اركب أنت ومن معك إلى عمك بمكة ، فأخبره ماصنع أهل العراق ، ودعنى فإنى مقتول .

فقال ابنه وقد ظهر الأسى فى وجهه :

— والله لا أخبر قريشا عنك أبداً ، ولكن إن أردت ذلك فالحق بالبصرة فهم على الجماعة ، أو الحق بأمير المؤمنين .

قال مصعب وقد اتسعت حدقتا عينيه :

— والله لاتتحدث قريش أنى فررت بما صنعت ربيعة من خذلانها حتى أدخل الحرم منهزما ، ولكن أقاتل ، فإن قتلت فلعمرى ماالسيف بعار ، وماالفرار لى بعادة ولا خلق .

وحاول مصعب أن يقنع عيسى بالانصراف ، فلم ينجح فى إقناعه ، فقال له :

— إن أردت أن ترجع ، فارجع فقاتل .

فراح عيسى يقاتل مع أبيه جنباً لجنب ، واستمرت رحى الحرب دائرة فى شدة .

وبعث عبد الملك أخاه محمد بن مراون إلى مصعب ، فلما دنا منه قال :

— إن ابن عمك يعطيك الأمان .

فقال مصعب فى أنفة :

— إن مثلى لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوبا .

ونادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب فقال له :

— يابن أخي لاتقتل نفسك لك الأمان .

فنظر عيسى إلى أبيه وقد ترقرق الدمع فى عينيه ، فقال مصعب فى صوت حاول أن يكون هادئا:

— قد أمنك عمك ، فامض إليه .

— لا تتحدث نساء قريش أنى أسلمتك للقتل .

فقال له مصعب فى حزم :

— فتقدم بين يدى أحتسبك .

فانطلق مصعب وعيسى كليثين كاسرين ، وراحا يقصفان الأعداء قصفامنكرا ، وخلصت الجراح إلى عيسى ، ثم طعنه أحدهم طعنة أردته ، واستمر مصعب فى قتاله ، واقترب منه عبيد الله بن ظبيان وقال فى سخرية :

— أين الناس أيها الأمير !

فقال مصعب فى مرارة :

— غدركم يا أهل العراق .

فرفع عبيد الله سيفه ليضربه ، فبدره مصعب بالسيف على البيضة ، فنشب فيها ، فجعل يقلب السيف ولا ينتزع من البيضة ، فجاء غلام لابن ظبيان ، فضرب مصعباً بالسيف فقتله ، فمال ابن ظبيان عليه ، فاحتز رأسه ، واحتمله وانطلق به إلى عبد الملك .

وانتهى إلى عبد الله بن الزبير قتل مصعب ، فحزن عليه فقد كان عدته وأحب إخوته إليه ، وإن لم يكن له شقيقاً ، فقام فى الناس فقال :

— الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ألا وإنه لم يذلل الله من كان الحق معه ، وإن كان فرداً ، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وحزبه وإن كان معه الأنام طرا ، ألاوإنه قد أتانا من العراق خبر

حزننا وأفرحنا ، أتانا قتل مصعب ـ رحمة الله عليه ـ فأما الذى أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة ، وأما الذى حزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعدها ذو الرأى إلى جميل الصبر ، وكريم العزاء ، ولئن أصبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبله ، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة ، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله ، وعون من أعوانى ، ألا إن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن ، فإن يقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو أبى العاص ، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى الجاهلية ولا الإسلام ، ولا نموت الا قعصا بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تقبل لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وان تدبر لا أبكى عليها بكاء الخرق المهين ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الفصل الثانى والأربعون

زواج عائشة بنت طلحة

استمر القتال بين المهلب والخوارج ، وبلغ الخوارج نبأ مقتل المصعب قبل أن يبلغ المهلب وأصحابه ، فشاءوا أن يأخذوا عليهم الحجة ، فناداهم الخوارج :

— ألا تخبرونا ماقولكم فى مصعب ؟

فقال المهلب وأصحابه .

— إمام هدى .

— فهو وليكم فى الدنيا والآخرة ؟

— نعم .

— وأنتم أولياؤه أحياء وأمواتا ؟

— ونحن أولياؤه أحياء وأمواتا .

— فما قولكم فى عبد الملك بن مروان ؟

— ذلك ابن اللعين ، نحن إلى الله منه براء ، هو عندنا أحل دما منكم .

— فأنتم منه براء فى الدنيا والآخرة ؟

— نعم كبراءتنا منكم .

— وأنتم له أعداء أحياء وأمواتا ؟

— نعم ، نحن له أعداء كعداوتنا لكم .

— فإن إمامكم مصعبا قد قتله عبد الملك بن مروان ، ونراكم ستجعلون غدا عبد الملك إمامكم وأنتم الآن تتبرءون منه ، وتلعنون أباه .

— كذبتم يا أعداء الله .

فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب ، فبايع المهلب الناس لعبد الملك ابن مروان ، فأتتهم الخوارج فقالوا فى سخرية :

— ما تقولون فى مصعب ؟

— يا أعداء الله لا نخبركم ما قولنا فيه .

فقال الخوارج فى شماتة :

— فقد أخبرتمونا أمس أنه وليكم فى الدنيا والآخرة ، وأنكم أولياؤه أحياء وأمواتا ، فأخبرونا ما قولكم فى عبد الملك ؟

— ذاك إمامنا وخليفتنا.

فقال الخوارج فى تحد :

— يا أعداء الله ، أنتم أمس تتبرءون منه فى الدنيا والآخرة ، وتزعمون أنكم له أعداء أحياء وأمواتاً ، وهو اليوم إمامكم وخليفتكم ، وقد قتل إمامكم الذى كنتم تولونه ، فأيهما المحق وأيهما المهتدى ، وأيهما الضال ؟

— يا أعداء الله،رضينا بذاك إذ كان ولىأمورنا ، ونرضى بهذا كما رضينابذاك.

— لا والله ، ولكنكم إخوان الشياطين ، وأولياء الظالمين وعبيد الدنيا .

وخرجت العراق من يد عبد الله بن الزبير ، وبعث عبد الملك أخاه بشر بن مروان على الكوفة ، وشاء بشر أن يتزوج عائشة بنت طلحة ، فراح يفكر فيمن يبعثه ليخطبها عليه ، وفيما هو يفكر إذ وفد من فارس عمر بن عبيد الله بن معمر ، فرأى أن يبعثه لها ، فإن بين عمر وعائشة قرابة وصلة رحم ، فلما جلس عمر قال له بشر :

— إن عائشة أصبحت فارغة .

فنظر عمر إليه ، وسكت بشر قليلا ثم قال :

— وإنى أرجو أن تذكرنى عندها .

فنهض عمر وسار إلى عائشة ، فلما دخل عليها قال :

— بعثنى الأمير إليك .

— وما حاجته ؟

— سألنى أن أخطبك عليه .

فأطرقت عائشة قليلا ثم قالت :

— أما وجد بشر رسولا إلى ابنة عمه غيرك ! فأين بك عن نفسك .

— أو تفعلين ؟

— نعم .

ودخل عمر بن عبيد الله دار عائشة رسولا ، وخرج منها وقد خطب لنفسه حفيدة الصديق : قبلة الأنظار ، ومنية النفوس .

وفى يوم أقبل الدار ، وقد حمل إلى عائشة ألف ألف درهم ؛ خمسمائة ألف هدية ، واستأذن فى الدخول فقادته مولاتها ، فلما دخل أمر بالمال فحمل فألقى فى الدار ، وغطى بالثياب ، ثم التفت عمر إلى مولاتها وقال :

— لك على ألف دينار إن دخلت بها الليلة .

وانصرف عمر وخرجت عائشة ، فلما وقع نظرها على المال وقد غطى بالثياب قالت لمولاتها :

— أهذا فرش أم ثياب ؟

فأسرعت مولاتها وأزاحت الغطاء وقالت :

— انظرى اليه !

فنظرت عائشة فإذا مال ، فبرقت أساريرها وافتر ثغرها ، وقالت مولاتها فى خبث :

— أجزاء من حمل هذا أن يبيت عزبا ؟

فقالت عائشة فى هدوء :

— لا والله ، ولكن لا يجوز دخوله الا بعد أن أتزين له وأستعد .

— فيم ذا ، فوجهك والله أحسن من كل زينة ، وما تمدين يدك لى طيب أو ثوب أو مال أو فرش الا وهو عندك ، وقد عزمت عليك أن تأذنى له .

— افعلى .

فأسرعت مولاتها إليه ، وقالت له وهى تبتسم :

— بت بنا الليلة .

وبات عمر بن عبيد الله الليلة ، وانقضت لياليه فى بهجة ، وجعلت عائشة تبذل

ما وسعت لترضيه ، ولترفه عنه ، وفى يوم دخل عليها وقد ناله حر شديد ، وغبار فقال لها :

ــ انفضى التراب عنى .

فأخذت منديلا تنفض به عنه التراب ، ولما كانت تلتذ إذا ما آلمت زوجها فقد قالت له وهى تنفض التراب :

ــ ما رأيت الغبار على وجه أحد قط كان أحسن منه على وجه مصعب ، فأحس عمر عقارب الغيرة تنهش صدره ، ولكنه كظم غيظه .

الفصل الثالث والأربعون

مصلوب قريش

انتصر عبدالملك على مصعب فاستقر له الأمر فى العراق ، ولم يبق لابن الزبير إلا الحجاز ، ففكر عبدالملك فى أن يبعث إليه الجيوش ليستل الحجاز منه فيصبح أمير المؤمنين ، لاينازعه فى إمارتهم أحد ، ولا يهدد سلطانه سلطان ، وتأهب عبدالملك للرجوع إلى الشأم وجعل يفكر فيمن يوليه إمارة الجيش الذى سينطلق لقتال عبدالله ، وفيما هو يستعرض قواده قام إليه الحجاج بن يوسف فقال :

— ياأمير المؤمنين ، إنى رأيت فى منامى أنى أخذت عبدالله بن الزبير فسلخته فابعثنى إليه وولنى قتاله .

فراح عبدالملك يفكر فيما قال الحجاج ، ويزنه للمهمة التى سيضطلع بها ، فوجده فتى شديد المراس ، أظهر براعة فى قتال أهل العراق ، فأسند إليه القيادة ، وبعثه فى جيش كثيف من أهل الشأم ، فسار الحجاج ، فلم يعرض للمدينة ، وسلك طريق العراق ، فنزل بالطائف وبلغ ابن الزبير قدوم الحجاج فعبأ جيشه ، وراح الحجاج يبعث بعوثه إلى عرفة ، ويبعث ابن الزبير بعوثه ، فيقتتلون هنا لك كل يوم ، فتهزم خيل ابن الزبير وتعود خيل الحجاج بالظفر .

وجلس ابن الزبير وابن مطيع وابن صفوان ، وابن أبى عتيق يتحدثون ، فقال ابن أبى عتيق .

— ياأمير المؤمنين ، أئذن لنا فيهم .

فأبى ابن الزبير واستمرت المناوشات بين الفريقين ، فأطمع ذلك الحجاج ، وأظهر بعض أهل مكة عداوتهم لابن الزبير حتى أن أباريحانة أعلن بغضة ، فتهدده ابن صفوان ، ففر إلى عبد الملك بالشأم .

وكتب الحجاج إلى عبدالملك يستأذنه فى حصار ابن الزبير ، ودخوله الحرم عليه ، ويخبره أن شوكته قد كلت ، وتفرق عنه عامة أصحابه ، ويسأله أن يمده

برجال ، فأمده بطارق ابن عمرو فى خمسة آلاف من أصحابه ، فلما بلغ المدد الحجاج سار من الطائف حتى نزل بئر ميمون ، وحصر ابن الزبير ، وأشرف أبو ريحانة على ابن الزبير ومن معه وصاح :

— أليس قد أخزاكم الله يا أهل مكة ؟

فقال له ابن أبى عتيق :

— بلى والله ، لقد أخزانا الله .

فقال له ابن الزبير :

— مهلا يابن أخى .

فقال له ابن أبى عتيق :

— قلنا لك ائذن لنا فيهم وهم قليل فأبيت حتى ساروا إلى ماترى من الكثرة.

وأقبل موسم الحج وابن الزبير محصور ، فحج بالناس الحجاج ولم يطف بالبيت، ولم يحج ابن الزبير وأصحابه لأنهم لم يتمكنوا من الوقوف بعرفة ، ووفدت العير من الشأم تحمل الطعام ، الكعك والسويق والدقيق ، وابتدأت الاطعمة التى عند ابن الزبير فى النقصان ، ومما زاد فى حرج موقف أصحاب ابن الزبير ، أن الحجاج قد ظهر على جبل أبى قبيس ونصب عليه المنجنيق ، وجعل يرمى به ابن الزبير ومن معه فى المسجد الحرام ، وانطلقت الحجارة ، فرعدت السماء وبرقت ، وعلا صوت الرعد والبرق على الحجارة فاشتمل عليها ، فأعظم ذلك أهل الشأم ، وخشوا أن يكون ذلك غضب الله عليهم ، فأمسكوا وامتنعوا عن ضرب بيت الله ، وراح الحجاج يأمرهم ، ولكنهم أبوا وأحجموا ، فرفع حجر المنجنيق فوضعه فيه، ثم قال:

— ارموا.

ورمى معهم ، وانصرم النهار وأقبل الليل ، فساد السكون ، فلما أصبحوا جاءت صاعقة تتبعها أخرى فقتلت من أصحاب الحجاج اثنى عشر رجلا ، فانكسر أهل الشام ، ومشت فى أوصالهم رهبة ، فقد أنزل الله بهم غضبه ، وخشى الحجاج أن يتسرب الخوف الى قلوب جنده ، فقال :

— يا أهل الشام لاتنكروا هذا ، فإنى ابن تهامة ، هذه صواعق تهامة . هذا

الفتح قد حضر فأبشروا إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم .

فلم يهدىء هذا القول من روعهم ، فقد نزل بهم غضب السماء ، وكادت قلوبهم تنخلع . وانقضى اليوم ، وجاء فى أثره يوم ثان ، فصعقت ، فأصيب من أصحاب ابن الزبير عدة ، فقال الحجاج:

— ألا ترون ، إنهم يصابون وأنتم على الطاعة ، وهم على خلاف الطاعة .

فاطمأنت نفوس أهل الشام ، فإنها صواعق تهامة حقا ، فراحوا يرمون المسجد بالمنجنيق ، ووقف ابن الزبير يصلى كأنه غصن شجرة تصفقها الريح ، والمنجنيق يقع هاهنا وهاهنا ، ووقع حجر من المنجنيق على شرفة المسجد ، فطارت فلقة منه ، فمرت بين لحية ابن الزبير وحلقه فما زال عن مقامه ، ولا ترك صلاته حتى أتمها على خير ما تكون صلاة .

وأقبل عروة على أخيه عبد الله يسأله أن يحقن دماء المسلمين . وأن يتنازل لعبد الملك عن الخلافة ، وله فى الحسن بن على أسوة ، فقد تنازل لمعاوية عنها ، وحقن دماء الناس ، فثار عبد الله وركله ركلة شديدة ، فسقط عروة ، ثم قام ينفض عنه التراب ، وانصرف وهو يدعو الله أن يلهم أخاه السداد .

واشتد الحصار على ابن الزبير ومن معه فخذله أصحابه خذلانا شديداً ، وجعلوا يخرجون إلى الحجاج حتى خرج إليه نفر من عشرة آلاف ، وبقى ابن الزبير ونفر قليل ، فضيق الحجاج عليهم الخناق ، فما كان لهم إلا زمزم يشربون منها ، وصبر ابناه حمزة وخبيب معه ، فنزل بهم كرب شديد ، وشدة وبلاء ، فنفد صبرهما ، وذهبت عزيمتهما ، فلم يطيقا ما نزل بهما من ضيق ، فخرجا إلى الحجاج فأخذا منه لأنفسهما أمانا . وتلفت ابن الزبير فلم يجد معه إلا حفنة من الرجال ، فحز فى نفسه خذلان الناس له ، وفرار ولديه إلى الأعداء ، ووقع بصره على عبد الله بن صفوان يقاتل معه ، فقال له :

— إنى قد أقلتك بيعتى ، فاذهب حيث شئت .

فأبى ابن صفوان وقال :

— إنى إنما قاتلت عن دينى .

ودخل ابن الزبير على أمه أسماء ، كسير الفؤاد ، فسألته :

— يا عبد الله ما فعلت فى حربك ؟

— يا أمة ، خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق على إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟.

— أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت كنت على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين ، وكم خلودك فى الدنيا ، القتل أحسن .

— يا أماه ، أخاف إن قتلنى أهل الشأم أن يمثلوا بى ويصلبونى .

— يا بنى مايضير الشاة سلخها بعد ذبحها ، فامض على بصيرتك واستعن بالله .

— هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعياً إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها . وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن يستحل حرمه ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتنى بصيرة على بصيرتى ، فانظرى يا أمة فإنى مقتول من يومى هذا فلا يشتد حزنك ، وسلمى الأمر لله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عملا بفاحشه ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ، ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم من عمالى فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندى من رضى ربى ، اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى ، أنت أعلم بى ، ولكنى أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى .

— إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسناً إن تقدمتنى وإن تقدمتك ففى نفسى ، اخرج حتى أنظر إلى مايصير أمرك .

— جزاك الله يا أمة خيرا ، فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد .

— لا أدعه أبداً ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق .

ثم راحت تدعو له :

ــ اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين .

فتناول يدها ليقبلها فقالت :

ــ هذا وداع فلا تبعد .

فدنا منها فقبلها وعانقها ، فلما مست الدرع قالت :

ــ ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

ــ ما لبست هذا الدرع إلا لأشد عنك .

ــ فإنه لايشد منى .

فنزعها ثم أدرج كميه وشد أسفل قميصه وجبة خز تحت القميص ، فأدخل أسفلها فى المنطقة وأمه تقول :

ــ البس ثيابك مشمرة .

وتأهب ابن الزبير للقتال وخرج وقد أرهفت من أمه الحواس جميعاً ، فلما ابتعد قليلا بلغ أذنيها صوته وهو يرتجز :

إنى إذا أعرف يومى أصبر   وإنما يعرف يومه الحر

إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فغمغمت أسماء :

ــ تصبر إن شاء الله ، أبوك أبوبكر والزبير ، وأمك صفية بنت عبدالمطلب

ودخل المسجد ، وراح يقاتل وقد شحنت الأبواب من أهل الشأم ، وأسد أصحاب ابن الزبير المحارس ، وكثرهم القوم ، فأقاموا على كل باب رجالا وقائداً وأهل بلد ، فكان لأهل حمص الباب الذى يواجه باب الكعبة ، ولأهل دمشق باب بنى شيبة ولأهل الأردن باب الصفا ، ولأهل فلسطين باب بنى جمح ، ولأهل قنسرين باب بنى سهم ، فراح فارس الخلفاء يحمل فى هذه الناحية مرة و فى هذه الناحية أخرى ، فلكأنه أسد فى أجمة مايقدم عليه الرجال ، فيعدو فى أثر القوم وهم على الباب حتى يخرجهم وهو يقول :

— هذا وأنا ابن الحوارى ، لو كان قرنى واحداً كفيته .

فيقول ابن صفوان وهو معه :

— أى والله وألف .

وراح عبد الله بن مطيع يقاتل القوم وهو يرتجز :

أنا الذى فررت يوم الحرة — والشيخ لا يفر إلا مرة
فاليوم أجزى فرة بكرة — لا بأس بالكرة بعد الفرة

واشتد هجوم أهل الشام عليهم ، فقيل له :

— ألا تكلمهم فى الصلح ؟

— أوحين صلح ، هذا والله لو وجدوكم فى جوف الكعبة لذبحوكم .

وأسدل الليل ستوره ، وبات ابن الزبير يصلى عامة الليل ، ثم احتبى بحمائل سيفه ، فأغفى ، ثم انتبه بالفجر فقال :

— أذن ياسعد .

فأذن سعد ، وأطرق ابن الزبير يستمع إلى آخر أذان ينساب فى أذنه قبل الرحيل ، وتوضأ ابن الزبير فاسبغ الوضوء ثم ركع ركعتى الفجر ثم تقدم وأقام المؤذن فصلى بأصحابه ، فلما قضيت الصلاة قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال لآل الزبير :

— اكشفوا وجوهكم حتى أنظر .

فكشفوا وجوههم وكانت عليهم المغافر والعمائم فقال :

— يا آل الزبير ، لو طبتم لى نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلمنا فى الله لم تصبنا زباء بتة ، أما بعد يا آل الزبير فلا يرعكم وقع السيوف ، فإنى لم أحضر موطنا قط إلا ارتثت فيه من القتل ، وما أجد من دواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها ، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، لا أعلم امرءا كسر سيفه ويستبق نفسه فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل ، غضوا أبصاركم عن البارقة ، وليشغل كل امرىء قرنه ، ولا يلهينكم السؤال عنى ، ولا تقولن أين عبد الله بن الزبير ، ألا من كان سائلا عنى فإنى فى الرعيل الأول ، احملوا على بركة الله

وحمل وحمل أصحابه معه ، وكان على ظهر المسجد من أعوانه من يرمى عدوه بالآجر، ففر أعداؤه أمامه حتى بلغوا الحجون ، واستمر ابن الزبير يقاتل وقد كشر عن أنيابه لا يدنو منه أحد ، حتى ظن أعداؤه أنه لا يقتل .

وسقطت شرفة من شرفات المسجد على رأسه ففلقته ، فسال الدم على وجهه ولحيته ، وأحس سخونة الدم المتدفق ، فقال :

لسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وثبت على قدميه ، وراح يغالب الخور الذى دب إليه . لقد سالت منه الدماء فوهن ، وحاول أن يقبض على سيفه ، ولكن لانت يده ولم تعد بقادرة على أن تطبق عليه ، وأحس نفسه يغيب عن الوجود ، فغمغم :

أسماء يا أسماء لا تبكينى لم يبق إلا حسبى ودينى
وصارم لانت به يمينى

وسقط أمير المؤمنين ، فلما رأت مولاة لآل الزبير ما حل بعبد الله صرخت :

ـــ واأمير المؤمنيناه ، واأمير المؤمنيناه .

وراحت تدرج إلى حيث هوى ، فلما صك صراخها آذان أهل الشام الواقفين على الأبواب ، اندفعوا صوبها فقد سقط الليث الذى كانوا يخافونه ، وحاول ابن مطيع أن يقف فى وجه السيل الجارف فقتل ، وقتل ابن صفوان ، وهو متعلق بأستار الكعبة .

وأحاط الرجال بالجسد الملقى فطعنوه ، ثم ارتفع صوتهم بالتكبير فرحاً وسروراً ، وسمع عبد الله بن عمر تكبير جيش الشام ، فعادت به الذكريات عشرات السنين ، كرت به إلى المدينة يوم ولد عبد الله ، وكان أول مولود للمسلمين بعد الهجرة فكبروا جميعاً لمولده غبطة وسروراً فطأطأ ابن عمر بصره وقال فى صوت كسيف :

ـــ أما والله للذين كبروا عند مولده خير من هؤلاء الذين كبروا عند قتله .

وطار البشير إلى الحجاج فأنبأه بمقتل ابن الزبير، فسجد الحجاج لله شكرا ، ثم انطلق وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه ، فنظر طارق إلى الليث المجدل وقال :

— ماولدت النساء أذكر من هذا .

فقال الحجاج :

— تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين!

— نعم ، هو أعذر لنا ولولا هذا ماكان لنا عذر ، إنا محاصروه وهو فى غير خندق ، ولا حصن ، ولامنعة منذ سبعة أشهر ينتصف منا بل يفضل علينا فى كل ما التقينا نحن وهو.

وأمر الحجاج أن تحز رأس ابن الزبير وتحمل الى عبدالملك بالشام ، وأن يصلب الجسد على ثنية الحجون ، وصلب أمير المؤمنين ، فارتجت مكة بكاء عليه ، ونزل بالناس حزن ثقيل وراح أهل الشام يسبونه كلما مروا عليه ، وجاء أوان الصلاة ، فأذن المؤذن فلم يسارع الناس إليها بل تثاقلوا حزنا وغما ، فلما رأى الحجاج ما أصاب الناس ، قام يخطبهم :

— أيها الناس! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الامة حتى رغب فى الخلافة ونازعها أهلها وألحد فى الحرم ، فأذاقه الله من عذابه الأليم ، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير ، وكان فى الجنة وهى أشرف من مكة ، فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التى نهى عنها أخرجه الله من الجنة ، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله .

فقام الناس إلى الصلاة وفى حلوقهم غصة وجفاف ، وفى عيونهم دمع يترقرق .

وقضيت الصلاة ، وانتشر الناس فى الأرض ، وراحت قريش تمر على ابنها المصلوب وتذرف الدمع ، وأقبل ابن عمر وقد هده الكبر ، ووقف عليه وقد بان الحزن العميق فى وجهه ، ولم يستطع أن يكتم ألمه الدفين ، فراح يخاطب عبد الله المصلوب :

— السلام عليك أبا خبيب ، السلام عليك أباخبيب ، السلام عليك أباخبيب أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله إن كنت ماعلمت صواماً قواماً ، وصولاً للرحم

أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير .

وبكى ابن عمر، فانفجر الناس يبكون . وظللت مكة سحائب حزن وأسدلت ستور الليل السود .

وأرسل الحجاج إلى أسماء ، فأبت أن تأتيه ، فأعاد عليها الرسول ، لتأتيني أو لابعثن إليك من يسحبك من قرونك ، فأبت وقالت :

ـــ والله لا آتية حتى يبعث من يسحبني من قروني .

فأخذ الحجاج نعليه ثم انطلق حتى دخل عليها فأحس رهبة فقال :

ـــ يا أماه ، هل لك من حاجة ؟

ـــ لست لك بأم . إنما أنا أم المصلوب على الثنية ، وما لى من حاجة ، ولكنى احدثك أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «يخرج من ثقيف كذاب ومبير» فأما الكذاب فقد رأيناه (المختار) وما المبير فلا أراك إلا إياه .

تملك الحجاج روعه فقال :

ـــ كيف رأيتنى صنعت بعدو الله ؟

ـــ رأيتك فسدت عليه دنياه ، وأفسدت عليك آخرتك .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـــ بلغنى أنك تقول : يابن ذات النطاقين ، أنا والله ذات النطاقين : أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله صلى الله عليه وطعام أبى بكر .

وخرجت أسماء ، ومرت بابنها وهو مصلوب ، فرفعت نظرها إليه وقد تجلدت وراحت تجاهد دموعها التى تود أن تجرى على خديها غزيرة دفاقة ، فلما رآها الناس غامت عيونهم بالدمع ، وانقبضت صدورهم حزناً ، فغمغمت أسماء :

ـــ أما آن لهذا الراكب أن ينزل .

وانصرفت أسماء فأجهش الناس بالبكاء .

وجلست أسماء فى دارها ساهمة ، وقد هصر الحزن قلبها ، وآلم نفسها ، فإن صلب ابنها ليقطع نياط فؤادها ، ويحرق كبدها ، وإن ناراً لتنبعث من جوفها فتئن لها

أنيناً مكتوماً ، وإن دموعها تسح على رغمها فما تستطيع لها حبساً . وسمعت وقع أقدام تقترب فمسحت دموعها ، وشمخت برأسها ، وغالبت حزنها ، ونظرت أمامها فرأت عبد الله بن عمر فى رفقة ذلك الشاب الطاغية ، الذى ثكلها فى ابنها ، فتغير وجهها ، ولكن سرعان ما كظمت غيظها ، فلما رأى ابن عمر شحوب وجهها ، قال مواسياً :

— إن هذا الجسد ليس بشىء ، إنما الأرواح عند الله ، فاتقى الله واصبرى .

فقالت أسماء فى أنفه وقد هبت واقفة :

— وما يمنعنى من الصبر ، وقد أهدى رأس يحيى ابن زكريا إلى بغى من بغايا بنى اسرائيل .

وخرج الرجلان فألفيا الناس يمرون بالمصلوب وقد فاضت شجونهم ، فخشى الحجاج أن يثير ذلك الجسد المرفوع فتنة ، فأمر بإنزاله ، وحمل الجسد إلى دار أسماء ، فقامت إليه وراحت تغسله وفى النفس لوعة ، وفى الحلق غصة ، وفى العين دمع ، وحنطته وكفنته وطيبته ، ثم وقفت بقامتها الطويلة منتصبة تصلى على ابنها الحبيب . وقبر جسد عبدالله ، بينما كان رأسه يطوى الأرض ترفعه رافعة وتخفضه خافضة ليبلغ الشام وليحمل إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .

الفصل الرابع والأربعون

عروة وعبد الملك

وقف أصحاب الحاجات بباب عبد الملك ، ووقف الحارث بن خالد المخزومى ينتظر إذن أمير المؤمنين له بالدخول ، وطال انتظاره فتسرب إلى نفسه الملل ، وضاق صدره فلم يستطع كبت غيظه فهجا عبد الملك ، وانصرف وقد طفح غيظه ، وقال ما كان يضيق به صدره ، ودخل على عبد الملك أحد أصحابه ، فأخبره خبر الحارث ، وأنشده هجوه ، فأرسل اليه من رده من طريقه ، فعاد الحارث ودخل على أمير المؤمنين ، فقال له عبد الملك :

ــ حارث ، أخبرنى عنك ، هل رأيت عليك فى المقام ببابى غضاضة ، أو فى قصدى دناءة ؟

فقال الحارث وقد طأطأ بصره :

ــ لا والله ياأمير المؤمنين .

ــ فما حملك على ماقلت وفعلت ؟

ــ جفوة ظهرت لى كنت حقيقا بغير هذا .

وشاء عبد الملك أن يترضاه . فقال له :

ــ فاختر ، فإن شئت أعطيتك مائة ألف درهم ، أوقضيت دينك ، أووليتك مكة سنة .

وانصرف الحارث من لدن أمير المؤمنين ، وقد صار أميراً لمكة .

وقدم عروة على عبد الملك ، فدخل عليه ولم يكن عنده أحد من أهل الشام ، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ، وراح يرحب به ، ويظهر له العطف والرعاية ،

ويقبل عليه ، وأخذا فى الحديث ، وخاضا فيه فكان عبد الملك يبالغ فى إكرام عروة ، وتشعب الحديث لجاء ذكرعبدالله فقال عروة :

— أريد أن تعطينى سيف أخى عبد الله .

فقال عبد الملك وقد أظهر الأسف :

— هو بين السيوف ولا أميزه من بينها .

فقال عروة فى ثقة :

— إذا حضرت السيوف ميزته أنا .

فأمر عبد الملك بإحضارها ، فلما حضرت جعل عروة يفحصها حتى وجد سيفا مفلل الحد فتناوله وقال :

— هذا سيف أخى .

— كنت تعرفه قبل الآن ؟

— لا .

— كيف عرفته ؟

— يقول النابغة الذبيانى .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　بهن فلول من قراع الكتائب

وأخذ عروة سيف أخيه ، واستأنفا الحديث ، فراح عبد الملك يذكرعروة يوم جمع المسجد الحرام بينهما وبين عبد الله ومصعب أيام تألفهم بعهد معاوية ، يوم تمنى كل منهم منية ، وتمنى عروة الزهد فى الدنيا والفوز بالجنة فى الآخرة ، فتحققت أمانيهم جميعا ، وزهد عروة فى الدنيا ، وبات ينتظر جنات النعيم ، وشاء عبد الملك أن يتملقه فالتفت إلى من عنده من بنى أمية وقال :

— من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير .

وانصرف عروة وقد سره حسن استقبال أمير المؤمنين له ، وفى يوم دخل عليه وعنده أهل الشأم فسلم وجلس وراح يتحدث مع المتحدثين ، فكان كلما

أدلى برأى استخف به أمير المؤمنين ، فعجب عروة فى نفسه ، فما بال عبد الملك يسخر من قوله ، ويسفه من رأيه ، إن هذا الاستقبال نقيض ذاك ، فقد كان أمير المؤمنين فى استقباله الأول يهش له ويبش ، ويقبل عليه ويصغى إليه ، ويؤمن على كل ما يقول ، وفى استقباله هذا يعترض عليه ، ويعرض عنه ، إنه ليستخف به ، ولا يدرى عروة لهذا التبدل سببا ، وقام عروة عنه ، وهو يتساءل فى نفسه عما غير أمير المؤمنين عليه .

جعل عروة يفكر فى استقبال أمير المؤمنين له ذلك الاستقبال الفاتر ، ويحاول تأويل ذلك التبدل الطارىء ، فلا يهتدى إلى تأويل ، وخطر له خاطر ، لعل أحدا مشى بباطل بينه وبين عبد الملك ، أو لعل أحدا وشى له وشاية كاذبة فصدقها فأعرض عنه وجعل يحاول أن ينال منه ، وأخذ هذا الخاطر يتجسم فى مخيلة عروة حتى اعتقد أن ذلك ما حدث فبيت النية على مصارحة عبد الملك .

خرج عروة وقد عزم على أن يفاتح أمير المؤمنين فيما بدر منه فى مقابلته الأخيرة له ويسأله سبب هذه الجفوة ، ودخل عليه ولم يكن عنده أحد من أهل الشأم ، فقام عبد الملك إليه وأجلسه بجواره ، وراح يحادثه فى ود ، ويصغى اليه فى انتباه ويكرمه ويعظمه فلم يجد عروة إلا كل عطف فكتم ما فى نفسه ، وراح يتحدث إليه وقد انقشع غضبه ، وأقلع غيظه .

وفى يوم دخل إليه وعنده أهل الشأم ، فأخذ عبد الملك يستخف به ففطن عروة إلى أنه يكرمه إذا دخل إليه منفردا ، وينال منه أمام الناس ليحط من شأن آل الزبير جميعا ، وليشعرهم أنه أعلى منهم مقاما وأعز نفرا ، فثارت ثائرة عروة ، فالتفت إلى عبد الملك وقد ظهر الغضب فى وجهه ، وقال فى نبرات ثائرة :

— ياأمير المؤمنين ، بئس المزور أنت ، تكرم ضيفك فى الخلا ، وتهينه فى الملا . وصمت قليلا ثم قال :

— لله در زهير حيث يقول :

نقرى فى بلادك إن قوما   متى يدعو بلادهم يهونوا

الفصل الخامس والأربعون

حفيدة الصديق وحفيدة معاوية

أقبلت عاتكة بنت يزيد بن معاوية على زوجها عبد الملك تستأذنه فى الحج ، فأذن لها وقال :

— ارفعى حوائجك واستظهرى ، فإن عائشة بنت طلحة تحج .

فراحت عاتكة تحمل الفاخر من الثياب ، وما ندر من الطيب ، وتتأهب وتتهيأ وتبالغ فى تأهبها وتهيئها حتى إذا ما وافى أوان الخروج كان كل ما فكرت فيه معدا ، وأقبل هودجها واصطفت جماعتها ، وهبطت عاتكة من قصرها ، وقبل أن تدخل الهودج ، ألقت نظرة على الحشد المنطلق فى ركابها فسرها ما رأت وأثلج صدرها ، وحمل الهودج ووضع فوق بعيره وشد إليه ، وسار الموكب وقد وقف أهل الشأم ينظرون وقد أعجبوا بموكب زوجة أمير المؤمنين .

وتمددت عاتكة فى هودجها ، وراحت تفكر فيما سينتاب عائشة من كمد لما ترى بهاء ركبتها ، فإنها لاتحسب عائشة بقادرة على أن تقبل فى موكب يضارع موكبها ، وأرسلت لخيالها العنان ، واستراحت إلى تصوراتها فأشرق وجهها ، وأحست راحة ، وباتت تنتظر رؤية عائشة فى شغف ، فلما كانت بين مكة والمدينة ، أقبل ركب هائل فضغطها وفرق جماعتها ، فقالت عاتكة :

— أرى هذه عائشة بنت طلحة :

فقيل لها :

— بل هذه خازنتها .

ثم جاء موكب آخر أعظم من الموكب الأول ، فقال الناس :

— عائشة ! . . عائشة !

وضغطهم الموكب كما ضغطهم سابقة ، وسألت عاتكة فقيل لها .

— هذه ما شطتها .

ثم جاءت مواكب على هذا السنن ، فكلما مر بعاتكة موكب ، أحست مرارة ، وانقبض صدرها ، وأقبلت كوكبة فيها ثلاثمائه راحلة عليها القباب والهوادج ، وكان هودج عائشة مكتمل الزينة ، رائع الحسن ، فلما وقع نظر عاتكة على هذا الموكب اغتمت ، وأحست نار الغيرة تلسعها وحاولت أن تتكلم ولكن احتبس صوتها فقد كانت أحاسيس الآلم تضغط على حلقها ، ومرت مواكب عائشة المتلاحقة ، فلما بعدت وجدت عاتكة لسانها ، فقالت لترفه عن نفسها ، ولتستر فشلها ولتهدئ من نفسها الملتاعة :

— ماعند الله خير وأبقى .

وبلغ الحارث بن خالد المخزومى أمير مكة قدوم عائشة ، فخفق قلبه ، فإنه يهواها ، ويسره رؤيتها ، وراحت عائشة تطوف بالبيت وآن أوان الصلاة ولم تنته من طوافها ، وخشيت أن يبدأ الناس فى الصلاة ويتركونها ، فأرسلت إلى الحارث رسولا يقول له :

— أخر الصلاة حتى أفرغ من طوافى .

ولما كان الحارث يتمنى رضاها ، فقد أرسل إلى المؤذنين يأمرهم بتأخير الصلاة ، وساء الناس مافعل الحارث ، وأظهروا له استياءهم ، ولكنه لم يلتفت إليهم ، فما يهمه غضب الناس جميعاً ، إذا كانت هى ترضى . وأتمت عائشة طوافها وأقبلت فقام المؤذنون يؤذنون بعد أن ولى أوان الصلاة ، وقام الناس وصدورهم طافحة بالغضب يصلون خلف الحارث وقد أنكروا فعله ، وساءهم عمله .

ورأى عمر بن أبى ربيعه عائشة فتحرك شيطان شعره ، فأوحى إليه ماأوحى ، فلم يستطع أن يجهر بما نظم فقد ترك ذكرها بعد أن ثار علية بنى تيم لتغزله فيها ، وجلس إلى الغريض يسمعه شعره ، فأعجب الغريض به ، فقال له ابن أبى ربيعه :

— إن أبلغتها هذه الأبيات فى غناء فلك خمسة آلاف درهم .

وانقضى أوان الحج ، فبعث الحارث الغريض إليها ، فانطلق الغريض وقابل مولاة لها وقال لها :

— بلغى مولاتك أن الحارث يقول لها : أنعم الله بك عيناً وحياك ، فقد أردت زيارتك فكرهت ذلك إلا عن أمرك ، فإن أذنت فيها فعلت .

فدخلت جاريتها عليها وأنبأتها رسالة الحارث ، فظهر الارتباك على عائشة وقالت لمولاتها .

— وما أرد على هذا السفيه ؟

— أنا أكفيك .

وخرجت إلى الرسول وقالت له :

— اقرأ عليه السلام وقل له : وأنت أنعم الله بك عيناً وحياك ، نقضى نسكنا ثم يأتيك رسولنا إن شاء الله .

وانصرف الغريض ، وقالت جاريتها لها :

— قومى فطوفى واسعى واقضى عمرتك ، واخرجى فى الليل .

فقامت عائشة وراحت تطوف وتسعى ، فلما قضت عمرتها عادت وقد عقدت النية على الرحيل .

وأرخى الليل أرديته السوداء ، فانسلت مواكب عائشة بنت طلحة من مكة فى سكون الليل ، فلما أصبح الصباح بعث الحارث إلى عائشة رسولا ، فعاد الرسول وأنبأه رحيلها ، فابتأس ، وغمغم :

— ما ضركم لو قلتم سدداً !

وأرسل إلى الغريض ، وقرأ عليه ما أوحى إليه رحيلها ، وأمره أن يلحق بها ليسمعها خفقات قلبه ، فركب الغريض راحلة ، وأغذ فى السير ، وراح يطوى الأرض ، حتى لحق بركبها وقد نزل منزلا ، فنزل عن راحلته ، ودخل عليها ، فلما رأته قالت :

— ما وراءك ؟

— رسالة من الحارث ،

ثم دفع إليها بكتابه ففضته وقرأت :

ما ضركم لو قلتم سددا   إن المطايا عاجل غدها

ولها علينا نعمة سلفت لسنا على الأيام نجحدها
لو تممت أسباب نعمتها تمت بذلك عندنا يدها

ولما انتهت من قراءة الأبيات قالت :

— ما يدع الحارث باطله .

ثم التفتت إلى الغريض وقالت :

— هل أحدثت شيئا ؟

— نعم . فاسمعى .

ثم اندفع يغنى فى هذا الشعر ، فاستحسنته عائشة وقالت له :

— والله ما قلنا إلا سددا ، ولا أردنا إلا أن نشترى لسانه .

وصمتت عائشة وأطرقت ، وصمت الغريض ، وصمت الكون فساد الهدوء هنيهة ثم قالت :

— غنى فى شعر غيره .

فرأى الغريض الفرصة سانحة ليسمعها أبيات ابن أبى ربيعة فأنشد :

أجمعت خلتى مع الفجر بينا جلل الله ذلك الوجه زينا
أجمعت بينها ولم نك منها لذة العيش والشباب قضينا
فتولت حمولها واستقلت لم نتل طائلا ولم نقض دينا
ولقد قلت يوم مكة لما أرسلت تقرأ السلام علينا
أنعم الله بالرسول الذى أر سل والمرسل الرسالة عينا

فضحكت ثم قالت :

— وأنت يا غريض فأنعم الله بك عينا ، وابن أبى ربيعة عينا . لقد تلطفت حتى أديت إلينا رسالة ، وإن وفاءك له لما يزيدنا رغبة فيك وثقة بك .

وأمرت له عائشة بخمسة آلاف درهم وأثواب ، وخرج الغريض ليبلغ ابن أبى ربيعة أنه بلغ رسالته ويطالبه بدفع ما وعده . ولما انصرف قابل موكب عاتكة بنت يزيد ، فلما رأته الجوارى قلن لمولاتهن .

— هذا الغريض .

فقالت لمن :

— على به .

ودخل الغريض فسلم ، فردت عليه وسألته عما جاء به ، فراح يقص عليها الخبر فجعلت عاتكة تستمع إليه وقد تحركت غيرتها ، فلما انتهى من روايته قالت له : غنى بما غنيتها به .

فراح الغريض يغنى شعر الحارث وشعر ابن أبى ربيعه ، فلم تهش عاتكة لذلك ، بل ضاق به صدرها ، فنفحت الغريض نفحة ، ثم انطلق الركب إلى الشأم وعاتكة منقبضة فقد كان الموسم موسم عائشة ، ولم يلتفت أحد إليها .

وبلغ موكب زوجة أمير المؤمنين القصر ، فأنزل هودجها ، ودخلت القصر ثائرة غاضبة . وأقبل عبدالملك على زوجه فألفاها فى ثورتها فسألها عما أغضبها فراحت تقص عليه مافعله الحارث من تأخير الصلاة إكراما لعائشة ، فغضب أمير المؤمنين ، وكتب إليه بعزله ويؤنبه فيما فعل ، فلما بلغ الحارث كتاب عبد الملك قال :

— ما أهون والله غضبه إذا رضيت ، والله لولم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل .

وبقيت عائشة تحت عمر بن عبيدالله بن معمر سعيدة هانئة ، راضية مغتبطه فلما مات عنها حزنت عليه ، فندبته واقفة دليلا على وفائها وعدم رغبتها فى الزواج بعده ، وبلغ مكة خبر موت عمر ، فقال بعض أصحاب الحارث له :

— مايمنعك الآن منها ؟

فصمت الحارث قليلا ثم قال :

— لا يتحدث والله رجال من قريش أن نسيبى بها كان لشىء من الباطل .

الفصل السادس والأربعون

صبر جميـــل

آن أوان الرطب، فثلم عروة بن الزبير حائطة ، فجعـــل الناس يدخلون جنته يأكلون ماطاب لهم أن يأكلوا ، ويحملون ماشاء لهم أن يحملوا ، وأقبل عروة وولده محمد ووقفا عند الحائط وقد راح الناس يدخلون ويخرجون وقد امتلأت بطونهم، فأشرقت وجوههم ، وبان على عروة الهدوء المشوب بالراحة والاطمئنان ، ودخل جنته فرأى خيرا كثيرا فحمد الله ، وراح يردد وهو يجوس خلالها : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لاقوة إلا بالله » .

وهلك عبد الملك ، وبويع لابنه الوليد ، فخرج عروة وابنه محمـد إليه ، فلما بلغا الشأم ، وأصبحا بباب أمير المؤمنين ترجلا عن دابتيهما ، فقادهما محمد إلى دار الدواب ، وأخذ يربطها فضربته دابة فسقط محمد ميتا ، وبلغ عروة موت ابنه ، فلم يجزع ولم يتأوه ولم تند من شفتيه كلمة ، بل صبر وتجلد كما صبرت أمه أسماء وتجلدت يوم قتل ابنها عبد الله .

ودخل عروة على الوليد ، فأخذا فى الحديث وظهر فى وجه عروة ألم يحاول إخفاءه ، فسأله الوليد :

— مابك ؟

— وقعت فى رجلى الآكلة .

— اقطعها وإلا أفسدت جسدك .

وقر الرأى على قطع رجل عروة ، فبعث الوليد إلى الجزار ليقطعها ، فجاء وقال لعروة :

— نسقيك الخمر حتى لاتجد لها ألماً .

— لا أستعين بحرام .

— فنسقيك المرقد.

— ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه .

ودخل عليه قوم أنكرهم ، فقال :

— ماهؤلاء ؟

— يمسكونك ، فإن الألم ربما عزب معه الصبر .

— أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى .

ووضعت السكين على كعبه ، وقطع اللحم ، فتقلصت عضلات وجهه وكتم آهة ودت أن تنطلق لتفرج عن ألمه المكبوت ، وبلغت السكين العظم ، فرفعت ووضع المنشار ، وأخذ المنشار يذهب ويجىء ، فضغط عروة على أضراسه ، وعلاه ألم هائل . وراح العرق يتفصد غزيراً من وجهه ، ولم يستطع أن يكتم ألمه . فجعل يهلل ويكبر ، وراح الدم يتفجر من كعبه ، فلما تم قطعه ، أغلى له الزيت فى مغارف الحديد فحسم به ، فنفد كل ما كان فى طوق بشر ، فغشى على عروة واستمرت غشيته فلما أفاق راح يمسح العرق المتصبب عن وجهه ، وابتدأت غشاوة الألم التى كانت مسدلة على عينيه تتقشع ، فرأى قدمه بأيديهم ، فدعا بها ، فتناولها وراح يقلبها فى يده ، ثم قال :

— أما والذى حملنى عليك ، إنه ليعلم أنى ما مشيت بك إلى حرام .

وأقبل من فى المجلس يعزونه ، فقال له إبرهيم بن محمد بن طلحة :

— والله ما بك حاجة إلى المشى ، ولا أرب فى السعى ، وقد تقدمك عضو من أعضائك ، وابن من أبنائك إلى الجنة ، والكل تبع للبعض إن شاء الله تعالى ، وقد أبقى الله لنا منك ما كنا إليه فقراء ، وعنه غير أغنياء من علمك ورأيك ، نفعك الله وإيانا به ، والله ولى ثوابك والضمين بحسابك .

وعاد عروة إلى المدينة ، فقال :

— لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .

ثم رفع عينيه إلى السماء وغمغم :

— اللهم إن لى أطرافا أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لى ثلاثة ، فلك الحمد ، وايم الله لئن أخذت لقد أبقيت ، ولئن ابتليت لطالما عافيت .

الكتاب التالى

رُومْيُو وَچُولييْت

للشاعر العظيم

وليم شكسبير

ترجمة الأستاذ

علي احمد باكثير